
كيتلين دوتي
الدخان يقتحم عينيك
SMOKE GETS
IN YOUR EYES
مواجهة عاطفية ومثيرة للفضول
وجهاً لوجه مع الموت والحداد
والطقوس الجنائزية
مكتبة
عصير الكتب

الدخان يقتحم عينيك



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Smoke Gets In Your Eyes
- العنوان العربي: الدخان يقتحم عينيك
- طُبِع بواسطة: W. W. Norton & Company
- طُبِع بواسطة: دبليو دبليو نورتون وشركاه

- ترجمة: عمر العوضي
- تدقيق لغوي: هبة ممدوح
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: أكتوبر/ 2022م
- رقم الإيداع: 2022/16869م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-51-3



كيتلين دوتي

الدخان يقتحم عينيك

ترجمة: عمر العوضي

SMOKE GETS IN YOUR EYES

مواجهة عاطفية ومثيرة للفضول وجهاً لوجه مع الموت والحداد والطقوس الجنائزية





إلى أعزِّ أصدقائي

شديدي الدعم، شديدي السخاء.

المحتويات

مقدِّمة المؤلف 11

تحذير! 13

حلاقة بايرون 15

مفاجأة الجرو 23

الارتطام 37

عيدان أسنان في الجيلي 49

اضغط الزر 63

الكوكتيل الوردي 77

أطفال من أجل الشيطان 93

التخلُّص المباشر 105

طبيعي غير طبيعيٍّ 121

وا حسرتاه، أيها المسكين يوريك 133

إيروس وثاناتوس........................ 147
الوقوع في الحب........................ 159
الغُسل........................ 173
الشاهد الوحيد........................ 183
ريد وودز........................ 195
كلية الموت........................ 203
شاحنة الجثث........................ 215
فنُّ الموت........................ 225
عودة الابنة الضالة (خاتمة نوعًا ما)........................ 239
شكر وعرفان........................ 247
ملاحظات حول المصادر........................ 249
المصادر........................ 255

مقدِّمة المؤلف

وفقًا لرواية شاهد عِيَان لأحد الصَّحفيِّين، رفضت ماتا هاري -الرَّاقصة الشهيرة التي تبيَّن أنَّها جاسوسة خلال الحرب العالميَّة الأولى- ارتداء غمامة العين أثناء إعدامها على يد كتيبة الرِّماية الفرنسيَّة عام 1917.

حين لَمحتْ ماتا هاري الغمامة سألت محاميها: «هل يَلزم أن أرتدي هذه؟»

فأجاب الضَّابط وهو يبتعد مسرعًا: «لا فرق إن فضلتِ السيدة ألا ترتديها».

لم تُقيَّد ماتا ولم تُغمَّ، بل ظلت واقفة تُمعن النَّظر بثباتٍ في قاتلها، بعدما ابتعد عنها الكاهن والراهبات والمحامي.

وليس الثَّبات في وجه الموت بالعمل السَّهل، ونحن نتجنَّب التَّدريب على ذلك حين نستغشي ثيابنا ونُعرِض عن حقائق الموت والاحتضار، لكن الجهل هنا نقمة لا نعمة، بل نوع عميق من الذُّعر.

يمكننا أن نبذل جهدنا في تجنُّب الموت وإبقاء الجثث خلف أبواب معدنيَّة مغلقة، وإخفاء المرضى والميؤوس منهم في غرف المَشافي، وقد برعنا في إخفاء الموت حتى كدنا نُصدِّق أننا أوَّل جيلٍ من الخالدين. لسنا كذلك، وسنموت جميعًا وكلُّ إنسان يعرف ذلك، وكما قال عالم الأنثروبولوجيا الثَّقافية الكبير إرنست بيكر: «تُطارد الحيوان الإنسانيَّ فكرة الموت والخوف منه بشكل غير

معهود عند الحيوانات الأخرى، فالخوف من الموت هو ما يدفعنا إلى بناء الكاتدرائيَّاتِ وإنجابِ الأطفال وشنِّ الحروب ومشاهدةِ مقاطع القطط على الإنترنت في الثَّالثة فجرًا. الموت هو المحرك لكل دافعٍ إبداعيٍّ وتدميريٍّ فينا نحن البشر، وكلما اقتربنا من فهمه، اقتربنا من فهم أنفسنا».

يحكي هذا الكتاب سنواتي السِّتَّة الأولى في العمل في مجال الجنائز بالولايات المتَّحدة الأمريكية، وإن كنتَ ممن لا يرغب في قراءة وصفٍ واقعيٍّ للموت والجثث، فأنت تمسك الكتاب الخاطئ، هنا ستترك الغمامة على الباب، وستقرأ قصصًا حقيقية لأشخاص حقيقيين. وقد استبدلتُ الكثيرَ من البيانات والأسماء (أعدك أنني لم أمسَّ التَّفاصيلَ البذيئة) لحماية خصوصية الأفراد المعنيين وحماية هُويَّة المتوفَين.

تحذير!



منطقة خاصة

اللوائح التنظيمية لولاية كاليفورنيا

العنوان 16، القسم 12

المادة 3

البند 1221

العناية والتحضير للدفن

(أ) يجب العناية بالرُّفاتِ البشريِّ

وتجهيزه للدفن، أو أيِّ إجراءٍ آخر بطريقة

تحافظ على الخصوصية بأقصى درجة.

- لافتة تحذيرية إجبارية على المنشآت الجنائزية.

حلاقة بايرون

تتذكر كلُّ فتاة دائمًا أوَّلَ جثة تحلق لها، إنَّه الحدث الوحيد في حياتها الذي يفوق غرابةَ القُبلة الأولى وخَسارة العُذرية. ولن يمرَّ بك وقت أبطأ من الوقت الذي تقف فيه على رأس جثَّة رجل مُسِنٍّ وفي يدك موسى حلاقة زهري.

تحت وهج مصابيح الفلورسنت، نظرتُ إلى بايرون المسكين النَّائم بلا حراك لما أظنُّه 10 دقائق كاملة. كان هذا اسمه، بحسب البطاقة المعلَّقة في إصبع قدمه، واحترت هل أعتبرُ بايرون شخصًا عاقلًا أم جثَّة جامدة؟ فعلى الأقل يجب أن أعرف اسمه قبل مباشرة عمليَّة حميميَّة بهذه الدرجة.

كان بايرون رجلًا في السبعينيات، بشعر أبيضَ ثقيلٍ منتشرٍ على وجهه، ورأسه كان عاريًا إلا من قطعة القماش الملفوفة حول نصفه السفلي لحماية شيء لا أعلمه على وجه الدِّقة ولعلها كرامة الميت.

أما عيناه فكانتا تُحدقان إلى العدم، وارتخى جفناه فجعلت التَّجاعيد عينيه تشبهان بالونًا مفرَّغًا، وإن شُبِّهت عين المحب ببُحيرة صافية فشبيه عين بايرون البركة الراكدة، وكان الفمُّ مفتوحًا كأنَّه يصرخ بلا صوت.

ناديت رئيسي الجديد من غرفة تجهيز الجثامين: «إمم! يا مايك، أتوقع أنه حري بي أن أستخدم كريم حلاقة أو...».

دخل مايك الغرفة والتقط عبوة من خزانة معدنية وحذَّرني من العنق: «إن فتحت جرحًا في وجهه فلا نملك حيلة لمعالجتها، فاحذري، مفهوم؟»

- نعم، سآخذ حذري في كل مرة حلقتُ فيها ذقنًا، المشكلة أنني لم أفعل هذا من قبل!

لبست قفَّازًا مطَّاطيًّا وغمزت خدَّ بايرون المتجمِّد، ومرَّرت يدي على حصاد بضعة أيَّام من الشعيرات، ولم أشعر أنني مهمة كفاية لتنفيذ هذا، ولا أنني قريبة من ذلك، فلقد ظننت في صغري أنَّ الحانوتيَّة[1] قومٌ محترفون للعناية بالموتى، يحملون عن العامة هذه المهمة. فهل علمتْ أسرة بايرون أنَّ فتاةً في الثالثة والعشرين بلا خبرة تحمل موسى حلاقة في وجه عزيزهم المتوفى؟

لقد حاولتُ إغلاقَ عَيْنَي بايرون، لكن جفناه المجعدان انفتحا مرة أخرى كستار تكشف نافذة، كأنه أراد مشاهدتي وأنا أعمل. جرَّبت مرة أخرى، وجاءتني النَّتيجة نفسها. خاطبته: «لا أحتاج إلى نظرتك النَّاقدة الآن يا بايرون»، ولكن لم يرد.

تكرَّر الأمر نفسه مع فمه، فإن أردتُ إغلاقه دفعت فكَّه بيدي، لكنه يبقى مطبقًا على صاحبه لثوانٍ معدودة قبل أن يقع مرَّة أخرى. ومهما فعلت، رفض بايرون التَّصرُّف بطريقة تليق بمحترم يوشك أن يَحلِقَ الحلَّاق ذقنه. استسلمتُ وضخخت بعض الكريم على وجهه، ثم وزَّعته بإصبعي مثل طفل مختلٍّ يرسم بإصبعٍ واحدة.

قلت لنفسي: «إنَّه مجرد شخصٍ ميتٍ، إنَّه كومة لحم تتعفن يا كيتلين، إنه كالذَّبيحة».

لم يُجدِ ذلك مع مشاعري، لقد كان بايرون أكثر بكثير من مجرَّد لحم يتعفَّن، لقد كان أيضًا مُخُّ لوك نبيلًا سحريًّا مثل: الحصان وحيد القرن، أو الغرافين[2]. كان هجينًا من شيء مقدَّس وشيء مدنَّس، عالقًا معي في هذه المحطة بين الحياة والخلود.

وفي هذه اللَّحظة التي استنتجت فيها أنَّ هذه الوظيفة لا تناسبني كان الأوان قد فات، فلم يعدْ رفض حلاقة ذقن بايرون خيارًا.

---

(1) حانوتيَّة جمع حانوتي، وهو متعهّد تكفين ودفن الموتى. - المترجم.

(2) الغرافين أو الفتخاء: حيوان خرافيٌّ له رأس وجناحا عقاب وجسم أسد. - المترجم.

في النِّهاية تناولت سلاحي الزهري، أداتي في هذه التجارة السوداء. وفيما أَضع الشفرة على خده قطَّبت وجهي[1] وأصدرت صوتًا حادًّا لا تسمعه إلا الكلاب، وهكذا افتتحتُ مساري المهني في حلاقة الأموات.

حين استيقظت ذاك الصَّباح، لم أتوقَّع أن أحلقَ لجثَّة. لا تُسئ فهمي؛ لقد توقَّعت الجثة، لكنني لم أتوقعِ الحلاقة. كان هذا يومي الأول بين الحانوتيَّة في مشرحة «ويست ويند لحرق ودفن الموتى» المملوكة لعائلة واحدة (أو دار جنائز مملوكة لعائلة كما يسمَّى في أماكن أخرى. مشرحة أم دار؟ لا يهمُّ، المهمُّ أنَّه مكان للموتى).

قفزت من السرير مبكِّرةً على غير عادتي، وارتديت سروالًا لا ألبسه إطلاقًا، وأدخلت قدميَّ في حذاء طويل بمقدمة معدنية. كان السروال أقصر من اللازم والحذاء أكبر من اللازم، لكن عذري أنَّني لم أطَّلع حتى ذلك الحين على نماذج ثقافيَّة سابقة للملابس اللائقة لحرق ودفن الموتى.

كانت الشَّمس تطلع مع طلوعي من شقَّتي في شارع رونديل بليس المتزيِّن بتلألؤ إبر تعاطي المخدرات وأبخرة برك البول، ولمحت رجلًا مُشرَّدًا يرتدي تنورة قصيرة منفوشة يجرُّ إطار سيارةٍ قديمٍ في الزقاق، ليجعله على الأرجح مرحاضًا مؤقَّتًا.

حين انتقلت إلى سان فرانسيسكو، استغرقت ثلاثة أشهر لأعثر على مسكن. أخيرًا قابلت «زوي»، التي كانت تدرس العدالة الجنائيَّة وتملك غرفة شاغرة، وأصبحنا لاحقًا نتشارك منزلًا من طابقين مطليًّا بالزَّهري الزَّاهي في شارع رونديل بليس بمنطقة ميشان. واحتفَّ الممر الَّذي يقع فيه منزلنا الجميل من طرف بمطعم مكسيكيٍّ شهير متخصص في شطائر التَّاكو، ومن الطَّرف الآخر بحانة إيستا نوتشي المعروفة بكونها وجهة الرِّجال اللاتينيِّين الذين يرتدون ملابس نسائيةً وموسيقى الرانشيرا[2] الَّتي تصمُّ الآذان.

---

(1) قَطّب وجهه أي: عبس وقَطب بين عينيه وزوى ما بين عينيه. – المترجم.

(2) موسيقى مكسيكية شعبية. – المترجم.

وفيما أقطع شـارع رونديـل في طريقـي إلى محطـة قطار بارت عَبَر أمامي رجل وفتح معطفه الطويل عارضًا أمـامي نفسـه، ثم قال: «ما رأيك يا عسل؟».

- يا رجل! تحتاج إلى أفضل من هذا لتبهرني.

فامتقع وجهه على الفور. في هذا الوقت كنت أعيش في هذه المنطقة منذ عامٍ، وكان عليه حقًا أن يقدِّم أفضل من هذا ليجذب انتباهي.

ومن محطة شارع ميشان سار بي القطار تحت الخليج إلى أوكلاند، وتركني على بُعد شوارع قليلة من ويست ويند. وبعد 10 دقائق من المشي المتثاقل بدا مظهر محل عملي الجديد مخيِّبًا للآمال. لا أعلم ماذا كانت توقعاتي لمظهر المشرحة -ربَّما غرفة جلوس جدتي مع إضافة بعض أجهزة إنتاج الضباب- لكن من الطرف الخارجيِّ للبوابة المعدنية السوداء بدا المبنى عاديًا: أبيض اللون، وله دور واحد، ولن تستغرب إن اتضح أنَّه شركة تأمينات.

بالقرب من البوابة وُضعت لافتة تقول: «يُرجى رَنُّ الجرس»، استجمعت شجاعتي وأطعتها. بعد لحظة انفتح الباب وظهر مايك مدير المشرحة ورئيسي الجديد، لقد التقيته مرة قبلها وخدعني مظهره فظننتُ أنه غير مؤذٍ إطلاقًا، فقد كان رجلًا أربعينيًّا في طريقه للصلع، معتدلَ الطول والوزن، وكان يرتدي سروالًا بنيًّا فاتحًا من القماش. لكن بطريقة ما، ورَغْمَ سرواله الودود تمكَّن مايك من أن يبدو مرعبًا بنظرته الفاحصة الحادَّة من خلف نظارته وهو يدرك حجم خطئه بتعييني.

غمغم دون حماسٍ[1]: «مرحبًا، صباح الخير!»، ثم ابتعد.

بعد بضع لحظات محرجة فَهِمتُ أنَّه أرادني أن أتبعه، فخطوتُ إلى الداخل وانعطفتُ عدَّة مرات عبر ممر يتردد فيه زئير كئيب يقترب.

وتبيَّن أنَّ المظهر الخارجي الباهت أخفى مخزنًا ضخمًا، وأنَّ مصدر هذا الزئير هو هذه الغرفة الغائرة، على وجه التحديد من ماكِينَتين ضخمتين تقفان بفخر في المنتصف كأنهما منكرٌ ونكيرٌ. كانت الماكِينَتان مصنوعتين

---

(1) غمغم: تحدَّث بطريقة غير واضحة وصوت غير مسموع. – المترجم.

من معدنٍ متموِّجٍ، ولهما مدخنتان ممدودتان تخترقان السقف، وبابان ينزلقان لأعلى وأسفل، ولو كنَّا في حكاية أطفال لكان لهاتين الآلتين فمَّان يمضغان ما يقترب.

اعتقدتُ أنَّهما فُرنان لحرق الجثث، وثمَّة جثَّة الآن في فم كل منهما. لم يُتح لي رؤية هؤلاء الموتى بعد، لكن مجرد معرفة أنَّني على مقربة منهم أشعل الحماس في نفسي.

سألت مايك: «إذًا أهذه هي محارق الجثث؟».

أجاب: «إنها تشغل الغرفة بأكملها؛ لو لم تكن هذ هي المحارق لكان ذلك عجيبًا، أليس كذلك؟»، ثم تركني مرة أخرى وعبَر بابًا آخر.

ماذا تفعل فتاة لطيفة مثلي في مستودع للتخلص من الجثث؟ لا توجد فتاة عاقلة على وجه الأرض تُفضِّل العمل في حرق الجثث على وظيفة أخرى مثل: أمينة صندوقٍ في بنك أو معلمة أطفال. وربَّما تيسَّر الحصول على وظيفة في البنك أو الحضانة أكثر من هذه الوظيفة في صناعة الموت التي تنظُرُ بريبة شديدة تجاه امرأة في الثالثة والعشرين تحاول جاهدة الانضمام إلى صفوف العاملين فيها.

فقد تقدَّمت لوظائف لا يربطني بها سوى وهجِ شاشة حاسوبي الشَّخصي والبحث بكلمة «حرق الجثث» و«محرقة» و«مشرحة» و«جنائز». وفي المرَّات القليلة التي تلقَّيت فيها ردًّا كان عبارة عن: «هل لديكِ خبرة في حرق الجثث؟»، وبدت دُورُ الجنائز مشغولة بأمر الخبرة وكأنَّ مهارات حرق الجثث متاحة للجميع، والتَّدريب عليها ضمن المناهج العادية للمدارس الثانوية.

واحتجتُ إلى ستة أشهر وصناديقَ من السِّيَر الذاتية و«نأسف فقد عثرنا على شخص أكفأ» قبل الحصول على وظيفة في ويست ويند لحرق ودفن الموتى.

***

لطالما كانت علاقتي بالموت معقَّدة، فمنذ طفولتي حين اكتشفت أنَّ المصير النهائيَّ لكل البشر هو الموت، اشتعل في نفسي صراعٌ بين الفزع

والفضول. فكنت أستلقي وأنا صغيرة دون نومٍ لساعات في انتظار ظهور إضاءة سيارة أمي أمام المنزل، مقتنعةً أنَّها ترقد وسط دمها النَّازف مصابة بعدة كسور على جانب الطَّريق السَّريع والزُّجاج المبعثر حولها وعالق بين رموشها.

أصبحت مهووسةً حقًا ومستغرقة في هواجس الموت والمرض والظَّلام، ومع هذا تمكَّنت من الحفاظ على مظهر الفتاة الطبيعية في المدرسة. أما في الجامعة فقد ألقيتُ الأقنعة وأعلنت أنني سأدرس تاريخ القرون الوسطى وسأقضي أربع سنوات بين أوراق بحثيَّة بأسماء مثل: «خيالات وأساطير حول الجثث: تعريف الموت عند شعب الباجو باجو الأصليين» (لد. كارين باومجارتنر من جامعة ييل، 2004). لقد فُتنت بكل ما يتعلق بالفناء والجثث والطقوس والحِداد. ولم تُشبعني جرعة الأوراق الأكاديمية كما يُفترض، بل أردت أشياء أقوى: جثث حقيقية، وموت حقيقي.

عاد مايك يدفع نقَّالة ذات عجلات لها صرير وعليها جثتي الأولى.

وبلا مبالاةٍ شديدة طلب: «يمكنك أن تُسدي إليَّ معروفًا إذ لا وقت للتدرُّب على آلات الحرق اليوم، احلقي ذقن هذا الرجل». ويبدو أنَّ عائلة هذا الرجل رغبت في رؤيته مرة أخيرة قبل حرقه.

أومأ لي أن أتبعه، ودفع العربة نحو غرفة بيضاء معقَّمة في مواجهة محرقة الجثث، وأوضح أنَّ هذه هي غرفة «تجهيز» الجثث. ثم مشى نحو خزانة معدنية ضخمة وأخرج منها موسى حلاقة زهري اللون، وناولني إياه، ثم عاد للاختفاء للمرة الثالثة، وقبل أن يخرج أدار رأسه وقال: «حظًّا موفَّقًا».

كما ذكرتُ، لم أتوقع حلاقة ذقن جثَّة، لكن ها أنا ذي.

رَغم غياب مايك عن غرفة التجهيز كان يراقبني من كثب. لقد كان اختبارًا ومقدِّمة لفلسفة تدريبٍ أحزمَ: إما أن تعومي وإمَّا تغرقي. لقد كنتُ الفتاة الجديدة التي وُظِّفت لحرق (وحلق) الجثث، وإما أنَّني سأتحمل وإمَّا لا. فلن يشدَّ على يدي، ولا اعتبار للتدرُّج في التعليم، ولا فترة تجريبيَّة.

بعد دقائق قليلة عاد مايك، وتوقَّف لإلقاء نظرة من فوق كتفي، ثم قال: «انتبهي... لا، في اتجاه نمو شعره، وبسحباتٍ قصيرة».

حين مسحتُ القدْرَ الأخير من كريم الحلاقة من على وجه بايرون، بدا كأنه طفلٌ حديثُ الولادة، ولا أثر لجرح أو موسى عليه.

في وقت لاحق من هذا النَّهار، حضرت زوجة وابنة بايرون لرؤيته، دُفع بايرون إلى غرفة الرؤية بالدار ملفوفًا بملاءةٍ بيضاءَ. في الغرفة، نَشر مصباح أرضي بلمبة زهرية اللون ضوءًا هادئًا على وجهه المكشوف، وهي إضاءة ألطف كثيرًا من الإضاءة الفلوريسنت في غرفة التَّجهيز.

بعد حلاقتي، عمل مايك سحرًا جنائزيًّا ما لغلق عَيني بايرون وفمه الفاغر. وتحت الإضاءة الهادئة بدا الرَّجل في سلام، انتظرت سماع صرخات من غرفة الرؤية: «يا إلهي، مَن حلق له بهذه الطريقة!»، لكن لحظِّي لم يصرخ أحد.

عرفت بعد ذلك من زوجته أنَّ بايرون عمل محاسبًا لأربعين سنة. رجل دقيق، ربَّما كان سيُقدِّر الحلاقة الدَّقيقة، فقد عجز عن النُّهوض إلى الحمام قبيل وفاته بسبب مرضه بسرطان الرئة، ناهيك بالحلاقة لنفسه.

حين غادرت أسرته، حان وقت حرقه. دحرج مايك جثمان بايرون في فم أحد عملاقي الحرق، وأدار القُرص الموجود على اللَّوحة الأمامية ببراعة مذهلة. وبعد ساعتين ارتفع الباب المعدني مرة أخرى كاشفًا عن عظام بايرون وقد تحوَّلت إلى جمر أحمرَ متوهِّجٍ.

جلب مايك لي عمودًا معدنيًا بطرفه مجرفة مسطَّحة، وشرح لي الضَّربات الطَّويلة المطلوبة لجذب العظام من الماكينة. وفيما سقط ما تبقَّى من بايرون في حاوية تنتظره رنَّ الجرس ودوَّى صوته العالي عبر مكبِّرات الصوت المركَّبة في السقف خصيصى ليُمكن سماعه رغم هدير المحارق.

ألقى مايك نظَّاراته وقال: «اِنهي أنتِ إخراجه فعليَّ الرد على الهاتف».

وحين كشطتُ رماد بايرون من المحرقة، رأيت أنَّ جمجمته لا تزال سليمة تمامًا. تلفَّتُّ لأرى هل يراني أيُّ شخص -حيًّا كان أو ميتًا-؟ سحبتها نحوي،

وحين اقتربت كفاية من مقدِّمة المحرقة مددت يدي وتناولتها. كانت الجمجمة لا تزال دافئة وأمكنني الشعور بملمسها الترابيِّ النَّاعم عبر قفَّازاتي الصناعية.

حدَّقت إلى محجرَي عيني بايرون المقفرَين وحاولت تذكُّر شكل وجهه قبل دفعه في اللَّهب قبل ساعتين. هذا وجه ينبغي أن أتذكره جيدًا بعد الذي جمعنا من علاقة بين الحالق والمحلوق له. لكن هذا الوجه وهذا الإنسان لم يعد موجودًا. والدم يغطي أسنان ومخالب الطبيعة الأم كما قال تينيسون، فهي التي تُدمِّر كل شيء جميل خُلِقَ منها.

لقد تحوَّلت العظام إلى عناصرَ بسيطة غير عضوية بسبب الحرق، وأصبح هشًّا للغاية. وأدرت الجمجمة لألقي نظرة أفضل فانهارت تمامًا بين يدي، وتسللت الشظايا بين أصابعي نحو الحاوية. والرجل الذي كان بايرون -الأب والزوج والمحاسب- أصبح الآن من الماضي.

***

عُدت للمنزل هذا المساء لأجد زوي -شريكتي في الغرفة- مستلقية على الأريكة تبكي. لقد انفطر قلبها لأنها أحبَّت رجلًا متزوجًا خلال رحلتها إلى جواتيمالا (في ضربة لكرامتها).

سألتني والدموع منهمرة من عينيها: «كيف كان أول يوم؟».

أخبرتها عن أحكام مايك الصَّامتة، وعن تعرُّفي على حلاقة الجثث، لكنني قررت ألَّا أخبرها حكاية جمجمة بايرون. كان هذا سرًّا، وكتمت القوة الغريبة التي شعرت بها في تلك اللَّحظة كوني ساحقة جماجم في الكون غير المحدود.

وفيما ساعدتني موسيقى الرَّانشيرا الصَّادرة من «إيستا نوتشي» على النوم، ظللت أفكر في جمجمتي التي ستنسحق هي الأخرى، وكيف ستخرَج بعد أن يذهب كل ما اعتُبر يومًا «كيتلين» من عينين وشفتين وشعر ولحم، بل ربَّما تنسحق جمجمتي أيضًا على قفاز شخص في العشرينيات مثلي.

مفاجأة الجرو

في يومي الثَّاني في ويست ويند التقيتُ بادما. لا أقول إن بادما كانت مقززة، فلا تكفي هذه الكلمة في وصفها ولا ترتقي دلالتها على ما رأيته. لقد كانت بادما مخ لوك من مخ لوك في أفلام الرعب، ونجمة فيلم «عودة ساحرة الفودو من الموت». ومجرد رؤية جسمها المُمدَّد في حاوية حرق الجثث المصنوعة من الورق المقوَّى صرخت في نفسي: «يا إلهي! ما هذا؟ ماذا أفعل هنا؟ لماذا؟».

عرقيًّا كانت بادما من سيريلانكا وشمال إفريقيا، وأدى لون بشرتها الداكن أصلًا إلى جانب التحلُّل الشديد إلى وصم جلدها ببقع سوداء، وتدلى شعرها في كتلة طويلة منبعجة وتناثر في كل اتجاه، ومن أنفها خرج عفن أبيض كخيط العنكبوت وغطَّى نصف وجهها وامتدَّ إلى عينيها وفمها المُتثائب. كان الجانب الأيسر من صدرها منكسرًا فهيًّأ للناظر أنَّ شخصًا مارس عليها طقوسًا مُعقَّدة وأخرج قلبها من مكانه.

من حيث السن، كانت بادما في أوائل الثلاثينيات وأُصيبت بمرض وراثي نادر، لذا حُفظت جثَّتُها لأشهر في مستشفى جامعة ستانفورد لكي يُجري الأطباء بعض الفحوصات في محاولة لفهم حالتها، وحين وصلت إلى ويست ويند كان جسدها قد تحوَّل إلى شيء سريالي.

ورَغْمَ بشاعة ما تراه عيناي الهاويتان، لم أتقهقر بعيدًا عن جسدها، بل ثبتُّ في مكاني وكأنِّي ظبي مُرتعب.

وهنا أعلن مايك مدير المحرقة أنَّني لا أقبض راتبي لأرتعب من الجثث. وكنتُ مستميتة لإثبات أنَّني مؤهَّلة لمشاركته في انفصاله المرضي عن عواطفه.

«هل هذا عفن أبيض عنكبوتي؟ نعم، لقد رأيت هذا ملايين المرات من قبل. ما فاجأني في الحقيقة أنَّها حالة بسيطة جدًا». أقول هذا بلسان محترفٍ حقيقيٍّ في قطاع الموت.

ربَّما يبدو الموت ساحرًا إلى أن ترى جثَّة مثل جثَّةِ بادما. فرُبَّما تتخيل أ، ضحية من ضحايا مرض الدَّرَن في العصر الفيكتوري أنَّها ستموت وعلى زاوية شفتيها الورديتين خط واحد من الدَّم. ورُبَّما تتخيَّل حبيبة إدجار آلان بوي -أنابيل لي- التي خطفها الموت فلا يتحمَّل بوي المُتيَّم فراقها ويذهب للاستلقاء إلى جانب حبيبته وعروسه في ضريحها المُطلِّ على البحر، ربَّما تتخيل جثَّة أنابيل لي في قبرها ناصعة البياض الظريفة، دون أيِّ ذِكر لأهوال التحلُّل الذي يجعل الاستلقاء إلى جانبها يساوي معانقة النتانة والديدان.

***

لقد كان الواقع اليومي للعمل في ويست ويند أكثر بشاعة مما توقَّعتُ، ولا أقول هذا بسبب بادما وحدها. كنت أبدأ يومي هناك في الثامنة والنصف صباحًا، عندئذٍ أُشعل «فُرنَي التقطير بويست ويند»، وهذا هو الاسم الصناعي لماكينات حرق الجثث. كنت أحمل دليل تشغيل الفرن خلال الشهر الأول، وبتخبُّطٍ أضبط أقراص التحكم الآتية، من فيلم خيال علمي قديم، فتُضيء الأزرار بأضواء: أحمر وأزرق وأخضر ساطعة وتُحدِّد درجات الحرارة وتُوقد الشُّعل التي تتحكَّم في تدفق الهواء. وأهدأُ لحظات يومي وأكثرها سلامًا هي اللحظات التي تسبق زئير فرن التقطير العائد للحياة: لا ضوضاء، ولا حرارة، ولا ضغط، وإنَّما فتاة بسيطة ومجموعة من الموتى الجُدد.

وبمجرد عودته للحياة يتلاشى السَّلام، وتتحوَّل الغرفة إلى حلقة من الجحيم، تملؤها الحرارة والهواء الكثيف وصوت أنفاس الشيطان. أما البطانة الفضِّيَّة المنتفخة التي تمنحك شعورًا أنَّك في سُفن فضاء، فطبقة على

الحوائط الدَّاخلية لعزل صوت غرفة الأفران لمنع الهدير من الوصول إلى آذان الأُسر الملكومة في الكنيسة القريبة أو غرف الترتيبات.

تُصبح الماكينات جاهزة لاستقبال الجثة الأولى حين تصل درجة حرارتها إلى 1500 فهرنهايت[1]. وفي كل صباح يُكدِّس مايك عددًا من تصاريح التخلُّص من الجثث الصادرة عن ولاية كاليفورنيا على مكتبي، ويُحدد لي مَن عليهم دور الحرق اليوم. وبعد اختيار تصريحين أنطلق لتحديد موقع الضحيَّتين في «الثلاجة»: غرفة التبريد حيث تنتظر الجثث. ووسط تيارات الهواء البارد أُلقي التحية على أكوام الصناديق الورقية، التي تحمل الأسماء الكاملة وتواريخ الوفاة لأصحابها. يفوح من الثلاجة دائمًا رائحة الموت المُثلَّج، وهو عطر يصعُب وصفه بدقَّة لكن يستحيل نسيانه.

على الأرجح لم يكن شعب الثَّلاجة ليجتمعوا معًا في عالم الأحياء، لكن الموت أتى بالرجل الأسود المُسنِّ المُصاب باحتشاء عضلة القلب، والأمِّ البيضاء متوسطة العمر المُصابة بسرطان المِبيَض، والشابِّ الإسباني المُصاب برصاصة على مقربة من المحرقة جميعًا إلى هنا، ما يُشبه قمة من قمم الأمم المتحدة ومائدة مستديرة حول الفناء.

وأنا أدخل إلى ثلاجة الجثث، نذرتُ للإله أن أصبح شخصًا أفضل إن لم أجد الجثة المطلوبة تحت كومة من الجثث. وفي هذا الصباح حمل تصريح الحرق اسم السيد مارتينيز. في عالم أسعد كنتُ لأجده في الأعلى ينتظرني أن أدحرجه على نقَّالتي الهيدروليكية، لكنني انزعجت إذ وجدته محشورًا تحت السيد ويلارد والسيدة ناجازاكي والسيد شيلتون، وهذا يعني أنَّني مضطرَّة إلى تحريك الصناديق وتكديسها ثم إعادتها مثل لعبة «تتريس» ثلاجة الموتى.

حين نجحتْ أخيرًا مناورة إخراج السيد مارتينيز ووضعه على النقَّالة، أمكنني الانطلاق في رحلتنا القصيرة نحو حجرة الحرق. والعائق الوحيد في الرحلة هو الستار البلاستيكي المُتدلي من إطار باب الثلاجة لحجز الهواء البارد في الداخل (المعهود في مغاسل السيارات وثلاجات اللحوم). وكانت

---

(1) 815 مئوية. – المترجم.

شرائطها هي عدوتي؛ إنَّها تجذب المارَّ مثل الفروع المُخيفة في أفلام الرعب، كما كرهت لمسها وتخيَّلت جحافل البكتيريا وأرواح الراحلين المعذَّبة العالقة عليها.

ولو علِقتَ في الشرائط فقد أسأت حساب الزاوية الصحيحة لدفع النَّقَّالة عبر الباب. وفيما دفعت السيد مارتينيز، سمعت صوت القرع المعتاد لأنني مِلتُ بشدة وصدمت النَّقَّالة بالإطار المعدني للباب.

صادفني مايك أصارع وأحرِّك السيد مارتينيز جيئة وذهابًا وهو في طريقه إلى غرفة التجهيز. سألني: «هل تحتاجين إلى مساعدة؟ هل تستطيعين فعلها؟»، وقد رفع أحد حاجبيه أعلى كثيرًا من الآخر كأنَّه يقول: «من الواضح وضوح الشمس أنَّكِ في مأزقٍ».

أجبت بمرح وأنا أمسح مجسَّات البكتيريا عن وجهي وأرفع النَّقَّالة نحو المحرقة: «لا، دعها لي».

لقد تمسَّكت بهذه الإجابة في كل المواقف: «هل احتجت إلى المساعدة في ريٍّ نباتات الفناء الأمامي؟»، «لا، دعها لي». «هل احتجت إلى معلومات أكثر عن كيفية وضع رغوة على يد رجل لخلع خاتم زفافه عن إصبعه المنتفخة؟»، «لا، دعها لي».

مع خروج السيد مارتينيز بالسلامة من الثلاجة، حان وقت فتح الصندوق الورقي، واتضح أنَّ هذا هو أفضل جزء في عملي.

كان فتح الصناديق يشبه لُعبة الدُّميةِ المحشوة للفتيات الصَّغيرات، التي صدرت في بدايات التسعينيات وكانت تُدعى «مفاجأة الجرو». تظهر في إعلان هذه اللُّعبة مجموعة من الفتيات بين الخامسة والسَّابعة من أعمارهن، يجلسن حول لعبة من القطن والحرير والصُّوف على هيئة كلبة، ثم يفتحن بطنها مع شهقة سرور إثر التفاجؤ بالكثير من الجراء الصَّغيرة المحشوَّة في الداخل. وموضع «المفاجأة» هو عدد الجراء، فربما تجد أربعة أو حتى خمسة جراء يعيشون داخل بطنها.

هذه هي الحال تمامًا مع الجثث، ففي كل مرة تفتَحُ فيها صندوقًا قد تعثرُ على أيٍّ شيء من سيدة تسعينية ماتت بسلام تحت رعاية دار المسنين إلى رجل ثلاثيني وجدوا جثته في مكبٍّ نفايات في حارة بعد ثمانية أيام من التعفن، وكل صندوق جديد مغامرة جديدة.

وإن كان الجثمان من النَّوعِ الغريب (مثل وجه بادما ذي عشِّ العنكبوت)، يقودني فضولي إلى إجراء بحث غريب في نظام التَّسجيل وملاحظات الطبيب الشرعي وشهادة الوفاة، فقد احتوت هذه الوثائق البيروقراطية على معلومات أكثر عن حياة الشخص والأهم عن موته، عن قصة مفارقته للأحياء وانضمامه إليَّ في المحرقة.

لم يكن السيد مارتينيز خارجًا عن المألوف بالنسبة إلى الجثث، يمكن أن يعادل العثور على ثلاثة جراء، إن اضطُررت إلى منحه تقييمًا. وكان رجلًا لاتينيًا في أواخر الستينيَّات من عمره ربَّما مات بسبب مرضٍ في القلب، إذ رأيت شكل جهاز تنظيم ضربات القلب بارزًا من تحت جلده.

تقول الأسطورة المنتشرة بين عُمال المحارق: «إنَّ بطاريات الليثيوم الموجودة داخل هذا الجهاز تنفجر في الفرن إن لم تُزَل. ولهذه القنابل الصغيرة القدرة على تدمير وجوه مشغلي المحارق الأبرياء المساكين، لكن لم يتركها أحد في الفرن لمدة كافية لنعرف الحقيقة». عدت لغرفة التجهيز لجلب مشرط لإزالة الجهاز.

لمست صدر السيد مارتينيز بالمشرط وحاولت قطع فتحتين فوق الجهاز. بدا المشرط حادًا، لكنه لم يؤثر في الجلد على الإطلاق.

لم أستغرب استخدام كليات الطبِّ للمشارط في التَّدريب على طرقِ الجراحات وإزالة حساسية الطُّلاب من التسبب في الألم، فحتى في أثناء هذه العملية المصغَّرة شعرت أنَّ السيد مارتينيز يعاني من الألم، فالهيئة البشرية للميت تخلق بيننا وبينه رابطًا، تجعلنا نفترض دائمًا أنه يشعر بالألم، حتى مع تأكيد عينَي الرجل الداكنتين على أنه غادر هذا الهيكل منذ زمن بعيد.

لقد أراني مايك كيف أُجري عملية إزالة منظِّم ضربات القلب في الأسبوع السابق، لكنه جعلها تبدو سهلة. وفي الواقع تحتاج إلى قوة في استخدام المشرط أكثر مما تتخيل؛ جلد الإنسان مادة قوية مذهلة. اعتذرت للسيد مارتينيز عن عدم كفاءتي، وبعد عدة وخزات بالمشرط وعدة أصوات تعبر عن الإحباط، ظهر معدن الجهاز تحت نسيج صدره الأصفر المتكتِّل، وبسحبة سريعة واحدة تحرَّر من هناك.

والآن بعد إتمام تحديد موقع السيد مارتينيز ونقله وتجريده من جميع البطاريات القابلة للانفجار، أصبح مستعدًا لمواجهة نهايته النَّارية. فأوصلت الحزام بالفرن وضغطت على الزِّر الذي يُطلِقُ حركة خط التجميع المتمثلة في دحرجة الجسم إلى داخل الماكينة. وبمجرد إغلاق الباب المعدني، عدت للأقراص المُصمَّمة لأفلام الخيال العلمي في واجهة الماكينة وتتحكم في تدفق الهواء وإطلاق مواقد الإشعال.

تختفي المهام تقريبًا في أثناء حرق الجثة، فجلست أراقب حركة درجة حرارة الفرن، وفتحت الباب المعدني قليلًا لإلقاء نظرة خاطفة على الداخل ومراقبة تطوُّرات الجثَّة، وحين فتحت الباب الثَّقيل أطلق صريرًا، فتخيلته يقول لي: «حذارِ ما ستكتشفين يا صغيرتي».

***

قبل أربع آلاف سنةٍ، وصفتِ الفيدا[1] حرق الجثث بأنَّه ضرورة لتحرير الرُّوح المحبوسة في الجسد الميت الملوَّث. تتحرر الروح بمجرد تشقق الجمجمة، وتطير إلى عالم الأسلاف. وهذه فكرة جميلة، لكن إن لم تعتَدْ مشاهدة جسم بشري يحترق، فستجده مَشهدًا مفزعًا من أصل الجحيم.

في أوَّل مرة تلصَّصتُ فيها على جثَّة تحترق شعرت أنِّي ارتكب تعدِّيًا شنيعًا، مع أنه إجراء إلزاميٌّ بحسب بروتوكول ويست ويند. وكل أغلفة ألبومات «الهيفي ميتال» التي رأيتها وإن كثرت، أو لوحات «العذاب في جهنم» للفنان هيرونيموس بوس، أو حتى مشهد «سقوط لحم وجه الشرير النازي»

---

(1) الكتاب المقدّس للهندوسية. – المترجم.

في فيلم «إنديانا جونز» لن تكون كافية لإعدادك لمشهد حرق جسد إنسان، فمشاهدة جمجمة إنسان مشتعلة شديدٌ على النَّفس بدرجة تتجاوز أبعد شطحات الخيال.

حين يدخل الجثمان الفرن، أول ما يحترق هو الصندوق الورقي أو «الحاوية البديلة» كما تُسجَّل في الفاتورة، يختفي الصندوق على الفور بفعل ألسنة اللهب، تاركًا الجسم بلا ستر من النَّار، عندئذٍ تبدأ الأجزاء العضوية في الاحتراق ويتغيَّر الجسد بالكامل. يتكوَّن جسم الإنسان من 80% ماء، وهو ما يتبخَّر دون مقاومة تُذكر، وبعده يعمل اللهب على حرق الأنسجة الرخوة، فيتفحَّم الجسم ويُصبح أسود مقرمشًا، ويستهلك احتراق هذه الأجزاء -التي تُحدد هيئتك وشكلك- أغلب الوقت.

سأكذب إن قلت إنني لم أتخيل العمل على فرن الحرق، لقد توقَّعت أنَّها وظيفة ستتضمن وضع الجثَّة في ماكينة ضخمة والجلوس باسترخاء واضعة قدميَّ على المكتب وأنا أتناول الفراولة وأستمتع بقراءة رواية إلى حين احتراق المسكين أو المسكينة بالكامل. في نهاية اليوم أستقل القطار إلى المنزل وأنا غارقة في أفكار حالمة، بعد توصُّلي إلى فَهمٍ أعمق للموت.

***

بعد أسابيع قليلة في ويست ويند، استبدلت بأحلامي بتناول الفراولة أفكارًا أبسط مثل: متى يحين الغداء؟ هل سأصبح نظيفة يومًا؟ فالنظافة مستبعدة في المحارق مع ما تُطلق من غبار وسُخام رقيق يستقر على كل شيء بفضل رماد الموتى والماكينات الصناعية، وتستقر هذه الطبقة في أماكن تعتقد أنَّها منيعة تمامًا أمام الغبار مثل: البطانة الداخلية للخياشيم. ومع منتصف النَّهار أبدو كبائعة الكبريت الصغيرة التي تبيعه في زُقاق في القرن التاسع عشر.

وليست العظام البشريَّة غير العضوية ممتعة حين تستقر خلف أذنك أو تتراكم تحت ظفرك، لكن الرَّماد نقلني إلى عالم مختلف عن العالم الذي أعرفه خارج المحرقة.

***

كانت «إنكيو بات أوهارا» تترأَّسُ مركزًا لديانة الزِن البوذيَّة في مدينة نيويورك حين وقعت هجمات 11 سبتمبر، عندما سقط برجا مركز التجارة العالمي وسط الصراخ من الفوضى وانهيار المعادن. قالت: «لم تختفِ الرائحة لأسابيع، وأحسَّ المرء أنَّه يتنفس الناس». وأضافت: «كانت رائحة كل الأشياء التي تفكَّكت كليًّا، بما فيها البشر. البشر والحجر والأجهزة الكهربائية والزجاج وكل شيء».

إنه وصف مروِّع، لكن أوهارا نصحت النَّاس ألَّا يهربوا مما يرونه، بل أن ينتبهوا ويستوعبوا أنَّ «هذا يحدث طوال الوقت لكننا لا نراه، والآن أصبحنا نراه ونشمُّه ونلمسه ونعيشه».

في ويست ويند شعرت أنني لأول مرة «أرى وأشم وألمس وأعيش»، وهذا النوع من التَّجارب كان تفاعلًا مع الواقع، وأصبح بعدها ثمينًا ودفعني بسرعة إلى إدمانه.

لنعُد لمشاغلي الأولى البسيطة: متى سنتناول الغداء؟ وأين؟

لقد مُنحتُ نصف ساعة لتناول الغداء، وخفت إن أكلتُ في الرَّدهة تضبطني إحدى الأسر وأنا أتغذَّى على المعكرونة المحمَّرة الصينيَّة. حدثٌ محتمل: فُتِحَ الباب الأمامي فرفعت رأسي بسرعة بعينين متفاجئتين وفم تتدلى منه المعكرونة. كذلك استبعدتُ غرفة الأفران خشية أن يستقر الغبار في حاوية الطعام، ولم يتبقَ أمامي سوى الكنيسة (إن خلت من جثة) ومكتب جو.

***

ورَغْمَ أنَّ مايك هو مَن يُدير المحرقة حاليًا، ظلَّت ويست ويند لحرق ودفن الموتى الدار التي بناها جو. لم ألتقِ جو من قبل، فمالك ويست ويند قد تقاعد قبل حرقي لأولى جثثي تمامًا، وترك مايك مسؤولًا عنها. لقد أصبح شخصية أسطورية، ربَّما يغيب بجسده لكنه لا يزال يسكن المبنى. يملك جو تأثيرًا خفيًا على مايك، وظلَّ يراقبه وهو يعمل، وتأكَّد من إغراقه بالمهام. وامتلك مايك تأثيرًا عليَّ أنا، فأصبحنا نحن الاثنين نخشى من نظرة السَّخط في عينَي المُشرف علينا.

بقي مكتب جو فارغًا، وهو غرفة بلا شبابيك تمتلئ بالكثير والكثير من صناديق تصاريح الحرق القديمة وسجلَّاتٍ تحفظ كلَّ شخص كانت محطته الأخيرة في الدنيا هي ويست ويند. لا تزال صورته معلَّقة فوق مكتبه، ويبدو رجلًا طويلًا، على جلده آثار البثور القديمة، وندبة على وجهه، ولحية سوداء كثيفة، لقد بدا شخصًا عليك تجنُّب مخاصمته.

بعد إزعاج مايك للحصول على المزيد من المعلومات حول جو، أراني صورة باهتة لصحيفة استقصائيَّة محليَّة يظهر على غلافها خيال جو. في الصورة يقف جو أمام فُرنَي الحرق بويست ويند وهو عاقد ذراعيه، ويبدو أيضًا شخصًا يجب أن تحذر من مخاصمته.

قال مايك: «وجدت هذا في خزانة الملفات. سيُعجبكِ، إنه مقال يصوِّر جو في صورة مرتدٍّ شديدِ البأس يعمل في حرق الجثث، واجه البيروقراطيَّة وفاز عليها».

كان مايك محقًا، لقد أعجبتني.

- أهل سان فرانسيسكو مولعون بمثل هذه القصص.

***

أسَّس جو، الضَّابط في شرطة سان فرانسيسكو حينها ويست ويند قبل 20 عامًا من وصولي. وكانت خطَّة عمله في الأصل هي ملء الفراغ في تخصُّص دقيق مربح، هو نثر الرماد في البحر. وقد اشترى قاربًا وأصلحه لتشغيله في النقل في خليج سان فرانسيسكو.

قال مايك: «أعتقد أنه قاد هذا الشيء بنفسه، من الصين أو مكان ما، لا أتذكر».

وفي مرحلة ما، ارتكب الرجل الذي كان يخزِّن قارب جو خطأً مريعًا فأغرقه.

يصف مايك: «كان جو واقفًا هناك على الرَّصيف، أليس كذلك؟ كان يدخِّن سيجارًا ويشاهد قاربه يغرق في الخليج وهو يقول في نفسه: «عزائي أنَّني سأستخدم أموال التأمين لشراء ماكينتين لحرق الجثث بدلًا منه»».

وبعدها بعام أو نحوه، نجد جو المالك لشركة صغيرة تُدعى ويست ويند لحرق ودفن الموتى. لقد اكتشف أنَّ كليَّة سان فرانسيسكو للعلوم الجنائزيَّة كانت متعاقدة على مدى سنوات طويلة مع مدينة سان فرانسيسكو للتخلُّص من جثث المشرَّدين والمُعدمين[1].

بحسب مايك: «عرَّفت كلية الجنائز «التخلُّص» بأنَّه استخدام الجثث باعتبارها أدوات تعليميَّة لطلبتها، مع تحنيط جميع الجثث دون داعٍ وتحميل المدينة تكلفة هذا».

وفي أواخر الثمانينيات، كانت الكلِّيَّة تبالغ في الرُّسوم التي تفرضها على المدينة بما يصل إلى 15 ألف دولارٍ سنويًا. فتفوَّق جو، رجل الأعمال المحترم على عرض الكلِّيَّة بخفض دولارين فقط وربح العقد وأصبحت كلُّ الجثث التي لا يُعثر على أهلها وجثث المُعدمين تأتي إلى ويست ويند.

وضعت هذه الحركة الجريئة جو في مواجهة مع مكتب الطبيب الشرعي لسان فرانسيسكو. فقد كان الطبيب الشرعي حينها د. بويد ستيفانز ودودًا مع دور الجنازات المحلية، ولم يكن يترفَّع عن قبول الهدايا من الشوكولاتة والخمور تقديرًا لعمله وفقًا للمقال. كذلك أبدى د. ستيفانز ودًّا مماثلًا لكلية سان فرانسيسكو للعلوم الجنائزية، المكان الذي هزمه جو للحصول على عقد التَّخلُّص من جثث المعدمين. ترتب على هذا تسبُبه في مضايقات كثيرة لويست ويند، وشرع مفتِّشو المدينة في المرور عليها عدة مرَّات أسبوعيًا ليثبتوا مخالفات تافهة. ودون سابق إنذار ولا مبرر، سحبت المدينة العقد من ويست ويند، فأقام جو دعوى قضائيَّة وربحها ضد مكتب الطبِّ الشرعي بسان فرانسيسكو. أنهى مايك القصَّة بتباهٍ، معلنًا أنَّه منذ تلك اللحظة فتحت ويست ويند لحرق ودفن الموتى أبوابها، واعتزلت كلِّيَّة سان فرانسيسكو العمل تمامًا.

***

---

(1) المُعدم هو فقير لا يملك أي شيء. – المترجم.

بعد تناول الغداء وساعة من إدخال السيد مارتينيز إلى المحرقة حان وقت تحريكه، لقد دخلت جثته الماكينة بقدميها ما يسمح لشعلة الحرق الرَّئيسة بالهبوط من سقف الماكينة مباشرة على أعلى صدره، فصدر الإنسان أثخن جزء فيه وأكثر ما يحتاج إلى حرق في الجسم. وبعد أن أخذ الصَّدر دوره مع اللهيب، يجب تحريك الجثَّة إلى داخل الماكينة لينال الجزء السفلي منها المصير نفسه.

تجهَّزتُ لتنفيذ هذا بارتداء قفَّازاتي ونظَّاراتي الصِّناعية، وتناولت القضيب المعدني للمجرفة الصَّلبة الموثوقة. رفعت باب الفرن ثمانية إنشات تقريبًا، وأدخلت القضيب بين اللهب وعلَّقته بأضلع السيِّد مارتينيز. في البداية، لم أصبِ الأضلع مباشرة، لكن بمجرد أن تتقنَ الطريقة يصبح بإمكانك عادةً الإمساك بأصعب الأضلاع من أول محاولة، وحين نجحتُ في الإمساك بأضلاعه، جذبته نحوي بحركة سريعة، ما تسبب في انفجار جديد باهر لألسنة اللهب إثر التقاء الجزء السُّفلي من الجسد بالنَّار أخيرًا.

وحين تحوَّل السيد مارتينيز إلى جمر أحمر متوهِّج -ووصف أحمر مهمٌ هنا لأن تحوُّله إلى جمر أسود يعني أنه لم ينضج-، أطفأتُ الماكينة وانتظرتُ حتى انخفضت الحرارة إلى 500 درجة ثم كنست الفرن. تزيل المجرفة قطع العظام الكبيرة، لكن أيُّ عامل حرق جيِّد يستخدم مكنسة بأسنان معدنيَّة رفيعة للرماد الذي يصعب الوصول إليه. وإن كنت نفسك في حالة مناسبة، قد تتحوَّل حركة كنس العظام إلى إيقاع «زِن»[1] يشبه إلى حد كبير حركة الرُّهبان البوذيين وهم يكنسون الحدائق الرَّمليَّة بحركة متكررة من الكنس والكسح.

بعد كنس جميع عظام السيد مارتينيز إلى سلة معدنية، حملتها إلى الجانب الآخر من ماكينة الحرق ونشرتها على صينيَّة مسطَّحة طويلة. تُستخدَم هذه الصينيَّة -التي تُستخدَم في الحفر للبحث عن الآثار- في البحث عن أجزاء

(1) الزِن: طائفة من طوائف البوذية. – المترجم.

المعدنيَّة المختلفة التي يزرعها الناس في أجسادهم خلال حياتهم، والمعادن التي أبحث عنها تتراوح بين الركب إلى الأوراك الصناعية والأسنان المعدنية.

فلا بدَّ من إزالة المعادن لأنَّ الخطوة الأخيرة في عملية الحرق هي وضع العظام في مطحنة العظام المنتظِرة. يبدو اسم «مطحنة العظام» كاسم الشَّخصية الشرِّيرة في عرض كارتوني أو شاحنة شريرة، لكنَّه في الحقيقة ليس إلا اسم خلَّاط عظام بحجم قريب من حجم خلاط المطبخ.

أكنس شظايا العظامِ من على الصينيَّة إلى مطحنة العظام وأضبط قرص التَّوقيت على عشرين ثانية. وبأزيز مرتفع تتحول شظايا العظام إلى مسحوق متشابه نسميه في مجالنا: «البقايا المحروقة». وفي كاليفورنيا، تتوقَّع أسرة السيد مارتينيز (وهذا هو القانون في الحقيقة) أن تتسلَّم في جرتها رمادًا أبيضَ ناعمًا لا قطع عظام، لأن العظام تعتبر تذكرة قاسية بأنَّ جرة السيد مارتينيز لا تحتوي على مفهوم مجرد، بل إنسان حقيقي سابق.

لكن لا تفضِّل كلُّ الثقافات تجنُّب العظام، ففي القرن الأول ميلاديًّا، بنى الرومان محارقَ جثثٍ طويلة من أعمدة الصنوبر، وكانوا يريحون الجثَّة عليها دون تابوت ثم يشعلون اللهب، وبعد انتهاء الحرق، يجمع أهل الميِّت العظام ويغسلونها باللبن ويضعونها في جِرار[1].

ولكي لا تظنُّ أنَّ غسيلَ العظام مجردُ موروث من طقوس الماضي القديم، اعلم أنَّ العظام تلعب أيضًا دورًا في طقوس الموت في اليابان المعاصرة، فخلال «الكوتسواج» (تجميع العظام) تجتمع أسرة الميِّت حول ماكينة حرق الجثث عند إخراج العظام من الفرن، وتُنشر العظام على طاولة ليتقدَّم أفراد الأسرة ممسكين بأعواد تناول طعام طويلة لالتقاطها ونقلها إلى الجرَّة. تبدأ الأسرة بالتقاط عظام القدمين، وتتدرج صعودًا إلى الرأس ليتمكَّن الميت من المشي نحو الأبدية منتصبًا.

أمَّا في ويست ويند فلم يكن ثمَّة أسرة، بل أنا والسيد مارتينيز فحسب. في أطروحة بعنوان: «إباحية الموت» قال المؤلف جيوفري جورير: «يبدو أنَّ

(1) جمع جرّة. – المترجم.

اختيار حرق الجثث في كثير من الحالات يرجع إلى أنَّه يمنح شعورًا بالخلاص من الميت بصورة أكمل وأتم من الدفن».

لم أكن من عائلة السيد مارتينيز ولم أعرفه حتى، ومع ذلك كنت القائمة على جميع الطُّقوس والإجراءات المتعلقة بموته، كنتُ أنا كوتسواجه المكوَّن من امرأة واحدة.

في أزمان ماضية وثقافات من مختلف أنحاء العالم، تضمَّنت الطُّقوس التَّالية للوفاة الرَّقص الرَّقيق الذي يؤديه ممارسون مناسبون في الوقت المناسب. أما بالنسبة إليَّ، فلم أرتَح لتولي اللحظات الأخيرة لهذا الرجل دون مؤهل غير الخبرة في تشغيل ماكينة الحرق لأسابيع قليلة.

بعد طحن السيد مارتينيز إلى رماد في الخلَّاط، سكبته في كيسٍ بلاستيكيٍّ وأغلقته بعقدة كيس الخبز المعتادة. بعد ذلك أدخلت الحقيبة البلاستيكيَّة التي تحمل السيد مارتينيز في جرَّة بلاستيكيَّة بنيَّة اللون، نعرض جرارًا أغلى من هذه للبيع في غرفة الترتيبات بالخارج، حيث توجد جرار مطلية بالذَّهب ومزيَّنة بحمامة من الصُّدف من الجنب، لكن أسرة السيد مارتينيز مثل أغلب الأسر، اختارت ألا تشتري منها.

ضربتُ اسمه على آلة طباعة الملصقات التي همهمت ثم أخرجت الهُوِيَّة التي ستظل ملتصقة على غرفة تخزينه الأبديَّة. ثم حانت آخر أعمالي للسيد مارتينيز، حيث وضعته على رفٍّ فوق منصَّة حرق الجثث، منضمًّا إلى صفٍّ من الجنود البلاستيكيين بُنيِّ اللون المنتظرين بإخلاص قدوم شخصٍ ما للمطالبة بهم. وبضمير راضٍ عن إتمامي لرحلة هذا الرجل من جثَّة إلى رماد، غادرت المحرقة في الساعة الخامسة مساءً تغطِّيني طبقةٌ من الغبار البشري.



الارتطام

يقولون: «إنك لتخترع لنفسك اسمًا حركيًّا، عليك أن تضمَّ اسم أول حيوان أليف امتلكته في طفولتك مع اسم الشارع الذي نشأت فيه». ولو صحَّت هذه القاعدة، فاسمي الحركي هو «سوبرفلاي بونالي». لا أفكِّر حتى الآن في التحوُّل إلى مسار مهني يحتاج إلى اسم حركي، لكن تغريني روعة الاسم بالمحاولة.

***

«بونالي بليس» هي حارة صغيرة في «كانيوهي» بجزر «هاواي»، حيث قضيت أوَّل ثمانية عشر عامًا من حياتي. كان منزلنا متوسِّط الحال على أحسن تقدير، لكن بفضل موقعه في الجزيرة الاستوائيَّة أحاطت به سلسلة جبال مذهلة من ناحية وبخليج أزرق متلألئ من الناحية الأخرى. وخلال موسم جوز الهند، حري بك أن تقطع الممر الأمامي ركضًا لتسبق أي جوزة هند ناضجة قد تستهدف رأسك.

أشبهت بونالي بليس في سكونها حوضًا دافئًا لم يبرد قط، وكل شيء سيبقى إلى الأبد كما خُلق: الشاحنات نصف النقل التي تعلَّق على مرآتها رأس محارب مكسوة بالريش، والمطاعم المحليَّة التي تقدِّم أطباق الغداء من لحم بقر الترياكي وسلطة المعكرونة، ونغمات آلة اليوكوليلي الثَّابتة على محطة بث الموسيقى المحلية، كان الهواء أكثر كثافة مما ينبغي ولا تختلف حرارته عن حرارة جسمك إلا قليلًا.

جاء سوبرفلاي من متجر «كولاو» للحيوانات الأليفة وأنا في الخامسة من عمري داخل كيس بلاستيكي به ماء مُفلتر، وعاش في غرفة تناول الطعام في حوض أزرق مفروش بالحصى البرتقالي. وقد أطلق عليه والداي سوبرفلاي على اسم الأغنية الشهيرة للمطرب «كورتيس مايفيلد» رغم أنني أشك أنَّ سمكتي عانت حياة الكَدِّ في شوارع حي السود التي تصفها الأغنية.

بعد فترة قصيرة قضاها معنا، أُصيب سوبرفلاي بـ «إكثيوفثيريوس مولتيفيليس» المعروف في مجال الأسماك بـ«إك»، وهو طفيلي ينتهي بالموت المائي البطيء، فبدأت البقع البيضاء بالانتشار على حراشفه، وتباطأت سباحته المرحة إلى طفوٍ مثير للشفقة. وذات صباح، بعد أسابيع من تسرُّب لونه الذَّهبي الرائع وحلول الأبيض الباهت مكانه، توقَّف عن السباحة تمامًا. استيقظت أمي لتجد جثته الصَّغيرة طافية في الحوض، ولكي لا تثير ذعري، قررت تأجيل أوَّل محادثة مع ابنتها عن الموت حتى عودتها للمنزل من العمل بعد ظهر اليوم.

لاحقًا أجلستني والدتي وأمسكت بيدي بجدية وقالت: «حبيبتي، هناك شيء يجب أن أخبرك به عن سوبرفلاي».

قلت: «نعم يا والدتي؟»

لقد ناديتها على الأرجح بـ «أمي» أو «ماما»، لكنني في ذكرياتي طفلة بريطانيَّة شديدة التَّهذيب وعلى خلق رائع. قالت: «لقد مرض سوبرفلاي مرضًا أدى إلى موته، لقد رأيت هذا الصباح أنَّه لم يعد على قيد الحياة».

لكنني قابلتها بإصرار: «لا يا والدتي، سوبرفلاي بخير».

فردَّت: «عزيزتي، أنا آسفة! أتمنى لو لم يكن ميتًا، لكنه مات».

قلت: «تعالي وانظري، أنت مخطئة!».

أخذت أمي إلى حوض سوبرفلاي، حيث تطفو سمكة بيضاء هامدة بالقرب من السطح.

فقالت وهي ترفع غطاء الحوض: «اسمعي يا كيتلين، سأنكزه بإصبعي لأريكِ ما أعنيه، موافقة؟».

وفيما تهبط بإصبعها لتلمس الجثَّة، انتفض سوبرفلاي إلى الأمام، وسبح في الحوض هربًا من ضربة الإنسان.

صرخت أمي: «يا إلهي!»، وهي تتبعه بعينيها يسبح ذهابًا وإيابًا حيًّا كأفضل ما يكون، وحينها سمعت ضحك والدي من خلفها. قالت وهي تضع يدها على قلبها: «ماذا فعلت يا جون؟».

ما فعله والدي هو الاستيقاظ بعد أمي بقليل، ثم تناول فنجان قهوته المعتاد، ثم إلقاء جثة سوبرفلاي في المرحاض دون اكتراث. بعد هذا اصطحبني إلى متجر كولاو للحيوانات الأليفة لشراء سمكة بيضاء سليمة بنفس حجم سوبرفلاي بالضَّبط، وجاءت هذه السمكة الجديدة إلى المنزل وقفزت في الحوض البلاستيكي الأزرق، وكأنَّ الغرض الوحيد من حياتها القصيرة هو إصابة والدتي بسكتة قلبية.

نجحت الحيلة، وأطلقنا على حيواننا الأليف الجديد «سوبرفلاي الثَّاني»، وتعلمت في أول درس عن الموت أنَّ بالإمكان خداعه.

وبخلاف موت سوبرفلاي المسكين (وسوبرفلاي الثاني، الذي لحق به سريعًا)، فلم أرَ الموت خلال أكثر طفولتي إلا في أفلام الرُّسوم المتحرِّكة وأفلام الرُّعب. وقد تعلَّمت في وقت مبكر جدًا من حياتي كيفيَّة تسريع شرائط الفيديو، وبهذه المهارة تجنَّبت مشهد موت والدة بامبي، وكذلك مشهد موت والدة ليتل فوت الأشد وطأة في فيلم «The Land Before Time»، ومشهد «اقطعوا رأسها» في «أليس في بلاد العجائب». لم يكن بي بأس، أدمنت تلك القوى وحسب: القدرة على تخطي أي شيء.

ثم جاء يومٌ فقدت فيه السيطرة على الموت، كنت في الثَّامنة من عمري في ليلة مسابقة أزياء عيد الهلع في مركز «ويندوارد» التجاري الواقع على بعد أربعة مبانٍ فقط من منزلي. في البداية نويت أن أكون أميرة، فجلبت فستانًا أزرقَ منفوشًا مُزينًا بالترتر من متجر للملابس المستعملة. وحين أدركت أنَّ أميرة لن تفوز بأيِّ جائزة، قررت -وكلي طمع في الجائزة- إما أن أكون مخيفة وإما أبقى في المنزل.

ومن صندوق الملابس، أخرجتُ شعرًا مستعارًا أسودَ طويلًا، وهو من أدوات التنكُّر التي سأستخدمها لاحقًا في مثل هذه المشروعات الفنيَّة المهمَّة كإعادة تمثيل محرجة لمسلسل «ألانيس موريسيت» «You Oughta Know» الذي سُجِّل بكاميرا فيديو امتلكتها عائلتي في الثمانينيات. وفوق الشَّعر المستعار استقر تاج مكسور، ثم حان وضع اللمسة الأخيرة في شكل دمٍّ مزيَّف، وتمَّت المهمَّة ببضع بخَّات، لقد تحوَّلت إلى مشروع صناعة منزلية لملكة الحفل الرَّاقص الميِّتة.

حين حان دوري في مسابقة الأزياء، خرجت وأنا أعرج وأجرُّ قدمي عبر ممرِّ العرض، وسألني رئيس الحفل عبر مكبر صوت المركز التُّجاري عن الشَّخصية التي أمثِّلها، فأجبتُ بنبرة رتيبة: «لقد تركتنييي، الآن سوف يدففففعع الثمننن، أنا ملكة الحفل الراقص الميتة». أعتقد أنَّ هذا الصوت هو الذي أقنع الحُكَّام، كانت جائزتي الماليَّة 75 دولارًا، وهو ما يكفي -وفقًا لحساباتي- لشراء ثروة فاحشة من بطاقات لعبة «بوجز». وإذا كنت طالبًا في المرحلة الابتدائية وتعيش في هاواي عام 1993، فقد دارت حياتك بأكملها حول الحصول على ما يكفي من المال لشراء بطاقات بوجز.

بعد خلع الفستان المطرَّز في حمام أحد المتاجر الكبرى، ارتديت سروالًا ضيقًا باللون الأخضر النِّيون مع قميص وردي نيون (أيضًا صيحة هاوايية قوية عام 1993)، وذهبت إلى بيت الرُّعب في المركز التجاري مع أصدقائي، وكنت آمل في العثور على أبي وأقنعه أن يمدَّني بما يكفي من المال لشراء إحدى قطع «البرتزلز» العملاقة. وعلى عادة مراكز التسوُّق، تألف هذا المركز من طابقين وتتوسطه فتحة واسعة تسمح لمَن في الطابق العلوي برؤية ما يحدث في الأدنى.

رصدتُ والدي ناعسًا على مقعد في قاعة الطعام، صرخت من الدور الثاني: «أبي، برتزلز! أبي، برتزلز!».

وبينما كنت أصرخ وألوِّح بذراعي، رأيت بطرف عيني فتاة صغيرة تتسلق حيث يلتقي السلم المتحرك بسور الطابق الثاني، لقد شاهدتها وهي تنقلب

من فوق الحافَّة وتسقط على وجهها من ارتفاع ثلاثين قدمًا على منضدة خشبية مع صوت مثير للغثيان.

صرخت أمها وهي تهبط على السلم الكهربائي وتدفع بعنف زبائن المركز التجاري فيما يحتشد الناس: «طفلتي طفلتي!»، وحتى يومنا هذا، لم أسمع في حياتي قط صوتًا أكثر رهبة من صوت هذه المرأة.

ارتعشت ركبتاي، ونزلت بنظري إلى موضع جلوس أبي، لكنه كان قد تحرَّك مع طوفان المحتشدين، ولم يلاقِ بصري إلا مقعدًا خاليًا.

ظلَّ الارتطام -صوت اصطدام جسم الفتاة بالمنضدة- يتكرر في ذهني بلا انقطاع، ارتطام كئيب يليه ارتطامٌ كئيبٌ. في يومنا هذا قد يعدُّ هذا أحد أعراض اضطراب ما بعد الصَّدمة، لكنه حينها كان كصوت قرع الطبول في خلفية طفولتي.

حاول أبي -بابتسامة حمقاء كالتي استخدمها مع أمي في حادثة سوبرفلاي- تخفيف الموقف قائلًا: «أيتها الصغيرة، لا تحاولي القفز أنت كذلك. ما عليك سوى استخدام المصعد، حسنًا؟».

لم أجد هذا مضحكًا على الإطلاق، وأعتقد أنَّ عينيَّ أخبرتاه أنه لا شيء مضحك بعد الآن.

***

هناك أسطورة يابانية تحكي عن نزول «إيزاناجي» إلى العالم السفلي ليبحث عن أخته «إيزانامي». وعندما وجدها، أخبرته أنَّها ستعود معه لعالم الأحياء، ولكن -في محاكاة لأسطورة أورفيوس الغربيَّة- ينبغي ألا ينظر إليها مهما كانت الظروف. لكن إيزاناجي نافد الصبر أشعل الشعلة لينظر إليها، ولكن ضوء الشعلة لم يقع سوى على جثة إيزانامي المتعفنة والمغطاة باليرقات. حاولت إيزانامي مطاردة شقيقها، لكنه سحب صخرة عملاقة فصلت بينه وبين أخته إلى الأبد، وفصلته أيضًا عن أفكاره هو الملأى الآن بالفظائع التي اكتشفها بعد أن عرف حقيقة الموت.

في تلك الليلة، ظللت جالسة حتى الفجر أخشى إطفاء النور، كأنَّ تلك الفتاة الصَّغيرة وقعت في حفرة من الخوف في صدري، لم أشهد في هذه الحادثة عنفًا أو دماء، فقد شاهدت ما هو أسوأ على شاشة التِّلفاز، وإنَّما شهدت الواقع، فحتى تلك اللحظة لم أكن أفهم حقًا أنني سأموت وأنَّ الجميع سيموتون. ولم أعرف من يحمل هذه المعلومة المنهكة. وليت شعري[1]، كيف يعيشون وهي مستقرة في نفوسهم؟

في صباح اليوم التَّالي، وجدني والداي منزوية على أريكة غرفة المعيشة تحت عدة بطانيات، وعيناي شاخصتان[2]، فاصطحباني لتناول فطائر الشوكولاتة في مطعم «كوا هاوس»، لكننا لم نتحدث عن «الحادثة» مرة أخرى.

وأكثر ما يثير الدَّهشة في هذه القصَّة ليس أنَّ طفلة في الثامنة شهدت الموت، بل أنَّها شهدته بعد ثماني سنوات كاملة. فقبل مئة عام، لم يعرف العالم طفلًا لم يسبق له أن رأى الموت.

بل لقد بُنيت أمريكا الشَّماليَّة على الموت، فمنذ وصل المستوطنون الأوروبيون الأوائل لم يقدموا إليها سوى الموت، فمَن لم يمت من الجوع أو البرد القارص أو المعارك مع السُّكان الأصليين، تكفَّلت به الأنفلونزا أو الدفتيريا أو الزُّحار أو الجدري. فمع نهاية السنة الثالثة من عمر مستوطنة جيمستاون في فيرجينيا، كان الموت قد اقتنص 440 من أصل 500 مستوطن، وكان موت الأطفال على وجه الخصوص حدثًا مُعتادًا. فلو أنَّكِ أمٌ لها خمسة أطفال، ستُعتبرين محظوظة لو تخطى اثنان منهم العاشرة.

لم تتحسن معدلات الوفيات كثيرًا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ونرى أثر هذا في أغنية شعبية يغنيها الأطفال في مباراة القفز بالحبل:

(1) ليت شعري: تعبير يحمل معنى التعجب ويقال عند الرغبة في معرفة أمر خفي. – المترجم.

(2) شاخصة: مفتوحة وثابتة. – المترجم.

«جدتي يا جدتي،

قولي لي الحقيقة!

كم سأعيش؟

واحد اثنين ثلاثة أربعة...؟».

الحقيقة المحزنة هي أنَّ عدد سنين عمر الكثير من أطفال ذلك العصر لم يتجاوز عدد قفزات قليلة فوق الحبل، وخلال الجنازات يُدفع الأطفال ليكونوا حاملي نعوش الأطفال الآخرين، ويسيرون بتوابيتهم الصَّغيرة في الشوارع. إنَّها مهمة كئيبة، لكن مسيرة هؤلاء الأطفال نحو القبر وإن طالت ليست أسوأ من الرُّعب الذي أصاب دماغي الصَّغير بعد مشاهدة تلك الفتاة الصَّغيرة وهي تغطس في الهواء.

في رحلة ميدانية لفتيات الكشَّافة إلى محطة الإطفاء المحلِّيَّة بعد بضعة أشهر من حادث المركز التُّجاري، نهضتُ بجرأة لأسأل أحد رجال الإطفاء عما حدث للفتاة. قال وهو يهز رأسه في أسى وينظر إلى الأرض في حالة من اليأس: «أمر سيئ حقًا».

لم يكفِني هذا وأردت أن أسأل: «سيئ جدًا لدرجة أنَّهم لم يعثروا حتى الآن على بعض أعضائها، أم سيئ لأنها كانت صدمة أذهلتكم، لا يسعني أن أصدِّق أنَّها نجت؟».

لم أكن أعرف هل كانت على قيد الحياة أم ميتة، وكنت أخشى طرح السؤال، لكن بعد فترة قصيرة جدًا لن يهمني، ولن يزول الخوف الذي أصابني بالفعل حتى إن استضافتني «أوبرا» في برنامجها، وتلوِّح بيدها بعنفٍ وهي تُعلن: «كيتلين، لم تعرفي الخبر، تلك الفتاة ما زالت على قيد الحياة وها هي أمامك». لقد صرتُ أرى الموت في كل مكان، وصار يعيش عند أقصى طرف عيني مثل شخصيَّة غامضة متدثِّرة بالعباءة وتختفي حين أستدير لأواجهها.

كان هناك طالب في صفي، يُدعى «بريس هاشيموتو»، مُصاب بسرطان الدم، لم أكن أعرف ما اللوكيميا، لكن زميلٌ في الدراسة أخبرني أنه مرض يجعلك تتقيَّئين وتموتين. بمجرد أن وصف المرض، علمت على الفور أنه أصابني أيضًا، لقد شعرت به وهو ينهشني من الدَّاخل.

بدافع الخوف أردت استعادة السَّيطرة على الموت، وفهمت أنه يُفضِّل بعض النَّاس على بعض، كنت بحاجة فقط إلى التأكد من أنني كنت أحد هؤلاء المفضلين.

وللحد من قلقي خلقت باقة كاملة من السلوكيات والطقوس الوسواسيَّة القهريَّة، قد يموت والداي في أيِّ لحظة، وقد أموت أنا في أيِّ لحظة، ومهمتي أن أفعل كل شيء بالشكل الصَّحيح -العدُّ والنَّقر واللمس والتَّحقق- للحفاظ على توازن الكون وتجنُّب المزيد من الموت.

كانت قواعد اللُّعبة اعتباطيَّة، لكنها لم تبدُ غير منطقيَّة، كنت أمشي في محيط منزلي ثلاثَ مراتٍ متتالية قبل إطعام كلبي، أتخطى أوراق الشَّجر الجديدة وأخطو بقدمي مباشرة على الأوراق الميِّتة بدلًا منها، وأتحقَّق خمسَ مراتٍ من أنَّ الباب مغلقٌ، وأقفز إلى السرير من على بُعد ثلاثةِ أقدامٍ، وأحبس أنفاسي عند المرور بالمركز التُّجاريِّ حتى لا يقفز أيُّ طفل آخَر من الشرفة.

اتصل مدير مدرستي الابتدائية بوالديَّ لإجراء محادثة: «السيد والسيدة دوتي: ابنتكما تبصق في جيب قميصها؛ هذا إلهاء».

لأشهر، كنت أغمس فمي في قميصي وأغرق القماش بلُعابي وأترك البقعة الرطبة تنتشر ببطءٍ نحو الأسفل كأنها ياقة ثانية، كانت دوافعي غامضة، فبطريقة ما توصَّلت إلى أن الفشل في إسالة لُعابي على قميصي يرسل رسالة مباشرة إلى القوى الحاكمة للكون بأنني لا أريد حياتي بالشدَّة الكفاية، وأنَّهم أحرار في إلقائي إلى ذئاب الموت.

يوجد علاج لاضطراب الوسواس القهريِّ يسمَّى «العلاج المعرفي السلوكي»، فعبر تعريض المريضة لأسوأ مخاوفها، يمكنها أن ترى أنَّ النَّتيجة الكارثيَّة التي تتوقعها لن تحدث حتى وإن لم تؤدِ طقوسها، لكن والداي نشأ

في عالم كان العلاج النفسي للمجانين والمختلين، لا لطفلتيهما العزيزة ذات الثمانية رِباع (التي تصادَفَ أنَّها تبصق في طوق قميصها وتنقر بأصابعها بقلق شديد على طاولة المطبخ).

ومع تقدُّمي في السنِّ خمدت أفكار الموت المستمرة، وتوقَّفت الطُّقوس، وغاب مشهد ارتطام الفتاة عن ملاحقتي في المنام، لقد بنيتُ طبقةً أسمكَ من إنكار الموت لأتمكن من عيش حياتي، وعندما تثور المشاعر والعواطف والحزن أكبتها أعمق، وأغضب من نفسي لأنها سمحت لها بأن تطلَّ برأسها لوهلة خاطفة، وربَّما لُمتها بقسوة: أنتِ بخير؛ أنتِ لا تتضوَّرين جوعًا ولا تتعرضين للضرب، لا يزال والداك على قيد الحياة.

هناك حزنٌ حقيقيٌّ في العالم وحزنكِ تافهٌ أيتها البقرة المتذمِّرة التَّافهة. أتخيَّل أحيانًا كيف كانت ستختلف طفولتي لو عرفني أحد على الموت بطريقة مباشرة، لو جعلني أجلس في حضرته وأصافحه، وأخبرني أنه رفيقٌ حميميٌّ سيؤثر على كل خطوة أخطوها وقرار أتخذه، وهمس في أذني: «أنت غذاء الديدان»، لربما اتخذته حينها صديقًا.

إذًا ما الذي تفعله فتاة لطيفة مثلي حقًا أثناء عملها في محرقة مروعة مثل ويست ويند؟ الحقيقة هي أنني اعتبرت أنَّ الوظيفة وسيلة لإصلاح ما حدث لي وأنا في الثَّامنة من عمري، لإصلاح الفتاة التي أنساها الخوفُ النَّومَ، وظلَّت منطوية على نفسها تحت غطائها، معتقدة أنَّها في مأمن من الموت ما دامت بعيدة عن ناظريه.

ولن أتمكَّنَ بهذا من علاج نفسي فحسب، بل سيمكنُني التَّوصل إلى طرقٍ ليحتكَّ الأطفال بالموت من عمر مبكر حتى لا يتعرضوا لصدمة نفسية كالَّتي تعرَّضتُ أنا لها من تجربتهم الأولى مع الموت. وكانت الخُطَّة بسيطة: تخيَّل منزلًا أنيقًا من الفقدان، منزلًا أنيقًا وعصريًا لكن له سحر العالم القديم، كان من المقرر أن يطلق عليها «لا بيل مور» بمعنى «الموت الجميل» بالفرنسيَّة، كنت متأكدة إلى حدٍّ كبير من أنَّ هذا ما تعنيه، واحتجتُ إلى التَّحقق من هذا مجددًا قبل افتتاح دار الجنائز كي لا أكون مثل الفتيات اللاتي يعتقدن أنهنَّ

حصلن على وشمٍ لكلمة «الأمل» بالحروف الصينيَّة على خاصرتهن وهي في الحقيقة حروف كلمة «محطة بنزين».

ستكون دار لا بيل مور مكانًا يمكن لأهل الميت أن يأتوا إليه لرثاء ميِّتِهم بطرائق جديدة ومثيرة وتُعيد «المرح» للجنائز. ففيما أظن، ربَّما يكون خوفنا المَرضي من الموت نتاجًا لطريقتنا في التَّعامل معه على أنَّه الكثير من الكآبة والعذاب، والحلُّ هو التَّخلص من كل هراء الجنائز «التقليديَّة».

لنطرح عنَّا التَّوابيت الباهظة، وأكاليل الزهور المبتذلة، والجثث المحنَّطة وبذلاتها، وداعًا لعبارات التَّأبين المعلَّبة مثل «إذ سرت في وادي الأشياء الحزينة»[1]، وأكوام بطاقات المواساة التي تحمل صورة غروب الشَّمس والعبارات المبتذلة مثل: «أصبحت في مكان أفضل».

لقد أعاقتنا تقاليدنا لفترة طويلة جدًا، وحان الوقت لإزالة غشاوة إنكار الموت والدخول في وضع الاحتفال، ستُقام الحفلات والأفراح في دار لا بيل مورت، ستكون إيذانًا ببدء عصر جنائز القرن الحادي والعشرين الرائعة، سيمكنك إرسال رماد أبيك إلى الفضاء، أو جعله حشوًا للرصاص وإطلاقه من بندقية، أو تحويله إلى ماسة ترتديها. وعلى الأرجح سأصل إلى تقديم الخدمات للمشاهير من الناس، أنا متأكدة أنَّ كاني ويست سيرغب في إنشاء صورة بتقنية الهولوجرام ثلاثية الأبعاد لنفسه بارتفاع 12 قدمًا بجوار نوافير الشمبانيا في حفل تأبينه.

لنعد لحرق الجثث في ويست ويند. طويت وقت انتظاري حضور جثة أو جثتين أحرقهما بإعداد قائمة بما سأقدمه في دار لا بيل مور: تحويل الرَّماد إلى رسومات، وسحقه لصنع حبر الوشوم أو صُنع أقلام رصاص أو ساعات رملية أو إطلاقه مثل قصاصات الاحتفال اللامعة. لدفتر بيل مور غلاف أسود بسيط، لكن الصَّفحة الأولى كانت مغطاة بملصقات ملونة لحيوانات أعينها واسعة وكبيرة مثل شيء كأنها إحدى لوحات «مارجريت كين». ظننتُها تضفي

(1) تشير إلى عبارة في المزامير 23:4: «إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لَا أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي». وقد تصرفت الكاتبة فيها كما ترى. – المترجم.

على المحتويات المزيد من التفاؤل، ولكن بالنظر إليها الآن أعتقد أنَّها ربَّما ضاعفت فظاعتها عشرة أضعاف.

سألني مايك وهو يختلس النَّظر من فوق كتفي: «ما الذي تكتبينه دائمًا في هذه؟».

أجبته: «لا شيء يا سيدي، ثورة في عالم الموت ليس إلا، لا شيء».

دون نقطة تهكم وأن أنقش بسرعة الخطوط العامَّة لحزمة الجنائز المحتمل أن يحمل فيها يخت أسرة الميت لنثر رماده في خليج سان فرانسيسكو وخلفهم رباعي يعزف الكمان مقطوعة من مسرحية «الموت والعذراء».

***

بدت لا بيل مور في مخيَّلتي كأنَّها الأرض الموعودة لتجربة الجنائز في عصر ما بعد الحداثة، لكن بعد أن حصلت أخيرًا على وظيفة حقيقية في دار ويست ويند للجنائز، كلُّ ما أحتاجه هو النهوض كل يوم وارتداء سروالي الذي يجعله قصره سخيفًا وحذائي ذي المقدمة الصَّلبة، والنِّضال في خنادق حرق الجثث. فلو عملتُ بجدٍّ واجتهاد كافيين، لن يتهمني أحد بأنني لم أشق طريقي على أرض الواقع في قطاع الموت.

ثمَّة أطفال آخرون في الثَّامنة من عمرهم في هذا العالم، ولو أنَّ بمقدوري جعل الموت آمنًا ونظيفًا وجميلًا بالنسبة إليهم، فستُغفر ذنوبي، وسأخرج أنا أيضًا من فرن المحارق مطهَّرة.

عيدان أسنان في الجيلي

هناك احتمال أنَّك لم تحضرْ جنازة قط في حياتك، فمعدَّل وفاة البشر هو اثنان في الثانية الواحدة، لقد مات ثمانية أفرد وأنت تقرأ هذه الجملة، الآن أصبحوا أربعة عشر. إذا شعرت أنه معدَّلٌ نظريٌّ للغاية، انظر إلى هذا العدد: 2.5 مليون. يموت 2.5 مليون شخص في الولايات المتحدة كل عام. ويترك الموتى مسافات جيِّدة في هذه العملية بحيث لا يكاد الأحياء يلاحظون التغيير الجاري، ولو لم يمُتْ أحد طوال العام ثم سقط في 31 ديسمبر جميع سكان شيكاغو فجأة ميتين لانتبهنا أكثر، أو سكان هيوستن أو لاس فيجاس وديترويت مجتمعين. وبعيدًا عن ذلك، فما دام الميِّت ليس بشخصية مشهورة أو عامة، تُخطئ أعيننا التَّركيبة الدِّيموجرافية غير المنتظمة للجثث وهي تتسلل بين أروقة التاريخ.

لا بُدَّ أن يعتني شخصٌ ما بكل هذه الجثث التي أصبحت عاجزة عن رعاية نفسها، فيجب أن يأخذهم شخص ما من منازلهم أو المستشفيات وينقلهم إلى الأماكن التي نُخبِّئُ فيها الجثث: المشارح أو مكاتب الطبِّ الشرعي. في «جحيم دانتي»، أُوكلت هذه المهمة إلى شارون، الشيطان الأشعث الشَّائب الذي أخذ الخطاة بقاربه في نهر ستيكس نحو الجحيم.

***

أمَّا في دار ويست ويند، فكانت هذه وظيفة «كريس». كان كريس رجلًا في أواخر الخمسينيات، أسمر البشرة برأس أشيب وعيني كلب حزين، كان دائمًا شديد النظافة ويرتدي بنطالًا كاكيًا وقميصًا بأزرار: الملابس الرسمية

في كاليفورنيا. أَلِفْتُه على الفور، فقد ذكَّرني بــ «ليزلي نيلسن»، نجم أفلام Naked Gun، أفلامي المفضلة وأنا طفلة.

كان صوت كريس بطيئًا ورتيبًا، وكان أعزبَ لم يتزوج ولم يُنجب قط، ويسكن في شقة صغيرة مستأجرة يعود لها كل مساء لتناول وعاء من الرامن[1] ومشاهدة برنامج «تشارلي روز». كان كريس متشائمًا وعَكِرَ المزاج على نحوٍ أسعدني تمامًا كما أسعد بمشاهدة فيلم لــ «والتر ماثاو».

بصفته سائق نقل الجثث، كان كريس عمليًّا يعمل لدى مايك، رَغْمَ أنَّه أكبر سنًا من رئيسه وأكثر خبرة في قطاع الجنائز. كانت محادثات كريس ومايك شبيهة بالروتين الكوميدي العتيق، كان كريس يدخل مكتب مايك ويلقي مونولوجًا بالتَّفاصيل الدَّقيقة لمساره المخطط جيِّدًا لجلب السيد كيم المتوفى مؤخرًا في بيركلي، مع تأكيد أنَّه أخذ في الاعتبار الزِّحام المحتمل وأعمال البناء وشرور العالم الحديث، فيما يصدر مايك صوتًا من حلقه ويُومئ برأسه بحركة خفيفة متجاهلًا إيَّاه بشكل متقن، وعيناه مثبتتان على شاشة الحاسوب للعمل على ملء شهادات الوفاة دون إنصات حقيقي.

***

يُعرف تسلُّم الميت من منزله بــ «نداء منزلي». وربَّما يتوقَّف الأطبَّاء عن الحضور إلى منزلك في أي وقتٍ من ليلٍ أو نهار، أمَّا الحانوتيَّة فيُسعدهم الحضور إليه دائمًا. ينصُّ بروتوكول قطاع الجنائز على إمكانيَّة أن يتسلم شخص واحد بمفرده جثةً من المستشفيات ودور رعاية المسنين ومكاتب الطبِّ الشرعي، أما المنازل فيجب على فريق من شخصين نقل المتوفى منها، وحين يصل نداء منزلي أكون أنا ثاني كريس.

أقدِّر قاعدة الشخصين كثيرًا، كانت النَّقَّالة أكثر الأدوات التي صنعها الإنسان عنادًا وتمرُّدًا، إنَّها تحاول بطرائق شرِّيرة أن تُحرجك أمام رئيسك في العمل بأن تعلِّق وتمنع عنك أيَّ فائدة، أما الحمَّالة فهي الشيء الوحيد الأقل

---

(1) حساء المعكرونة الياباني. – المترجم.

تعاونًا من الجثث المربوطة عليها، ومجرد فكرة الحاجة إلى استخدام نقَّالة في منزل خاص كانت مريعة، فما بالك بالاثنتين معًا.

أول نداء منزلي أشارك فيه كان بعد أسبوع من بدء العمل في ويست ويند، وكان النداء في جنوب سان فرانسيسكو، كانت المتوفية هي مدام «آدمز»، إفريقية أمريكية في أواخر الأربعينيَّات توفيت بسبب سرطان الثدي.

لإحضار مدام آدمز، قفزتُ أنا وكريس إلى الشاحنة المعادلة لقارب شارون، وهي شاحنة خاصة يملكها كريس منذ أكثر من عشرين عامًا، عبارة عن سيارة في شكل صندوق أبيض مُصمت، تشبه السيَّارات التي تظهر في الإعلانات الحكوميَّة لتحذير الأطفال من الرُّكوب مع الغرباء. ورَغْمَ امتلاك ويست ويند لشاحنة زرقاء داكنة خاصة بها أحدث كثيرًا وأجمل من سيارة كريس وبمزايا خاصة لتسهيل نقل الموتى، فقد أحب كريس الروتين، لقد أحب شاحنته.

ونحن نعبُر بالسيَّارة جسر الخليج الضَّخم الذي يربط أوكلاند بسان فرانسيسكو، أخطأت بالتَّعليق على جمال المدينة في ذلك اليوم.

انتفض كريس قائلًا: «نعم، لكنَّك تعيشين هناك، لذا تعلمين أنَّ بمجرد اقترابك تصبح حفرة جحيم صاخبة وقذرة، الأفضل أن نقصف المدينة بأكملها، هذا إن نجحنا في العبور من الأساس».

سألته وأنا أهضم فكرة قصف المدينة: «ماذا تقصد بإن نجحنا في العبور؟»

أجاب: «انظري كيف بُني هذا الجسر يا كات -لقد دعاني كات- إنه مكتظٌّ عن آخره ويقف على دعامات من خشب التنوب ارتفاعها 80 قدمًا عالقة في الوحل. إنه مثل عيدان أسنان مغروسة في الجيلي من النَّاحية الهيكليَّة، إننا نتأرجح فحسب هنا، وقد تنقسم هذه الأرجل إلى نصفين كالأغصان في أيٍّ ثانية وسنكون جميعًا في عداد الموتى».

ضحكت بنغمة أعلى قليلًا من المعتاد، وألقيت نظرة خاطفة من النافذة على المنحدر الطويل الواصل إلى الخليج.

توقَّفنا أمام منزل عائلة آدمز بعد عشرين دقيقة دون أيٍّ أبَّهة من التي تميَّزت بها عربات الجنائز القديمة، وبدلًا من الخيول ذات الريش، كنت أنا وكريس في شاحنته البيضاء التي لا تحمل أي علامات مميزة وتعمل منذ عشرين عامًا.

قبل أن ندخل، جعلت كريس يعيد عليَّ كل شيء مرة أخرى؛ لم أكن مستعدة لإحراج نفسي أمام زوج هذه المرأة.

- لا تقلقي يا كات، يمكن لقردٍ أداء هذه المهمة، سأخبرك بما عليك فعله ونحن نعمل.

مع اقترابنا من المنزل، أصبح واضحًا أنَّنا لن نتعامل مع زوج المرأة وحده، فثمَّة ما لا يقل عن خمسة عشر شخصًا أمام المنزل ينظرون إلينا بريبةٍ فيما نسير في الطريق المؤدي إلى الباب الرئيس، وعندما ولجنا الباب وجدنا أنفسنا في غرفة معيشة ذات سقف مرتفع يقف فيها ما لا يقلُّ عن أربعين شخصًا حول جسد امرأة، سكتت أصواتهم جميعًا في الحال فيما استدارت رؤوسهم لتنظر إلينا.

ظننت أنَّ ما يرونه هما شخصان أبيضان وصلا لأخذ الأم الحبيبة بعيدًا في شاحنة التَّحرش بالأطفال.

أمَّا كريس فلم يرف له جفن، وقال: «مرحبًا يا رفاق! نحن من دار (ويست ويند لحرق الجثث وتجهيزها) هل هذه هي السيدة آدمز؟»، وأشار متسائلًا إلى الجثة النائمة وسط الغرفة.

كان جليًّا أنَّها السيِّدة آدمز في الواقع، لكن يبدو أنَّ السُّؤال قد حاز تقدير المجموعة، تقدَّم رجل وعرَّف نفسه بأنه السيد آدامز.

سألته بسرعة لأثبت لنفسي فائدة وبنبرة جدية: «هل كنت زوجها؟»

فنظر إليَّ نظرة لوم وصحح كلامي: «أيَّتها الشابَّة! أنا ما زلت زوجها، ولم أكن زوجها»، ورافقتها أربعون نظرة لومٍ مصوَّبةً نحوي من جميع زوايا الغرفة.

قلت في نفسي: «انتهى الأمر، لقد أخجلتُ نفسي وجلبت العار لعائلتي وضاع كل شيء».

أما كريس فظلَّ كما هو غير عابئ. قال: «حسنًا، أنا كريس، وهذه كيتلين، هل الوضع مناسب لنقلها؟».

المعتاد في هذه اللحظة أن تغادر العائلة الغرفة تاركة موظفي دار الجنائز ليفعلوا أيًّا ما يفعلونه بالجثَّة لإخفائها، لكن هذه العائلة أرادت أن تشاهد؛ هذا يعني أنَّ المرة الأولى التي أزيل فيها جثة من منزلٍ ستكون أمام أربعين باكيًا يكرهني.

عندئذٍ شهدت سحر كريس، لقد بدأ يخبرني بخطوات العمليَّة بالصَّوت نفسه الذي تحدث به مع مايك عن مساره التَّفصيلي لهذا اليوم، فشرح كيف سنزيل السيدة آدامز كما لو كان يشرح للحشد.

قال: «سنسحب الآن الحمَّالة لتُحاذي السرير مباشرة، وستستخدم كيتلين هذا المقبض هناك لإنزال جانبها إلى الأسفل، سأُمسك بالملاءة من ناحية الرأس وستأخذ كيتلين الملاءة من ناحية القدمين ونحركها إلى الأسفل مباشرة. ستنقل كيتلين قدميها إلى العربة بعد واحد.. اثنان.. ثلاثة. والآن ستلف الملاءة الثانية فوقها بإحكام».

استمر هذا حتى الانتهاء من لفِّ السيدة آدامز وربطها جيدًا في الحمالة، وقد ألقى كل مَن في الغرفة انتباهًا شديدًا للعملية، وتابعوا صوت كريس خطوة بخطوة. كنتُ ممتنة لأنني لم أُكشَف، ولم أشعر حقًا بأنني محتالة، فقد جعلتني طريقة شرح كريس أصدق أنني أعرف بالفعل ما أفعل، بالطبع لم أكن يومًا سوى خبيرة بلفِّ الجثث.

بينما كنَّا ندفع السيدة آدامز من الباب الأمامي جاء ابنها إلينا، كان في مثل عمري وأمه ميِّتة، أراد أن يضع زهرة على النقَّالة، لم أعرف ما ينبغي أن أقول؛ اندفعت قائلة: «لا بدَّ أنَّها كانت امرأة رائعة، صدقني، لدي فراسة[1] في هذه الأشياء».

(1) الفَراسة: ما يقع في القلب من غير حجة ظاهرة. - المترجم.

بالطَّبع كانت هذه كذبة، وكان هذا أول نداء منزلي أحضره وما زلت لا أعرف كيفيَّة لفِّ الجثث بالملاءة بالطريقة الصَّحيحة، ناهيك برصد مناخ الغرفة ومعرفة مدى «روعة» الميت قبل موته.

قال: «إممم، نعم، شكرًا لك!».

ونحن نبتعد بالسيارة عن المنزل، قعقعت السيدة آدامز في الصندوق برفق، وأكد لي كريس أنني لم أفسد كل شيء إلى الأبد.

- اسمعي يا كات، نحن نقابل الناس في أسوأ لحظاتهم، ولو أنَّ أحدهم يشتري سيارة جديدة أو منزلًا جديدًا لأحب الموقف الذي هو فيه، لكن ماذا يشتري منا نحن؟ لا شيء. نحن نأخذ منهم أموالهم لحرمانهم من شخص يحبونه، هذا هو آخر شيء يريدونه في العالم.

جعلني كلامه أشعر بتحسن.

***

يمكن لفُرني ويست ويند التَّعامل مع ست جثث (ثلاث لكل فرن) في اليوم المعتاد من 8:30 إلى 5:00. ويرتفع هذا إلى ثلاثين روحًا في الأسبوع خلال فترات الزِّحام. وتستغرق كل عملية 45 دقيقة على الأقل، وتطول هذه الفترة كثيرًا إذا كان المتوفى من الطرف الآخر من جسر سان فرانسيسكو. وإن جئنا للحق، فيجب أن أكون أنا وكريس في الشوارع نحضر الجثث طوال الوقت، وقد كان كريس يدور في الشوارع باستمرار فعلًا، ولكنه يفعل ذلك أغلب الوقت ليتجنَّب المهمات التطوعية التي يبتليه بها مايك مثل: تسلُّم شهادات الوفاة والذهاب إلى مكتب البريد. أما أنا فبقيت غالبًا في الدار وركَّزت على حرق الجثث لأن غالبية عمليات نقل الجثث لم تتطلب الفريق الثُّنائي، فلم تعد أغلب الوفيَّات الوفيات في المنازل.

والموت في بيئة المستشفيات المعقَّمة هو مفهوم جديد نسبيًا، فحتى أواخر القرن التاسع عشر كان الموت في المستشفى مقصورًا على الفقراء الذين لا مال لهم ولا أهل. أما غيرهم فإن خُيِّر يختار الموت في منزله وعلى

فراشه، محاطًا بأصدقائه وعائلته. وحتى أواخر القرن العشرين، ظل أكثر من 85% من الأمريكيين يموتون في منازلهم.

لكن أتت الثلاثينيَّات بإضفاء سمة طبية على الموت، إذ أدى ازدهار المستشفى إلى إخفاء كل مشاهد وروائح وأصوات الموت المروِّعة عن الأنظار، وفي حين كان رجال الدِّين هم من يقفون على رأس الإنسان وهو يحتضر ويواسون أسرته في مصابها، أصبح الأطباء الآن هم أبطال اللحظات الأخيرة للمريض، وقد تناول الطبُّ مسائل الحياة والموت بعيدًا عن الترغيب في الجنة، وأصبحت عملية الاحتضار تدور حول مسائل النَّظافة وخاضعة للتنظيم الشَّديد في المستشفيات. واعتبر أهل الطبِّ ما أسماه مؤرِّخ الموت «فيليب آرييس» «مشهد الموت المقزز» غير لائق بالاستهلاك العام. وأصبح من المحرمات «الدُّخول إلى غرفة تفوح منها رائحة البول والعرق والغرغرينا ورؤية الملاءات الملوثة». وأصبح المستشفى مكانًا يخوض فيه المحتضر إهانات الموت دون خدش مشاعر الأحياء.

***

خلال المرحلة الثانوية، قيل لي أنا وزملائي بعبارات قاطعة إننا إذا لم نتطوَّع لمدة معينة خلال الصيف لن ندخل الكلية، ومن ثم لن نجد وظيفة، ومن ثم سنصبح فاشلين ووحيدين. ولذا تقدَّمت خلال الصَّيف بين السنتين الثانية والثالثة للتطوع في مركز كوينز الطبي، وهو مستشفى في وسط مدينة هونولولو. تأكدوا في البداية أنني لستُ مدمنة للمخدرات وأنَّ درجاتي جيدة، وأعطوني قميصًا قبيحًا أصفرَ اللون وبطاقة عليها اسمي، وطلبوا مني تسليم نفسي إلى مكتب المتطوعين.

يَسمَح لك قسم المتطوعين باختيار منطقتين في المستشفى للعمل بالتبادل بينهما كل أسبوع، لم أكن مهتمة بالخيارات الجذَّابة مثل: محل الهدايا أو جناح الولادة. بل بدت بالونات «أتمنى لك الشفاء قريبًا»، وبكاء الأطفال طريقة مفرطة في البهجة والصَّخب لقضاء الصيف، فوقع خياري الأول على العمل في مكتب الاستقبال بوحدة العناية المركزة، مستحضرة

المشاهد الجذَّابة للممرضة التي تمسح جبهة رجل محموم من أفلام الحرب العالمية الثانية.

لم تكن وحدة العناية المركزة بالإثارة التي توقعتها، واتَّضح أنَّهم لا يتصلون أبدًا بطلبة المدرسة الثَّانوية المتطوعين في مكتب الاستقبال لمساعدة الأطباء في إنقاذ حياة المرضى، بل تطلَّب عملهم ساعات طويلة من مشاهدة العائلات القلقة بشدة وهي تتجول في غرفة الانتظار وتدخل وتخرج منها بلا توقف لاستخدام دورة المياه، وجَمع فناجين القهوة.

لكن حققت نجاحًا أكبر في خياري الثاني: قسم التوزيع. كان العمل في قسم التَّوزيع يعني توزيع البريد والملاحظات إلى أجنحة المستشفى المختلفة أو نقل النِّساء المسنَّات إلى الرَّصيف الأمامي بعد خروجهن من المستشفى، لكنه تطلَّب أيضًا نقل الجثث من المكان الذي شهد انتهاء صلاحيتها إلى المشرحة الواقعة في الطَّابق السُّفلي، وقد رغبت في تلك المهمة، وربَّما لم يفهم العاملون بدوام كامل في القسم حماسي، لكنهم حين يأتيهم نداء «أسود» يطلب نقل جثة، كانوا ينتظرون بسخاء حضوري.

وحين أتأمَّل الماضي أستغرب أن تقول إدارة المستشفى: «بالتَّأكيد، يمكن لمتطوع يبلغ الخامسة عشرة من عمره أن يتولى مهمة نقل الجثث». لا أستطيع أن أستوعب أنَّ هذا شيء معتادٌ يُكلَّف به المتطوعون الشباب.

في الواقع، أتذكر قدرًا لا بأس به من إحجامهم في البداية لكن غلبه استجدائي الناجح.

كان «كايبو»، شابًا محليًّا من هاواي أعمل تحت إشرافه المباشر، ينظر إلى السبُّورة ويصرِّح بلهجته الثقيلة: «يا كيتلين، أتودين أن تأتي لنقل السيد ياماساكي من جناح بواهي؟»، بالطبع وددت أن أُحضر السيد ياماساكي.

وصلت أنا وكايبو إلى غرفة السيد ياماساكي لنجده منطويًا على نفسه في وضع الجنين على سريره الأبيض النَّقي، بدا كأنَّه مومياء في متحف بجلد مشدود كجلد الأزياء البُنيِّ، ووزنه أقل من تسعين رطلًا بسبب المرض والشيخوخة، كان بإمكان أيٍّ منَّا أن يرفعه على النقَّالة بيدٍ واحدة.

قال كايبو: «تبًّا، هذا الرجل بلغ من العمر أرذله، أليس كذلك؟».

لقد كان عُمْر السَّيد ياماساكي مفاجأة حتى لمخضرم في مجال نقل الجثث.

كانت النقَّالة التي جلبتها أنا وكايبو معنا عبارة عن صندوق معدني مجوف، وضعنا السيد ياماساكي بداخله ثم أغلقناه بغطاء مصنوع من الحديد المقاوم للصَّدأ كأنَّه في حلَّة الطَّهي، بعد هذا لففنا ملاءة بيضاء على كل شيء، غادرتُ مع كايبو غرفة السيد ياماساكي ندفع ما بدا للناظر كأنَّه نقَّالة فارغة.

دخلنا المصعد مع زوَّار المستشفى العاديين الممسكين بالألعاب المحشوة والأزهار، الغافلين تمامًا عن الجثَّة السرِّية التي تتوسطهم (في المرة القادمة التي ترى فيها شخصين بالغين يدفعان نقَّالة فارغة في المستشفى، تذكَّر السيد ياماساكي)، نزل الآخرون من المصعد قبلنا بوقت طويل، وتابعت أنا وكايبو والسيد ياماساكي النزول إلى القبو.

قدَّم المستشفى نفسه بوصفه مكانًا إيجابيًّا يملك أحدث تقنيات العلاج ومُزيَّنًا برسومات الفن الهاوايي الجذَّابة على الجدران، وكل شيء فيه -من النقالة المزيفة والمشرحة المُخبأة تحت الأرض- مصمم بمهارة لإخفاء الموت وإبعاده عن أعين الجمهور، فالموت رمز لفشل النظام الطبي، ولن يُسمح بإزعاج المرضى أو عائلاتهم.

لقد تشابهت روحا كايبو وكريس العامل في ويست ويند بطريقة ما: رجلان يتَّصفان بالكثير من الكرامة ويعملان في نقل هيكلِ مَن فارق الحياة حديثًا، وبالنسبة إليهما كانت وظيفة نهارية مملة، رَغْمَ أنَّها قد تمثِّل للمواطن العادي مهمة معقَّدة ومثيرة للاشمئزاز.

علَّمتني النداءات المنزليَّة القليلة الأولى لويست ويند أنَّ كريس لا يهتز، حتى عند إزالة الجثث من منازلَ ضيقةٍ وفي الظروف شبه المستحيلة لمنازل سان فرانسيسكو، وحتى حين نضطر إلى صعود سلالم متعرِّجة ومحفوفة بالمخاطر، كان كريس يتنهَّد فحسب ويقول: «حري بنا أن نجلب المحمولة». والمحمولة هي نقَّالة محمولة كالتي تُستخدَم لنقل الضحايا من ميدان

المعركة، وبعد إحضارها كنا نربط المتوفى بتلك المزعجة ونخرجها وهي مائلة وقائمة ومقلوبة ومرفوعة فوق رؤوسنا وبأيِّ طريقة تلزم لنقل الجثة إلى الشاحنة.

أوضح كريس: «هذا مثل نقل الأثاث تمامًا؛ هندسة وفيزياء».

كان كريس على القدر نفسه من الثبات في وجه الجثث المتحلِّلة، والأوزان الزائدة، والأجسام الغريبة تمامًا. وبغريبة أعني المرة التي وصلنا فيها إلى منزل في منطقة «هايت»، حيث اصطحبنا إلى قبوٍ باردٍ متهالك رجلٌ محترمٌ يملك شاربًا مدببًا وأصابع ممثل أفلام الرعب «فنسنت برايس». وفي الزَّاوية وجدنا الميت متكوِّرًا على نفسه ولا يملك سوى عين زجاجية واحدة ينظر بها إلينا. «حسنًا، هذا غريب يا كات. هل يغمز لنا؟ هيا نحضر المحمولة».

أهم شيء في نقل الأجسام هو عدم الاستسلام أبدًا، وكان هذا شعار كريس وإن كان تافهًا، وقد حكى قصة عن جثة تزن أربعمئة رطل كانت في الطَّابق الثَّالث لا يوصل إليه إلا بالسَّلالم في منزل ضيق مملوء بالصراصير، رفض الرَّجل الثَّاني في ذلك اليوم حتى محاولة النَّقل، قائلًا إنهما يستحيل أن يُخرجا الشخص وهما فردان فقط. قال كريس: «لقد فقدت احترامي له في ذلك الوقت؛ أنا أكره مَن لا يحاولون».

في رحلاتِنا الطَّويلة في شاحنته علمت المزيد عن كريس، مثل: هوَسِه المسيطر على عقله بالعامين الذين عملهما في أواخر السبعينيَّات تحت مديرٍ مستبدٍ في شركة إنشاءات في هاواي. وقد أظهرت بعض خرائط جوجل أنَّه كان يعيش حينئذٍ في هاواي ضمن دائرة نصف قطرها ثلاثة مبانٍ من منزل والديَّ المتزوجين حديثًا و«باراك أوباما» في شبابه (ومن السهل تخيُّل سيناريوهات مملة حيث يتسوقون جميعًا من المتجر المحلي نفسه أو يعبرون الشارع عند إشارة المرور نفسها).

بعد أسابيع من لقائنا بعائلة أدمز، تلقَّيت أنا وكريس نداءً منزليًا من منزل فخم في شارع معروف بازدحامه بمنطقة مارينا في سان فرانسيسكو. كنا نتحدث عن هاواي أو الطَّقس أو جفاء مايك حين مررنا به.

وفيما يجلب كلٌّ واحد منا قفَّازيه المطاطيين قال كريس: «أتدرين يا كات ما يجول بخاطري؟ كم أننا نشبه القتلة المأجورين. مثل: الرجال الذين ظهروا في فيلم «Pulp Fiction»، يجلسون هكذا في السيارة ويتحدثون عن الشطيرة، ثم ينطلقون لإطلاق النار على رأس شخص ما. كذلك نجلس نحن هنا في السَّيارة ونتحدث ثم ندخل المنزل لجلب جثة شخص ما».

وعندما طرقنا الباب، فتحت الباب سيدة خمسينيَّة شعرها أسود، فقابلتها بابتسامة كبيرة وصادقة، إذ تعلَّمتُ قبلها أنَّ الابتسامة الصادقة كانت أكثر فعالية من التعاطف المزيف.

لكنها صرخت في وجهينا: «اتصلت بكُم قبل ساعات!»

أجاب كريس بصوته اللطيف: «كما تعلمين يا سيدتي بالتأكيد، إنَّها ساعة ذروة ونحن قادمان من أوكلاند».

استمرت في الصراخ قائلة: «لا يهمني، أمي تستحق أفضل خدمة، لو أن أمي هنا لوددت أن تتلقى الاحترام اللائق، لقد كانت امرأة محترمة، وهذا ليس احترامًا».

أجابها كريس: «أنا آسف سيدتي، سنعتني بها جيدًا».

دخلنا غرفة النوم للعثور على الأم. وعندما سحبنا الملاءة لتكفينها، ألقت المرأة جسدها على والدتها وانتحبت بشدة: «لا يا أمي. لا، لا! أحتاج إليك يا أمي، لا تتركيني!».

هذا هو مظهر المشاعر الإنسانيَّة النقيَّة، فقد كانت مشاعرها تحمل جميع علامات الصدق: الموت، والفقدان، والنحيب المؤلم. وددت لو تحرَّكت مشاعري، لكنها لم تتحرك.

غمغم كريس: «الشعور بالذنب».

همستُ كهمسه: «ماذا؟»

أجابني: «الشعور بالذنب، لقد رأيت كثيرًا. لم تزر والدتها منذ سنوات، والآن تتصرف كأنَّها لا تستطيع العيش دونها».

وختم كلامه بما علمت مباشرة أنه الحق: «هذا ادِّعاءٌ يا كات».

رفعت المرأة نفسها أخيرًا من على جثة والدتها، وتمكنَّا من تكفين والدتها وإخراجها من الباب، وبينما نُخرج النقَّالة إلى الشارع المزدحم، توقَّف النَّاس وحدقوا إلينا، توقف مَن يتنزَّهون مع كلابهم وأبطأت الأمهات العائدات من تمرين اليوجا عربات أطفالهن وحدَّقن إلينا كما لو كنَّا مُحققين يسحبان جثة من موقع جريمة مروِّعة، لا عاملين في المشرحة يتعاملان مع جثة امرأة تسعينية ماتت بهدوء في منزلها وعلى فراشها.

لم يكن مشهد الموت فضيحة قديمًا، فعندما اجتاح الطَّاعون الدَّبلي أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي، كانت جثث الضحايا تُلقَى في الشارع على مرأى من الجمهور، وربَّما ظلَّت كذلك لعدة أيام. وفي نهاية تأتي عربات الموت لجمع الموتى ونقلهم إلى أطراف المدينة حيث تُحفر خنادق المقابر الجماعية، وقد وصف مؤرخ من إيطاليا كيف أنَّ طبقات الجثث، كانت توضع في باطن الأرض: أجساد ثم بعض التراب يعلوه أجساد ثم المزيد من التراب، «تمامًا كما تعتبر اللازانيا من طبقات من المعكرونة والجبن».

إذًا فعدم الاضطرار إلى رؤية الجثث في أيامنا ميزة للعالم المتقدِّم، ففي يوم عادي في مدينة فاراناسي الواقعة على ضفاف نهر الجانج في الهند يُقام ما بين ثمانين إلى مئة حريق على أعتاب النَّهر بعد حرق الجثَّة على رؤوس الأشهاد (يقوم عليها أحيانًا أطفال صغار من طبقة لا يمكن المساس بها في الهند)، تُلقى العظام والرَّماد في مياه النَّهر المقدس، ولا تعتبر عملية حرق الجثث زهيدة الثمن، إذ تجتمع تكلفة الخشب باهظ الثَّمن والأكفان الملونة وأُجرة عامل الحرق المحترف. أما العائلات التي لا تملك تكلفة حرق الجثث وتريد إطلاق أحبائها المتوفين في نهر الجانج، فتضع الجسد بأكمله في النَّهر ليلًا، تاركة الجسد هناك ليتحلل.

ولهذا يرى زوَّار مدينة فاراناسي جثثًا منتفخة تطفو على صفحة الماء أو تأكلها الكلاب، وثمَّة جثث كثيرة في النَّهر لدرجة أنَّ الحكومة الهندية أطلقت آلاف السَّلاحف الآكلة للحم لتتخلص من «الملوثات الناخرة».

لقد أنشأ العالم الصِّناعي أنظمة لمنع مثل هذه المواجهات البغيضة مع الموتى، ففي وقت قراءتك لهذا الكلام، تتحرك الجثث على الطرق السريعة

داخل شاحنات بيضاء غير مميزة مثل التي يقودها كريس، كما تتجوَّل الجثث حول العالم داخل كابينة الشَّحن في الطائرات فيما يسافر الرُّكاب في الأعلى. لقد وضعنا الموتى ليس فقط تحت الأرض، بل وتحت أغطية النقَّالات المزيَّفة في المستشفى، وفي بطون طائراتنا، وفي دهاليز الوعي البشري.

ولا نعي لوجودها إلا عندما تضطرب الأنظمة، فبعد إعصار كاترينا نقلت صحيفة واشنطن بوست عن الدكتور «مايكل أوسترهولم»، من مركز أبحاث وسياسات الأمراض المُعدية، قوله: «من بين الدروس الكثيرة المستفادة من إعصار كاترينا هو أنَّ الأمريكيين ليسوا معتادين على رؤية الجثث في شوارع المدن الكُبرى». لقد فُزت بجائزة أكثر تصريح متحفِّظ في القرن يا دكتور.

خلال الدَّقائق القليلة التي استغرقتُها أنا وكريس في نقلِ الأم من باب منزلها الأمامي إلى صندوق الشَّاحنة، منحنا المتنزِّهين مع الكلاب والأمهات العائدات من تمرين اليوجا إثارة مجانية وآمنة، نفحة من الانحراف، لمحة بسيطة للموت المحيق بهم.

اضغط الزر

سي بي إس نيوز: قال مسؤولو هيئة النَّقل السريع بمنطقة خليج سان فرانسيسكو إن رجلًا على الأرجح في العشرينيَّات من عمره وقف طوعًا على مسارات هيئة النَّقل السريع بمنطقة الخليج قبل أن يُتوفى إثر دهسه بقطار في محطة سان فرانسيسكو في ظهر يوم السبت.

وقال لين تون جونسون، المتحدث باسم الهيئة: «إن شهود العيان زعموا أن الرجل وقف أمام القطار في انتظار أن يصطدم به، ولم يحاول الابتعاد عن الطريق على الإطلاق».

ووفقًا لجونسون، تعرَّض الرَّجل للدهس تحت عجلات القطار في محطة سان فرانسيسكو سيفيك سنتر، ما أدى إلى توقُّف جميع القطارات في تلك المحطة لما يقرب من ثلاث ساعات وتسبب في تأخيرات على مستوى الشَّبكة بأكملها.

كان «جيكوب» في الثَّانية والعشرين من عمره عندما نزل على السِّكة الحديد وانتظر القطار ليُنهي حياته. اثنان وعشرون عامًا تعني أنَّه كان أصغر مني بسنة واحدة فقط، لم تظهر على جثته آثار السَّحل تحت قطار، بل بدت كأنه دخل مشاجرة في حانة في الثَّانية صباحًا: كدمات خفيفة على الوجه وبضعة جروح.

قال مايك دون انبهار: «الرجل الذي جيء به إلى هنا في الشهر الماضي، ذاك الذي دُفع تحت القطار الخفيف، كان مقطوعًا إلى نصفين».

كان الضرر البالغ الوحيد الذي لحق بجاكوب هو فقدانه مقلة عينه اليسرى، والتي من المفترض أن تكون تائهة بين المسارات، لكن إذا واجهت الجانب الأيمن من وجهه لبدا لك طبيعيًّا تقريبًا وكأنَّ بإمكانه فتح عينه الباقية والتحدُّث معك عن أي شيء.

يقول الفيلسوف الرُّوماني إميل سيوران: «إنَّ الانتحار هو الحقُّ الوحيد الذي يتمتع به الإنسان حقًّا». قد تصبح الحياة غير متحمَّلة من جميع النواحي، وقد يسلبنا هذا العالم كل شيء، ولكن ليس بمقدور أحد منعنا من القضاء على أنفسنا، ولهذا ليس غريبًا أن يموت سيوران، وهو رجل «مهووس بأسوأ الاحتمالات»، منعزل ومصاب بالأرق في باريس.

ربَّما كان سيوران ميَّالًا إلى الشكوى السلبية، لكن الجنون واليأس قد يزوران الإنسان مهما كانت فلسفاته، فها هو نيتشه الذي اشتهر بمقولته في كتاب «أفول الأصنام»: «ما لا يقتلني يجعلني أقوى»، عانى من انهيار عصبي في سنِّ الرابعة والأربعين، وانتهى به الحال تحت رعاية دائمة من أخته، التي انتحر زوجها في باراجواي.

بقدر ما ينضوي عليه الانتحار في أعين النَّاس من قسوة وأنانية، أظنني شعرت بالدَّعم لقرار جيكوب، فإن كان كل يوم من حياته بائسًا مملًا، فلا يحقُّ لي مطالبته بالبقاء على قيد الحياة وتحمُّل المزيد من البؤس والملل. لم أستطع معرفة ما إذا كان المرض النَّفسي أم الشُّعور الغامر باليأس هو ما دفع جيكوب إلى الانتحار، ولا يحقُّ لي التكهُّن بدوافعه، أمَّا أسلوب الانتحار فيمكنني الحكم عليه، وخالفته بشدة فيه.

لقد أزعجني شيء ما في الطريقة التي انتحر بها جيكوب، أزعجني المشهد العام لوقوفه أمام قطار مزدحم. خلال المرحلة الجامعية، أدرت مقهى في حرم جامعة شيكاغو، وقبل شهرين فقط من بدء العمل في ويست ويند، شنق مساعد مديري السابق نفسه في غرفة نومه بعد شجار مع صديقته واضطرت زميلته في السكن إلى التفاجؤ بجثته عند عودتها للمنزل.

وجعلتني حقيقة أنَّه حمَّل هاتين المرأتين عبء انتحاره مدى الحياة أشعر بانقباض أكبر من وفاته نفسها، إذ يبدو لي أنَّك إذا قرَّرت إخراج نفسك من الخدمة أنَّ العدل يقتضي أن تفعل ذلك بطريقة تُلحق أقل ضرر ممكن بالآخرين، وأن تخرج بهدوء من الباب الخلفي لحفلة الحياة، وتضمن عدم اضطرار الضيوف الآخرين إلى الاكتواء بنار اختيارك.

كان معظم الضرر الذي تسبب فيه جيكوب بوقوفه أمام القطار في ذلك اليوم ماليًا، فقد تأخَّر الآلاف على العمل أو فاتتهم رحلاتهم الجويَّة من سان فرانسيسكو ومطار أوكلاند، وخولفت مواعيد أخرى مهمة.

لكن الضَّرر الواقع على قائد القطار، الذي اضطر إلى أن ينظر في عينَي جيكوب وهو يتَّجه نحوه عاجزًا عن إيقاف القطار في الوقت المناسب، فلم يكن ماليًا. يقتل قائد القطار العادي ثلاثة أشخاص خلال حياته المهنية رُغمًا عنه، ولا أظن أنَّ ثمَّة طريقة أسرع لفقد الشَّغف بوظيفة مستقرة ومرغوبة من الحاجة إلى الاختيار بين قتل شخص واحد وقتل عدة أشخاص.

كذلك لم يكن الضرر ماليًا فحسب على الواقفين على الرصيف، إذ كان عليهم أن يقفوا هناك وهم يصرخون فيه ليبتعد عن السكة: ألم يرَ أنَّ هناك قطارًا قادمًا؟ إذًا فقد جاءت لحظة أدركوا فيها أنه يعلم جيدًا أنَّ القطار قادمٌ وأنَّهم سيُجبرون على مشاهدة ما سيحدث بعد ذلك. لقد تورَّطوا في استكمال حياتهم مع المشهد والأصوات وصرخاتهم المرتبكة.

قال مايك إن بعضًا من هؤلاء الناس سيحسدونني على فرصة حرق جثة جيكوب. قال: «ولربَّما صفعوه على وجهه أولًا على سبيل الانتقام البسيط».

لكن الواقع أنهم لن يروا جسده أبدًا، وتمتَّع جيكوب بتسلُّطه عليهم وعلى أحلامهم.

تذكَّرت السنوات التي قضيتها عالقة في ذكرى الفتاة الصغيرة وهي ترتطم بالأرض في المركز التجاري، وشعرت بتعاطف شديد مع هؤلاء الناس، وتمنيت أن أفتح أبواب المحرقة لقائد القطار والركَّاب الآخرين.

تمنَّيت لو وقفوا إلى جانبي في ذلك اليوم، مجتمعين حول جثَّة جيكوب حتى أستطيع أن أعلن: «انظروا إليه، أراد أن يموت وقد مات، لكنكم ما زلتم على قيد الحياة، أنتم لستم ميتين».

بالطبع يظل العرض المفتوح للجثث مجردَ خيالٍ في رأسي ويظل مخالفًا للقانون، إذ تنصُّ اللوائح التنظيمية لولاية كاليفورنيا بوضوح على أنَّ «العناية والإعداد للدفن وأيَّ تصرفٍ آخر مع أيِّ جزء من الرفات البشري يجب أن يُجرى بخصوصية تامة».

***

في أواخر القرن التاسع عشر، كان مواطنو باريس يأتون إلى المشرحة بالآلاف كل يوم لمشاهدة جثث الموتى المجهولين، وكان المتفرجون يصطفُّون لساعات طويلة ليحصلوا على فرصة الدخول، وخلال ذلك يمر عليهم الباعة حاملين الفاكهة والمعجنات والألعاب، ومن ينتهي انتظاره يُقاد إلى غرفة العرض، حيث توضع الجثث على خشبة خلف نافذة زجاجيَّة كبيرة. وتصف «فانيسا شوارتز»، الباحثة في باريس نهاية القرن التاسع عشر مشرحة باريس بأنَّها «مشهد من الواقع».

في نهاية المطاف، أصبحت شعبية معارض المشرحة بين مواطني باريس خارجة عن السَّيطرة، فأُغلقت أمام الجمهور، وبقيت المشارح خلف الأبواب المغلقة حتى يومنا هذا، ربَّما لأن المسؤولين عن تنظيم الموت يعتقدون أنَّ العامة سيُفرطون في الولع بها، وأنَّ هذا الولع خطأ بطبيعته. أغلقوا المشرحة إن أردتم، ولكن سيظهر مصدر جذب آخر يملأ الفراغ. يظهر لنا من الشعبية الهائلة التي يحظى بها «عالم الجثث»[1]، المعرض المتنقِّل الذي أسسه «جونثر فون هاجينز» للأجسام البشرية المكسوَّة بالبلاستيك، أن الدافع البشري لوضع جثث السابقين للعرض لا يزال بنفس قوته حتى اليوم. وعلى الرغم من الجدل المستمر بسبب شبهة حصول فون هاجينز على بعض جثثه من السُّجناء السِّياسيين في الصِّين، فإنَّ «عالم الجثث» يعتبر

(1) Body Worlds.

أقوى مصدر جذب سياحي في العالم (حيث اجتذب 38 مليون شخص حتى بداية عام 2014).

عاش جيكوب في ولاية واشنطن وزار سان فرانسيسكو لأسباب غير معروفة، رتَّبَ والداه حرق جثته عبر الهاتف، وأرسلا الاستمارات المطلوبة إلى ويست ويند عبر الفاكس وأمليا علينا عبر الهاتف رقم بطاقة الائتمان لتغطية المصاريف. كالعادة، كنت أنا وجيكوب وحدنا في لحظة وضعه في الفرن، وكانت عينه تنظر إليَّ.

وبسبب موتته العنيفة، ذهبت الجثَّة إلى مكتب الفحص الطِّبي قبل إحضاره إلى ويست ويند، ومكتب الفحص الطِّبي هو الإصدار الجديد من مكتب الطَّبيب الشَّرعي، حيث يديره أطباء مدرَّبون على التحقيق في الوفيات المشبوهة أو العنيفة. وكلَّما ذهب مندوب ويست ويند لتسلُّم جثة، يُسلِّم موظفو المكتب لنا أيَّ متعلقات شخصية تصل مع المتوفى، وهي ما تشمل عادةً الملابس والمجوهرات والمحافظ وغيرها.

جاء جاكوب بحقيبة ظهر، لم يرغب والداه في تسلُّمها عبر البريد، لذا كان المكان الوحيد الذي يمكن أن تذهب إليه هو النيران جنبًا إلى جنب مع جيكوب.

وضعت حقيبة الظهر على منضدة وفتحت السحَّاب، ظننتها الجائزة الكبرى وأنني في طريقي للعثور على ما يفهمني عقل رجل مجنون مكتئب، لكن كلما أخرجت شيئًا وجدته طبيعيًا أكثر من الذي قبل: ملابس احتياطية، وأدوات النظافة، وزجاجة كومبوتشا. ثم كومة من بطاقات الملاحظات. قلت لنفسي: «أخيرا! قصاصات مجنون انتحاري؟ لكن لا، إنَّها بطاقات تعليمية للغة الصينية».

خاب أملي؛ كنت أتوقع العثور على إجابات في حقيبة الظَّهر تلك وفهم الحالة البشريَّة.

صاح مايك من مكتبه: «يا كيتلين! أعيدي هذه المحفظة للحقيبة قبل حرقها».

أجبتُه: «مهلًا، أنملك محفظته؟»

قال: «أنا أنظر إلى هُويته الشخصية الآن. وثمَّة بطاقة الجامعة ورخصة القيادة وتذكرة الحافلة التي أوصلته إلى سان فرانسيسكو. أوه! وخريطة لشبكة قطارات هيئة السكة الحديد بمنطقة خليج سان فرانسيسكو. هذا محبط، لقد كتب شيئًا ما على خريطة القطارات: «كلمة اليوم: الأنثروبوفاجي»، ماذا تعني؟»

قلت: «لا علم لي بها. سأبحث على (جوجل) الآن».

تهجَّيتُ الكلمة: «أ-ن-ث-ر-و-ب-و-ف-ا-ج-ي»، قلت: «تبًا! إنَّها تعني أكل لحوم البشر، إنَّها مرادف لأكل لحوم البشر».

ضحك مايك على الكوميديا السوداء للتعريف وقال: «مستحيل، أتظنين أنَّ هذا يعني أنه صارع في نفسه شهية نهمة للحم البشري؟ بحسب تذكرة الحافلة هذه لقد وصل إلى سان فرانسيسكو في اليوم السابق لموته، فلِمَ لمْ ينتحر في واشنطن؟»

أضفت: «صحيح! لماذا أقطع كل هذه المسافة إلى سان فرانسيسكو لأقف أمام قطار في منطقة الخليج؟»

فأجاب: «لعله لم يكن يحاول الانتحار، بل أن يكون كريهًا ويتسبب في انقلاب القطار أو شيئًا من هذا القبيل، مثل ذلك الشاب في فيلم Stand by Me».

سألت: «كوري فيلدمان؟»

فقال: «لا، الآخر».

سألت: «ريفر فينيكس؟»

قال: «لا، ليس هذا أيضًا. أيًّا يكن، إذا كان هذا ما حاول فعله، فيا للبؤس، لم يُفلح بأيٍّ درجة».

عندما دفعت جيكوب إلى ألسنة اللهب، اقتصر ما أعرفه عنه على أنه يبلغ 22 عامًا وأنه من واشنطن وأنه درس اللغة الصينية، وربَّما كان مهتمًا بأكل لحوم البشر ولو في يومه الأخير. قبل بضعة أسابيع، استثمرت راتبي الأول في شراء المجموعة الكاملة لمسلسل «HBO: Six Feet Under»، المسلسل

المحبوب الذي يحكي عن قصة عائلة تملك مشرحة. وفي إحدى الحلقات زار «نيت» مدير الجنائز شابًا وحيدًا يحتضر لترتيب حرق جثته، كان الرجل يشعر بالمرارة والغضب من اقتراب موته وقلّة دعم عائلته له.

يسأل الشاب عمن سيضغط على زر آلة الحرق بعد موته، فيجيبه نيت: «أيًّا من تريد. يحب البوذيون أن يضغط عليه فرد من العائلة، ولكن لا يختار بعض الناس أحدًا وفي هذه الحالة يتولى ذلك عامل تشغيل المحرقة».

قال: «سأختار ذلك الرجل».

وهذا أنا، أنا الشخص الموجود في المحرقة، كنت ذلك الرجل بالنسبة إلى جيكوب، ورغم ما فعل، لم أرد أن يكون بمفرده.

إنَّ النصر العظيم (أو المأساة الرهيبة) للإنسانية هي أنَّ أدمغتنا تطوَّرت على مدى مئات الآلاف من السنين لدرجة إدراك أنَّنا ميتون. نحن مع الأسف، مخ «لوك» تُدرك ذاتها، حتى لو تحركنا طوال الوقت لابتكار طرق لإنكار فنائنا، ومهما بلغنا من القوة أو الترابط أو التميُّز، فإننا نعلم أنَّنا في النهاية محكوم علينا بالموت والتحلل. هذا عبء عقلي يشاركنا فيه عدد قليل من الأنواع الأخرى الثَّمينة على الأرض.

لنفترض أنَّك غزال تُرعى في السهول الإفريقية، وفي الخلفية الموسيقى التصويرية لفيلم «الأسد الملك»، وثمَّة أسد جائع يطاردك من مسافة بعيدة، إنَّه يندفع للهجوم، لكنَّك تمكَّنت من الهروب اليوم. ستشعر بالقلق في اللحظة بسبب الغريزة وردِّ فعل القتال أو الهروب، لقد علَّمتك الخبرة والمواد الوراثيَّة أن تَجري وتهرب من الخطر، فتتسارع ضربات قلبك لبعض الوقت، لكن سرعان ما تعود للرعي السَّعيد وكأنَّ شيئًا لم يكن، اقضم وامضغ بهناء حتى يعود الأسد للجولة الثَّانية.

قد يهدأ قلب الإنسان بعد هروبه من الأسد، لكننا لا نتخلص أبدًا من معرفة الاحتمال الآخر غير النَّجاح في الهروب. نعلم أنَّ الموت ينتظرنا، ويؤثر على كل ما نفعل، بما في ذلك الرَّغبة في الاعتناء بموتانا.

***

منذ نحو 95 ألف سنة، دفنت مجموعة من الإنسان العاقل جثث ذويها في ملجأ صخريٍّ يُعرف باسم كهف «قفزة»، وعندما استكشف علماء الآثار الكهف عام 1934، وجدوا أنَّ الجثث لم تُدفن وحسب: لقد دُفنت لغرضٍ معيَّن. تظهر بعض بقايا الهياكل العظميَّة الباقية في «قفزة» بقعًا من المُغْرَة الحمراء، وهي طين ملون طبيعيًا. يعتقد علماء الآثار أنَّ وجود طيب المُغْرَة يعني أنَّنا فعلنا طقوسًا لموتانا في وقتٍ مبكر جدًا من تاريخ جنسنا البشري. فمن بين الهياكل المُكتشفة هيكل عظمي لطفل في الثَّالثة عشر مدفون مع ثني ساقيه إلى الجانب ووضع قرني غزال أحمر على صدره. ولا يمكننا أن نفهم معتقدات هؤلاء عن الموت أو الآخرة أو الجثث، لكنْ هذه القرائن تخبرنا أنهم اعتقدوا شيئًا.

حين تأتي أُسر المتوفى إلى دار ويست ويند لترتيب عمليات حرق الجثث أو دفنها، تجلس في غرفة الترتيبات بالدَّار وهي تشرب الماء بتوتر من أكواب ورقيَّة، ويغلب عليهم أحيانًا شعور التذمُّر من الموت الذي أجبرهم على الحضور إلى هنا أكثر من كراهية لدفع ثمن الترتيبات. وفي بعض الأحيان يطلبون الدخول إلى كنيستنا الصَّغيرة لرؤية الجثَّة للمرة الأخيرة، في بعض الأيام تمتلئ الكنيسة بمئة شخص يبكي على أنغام الموسيقى الإنجيليَّة، وفي أخرى يشغلها شخص واحد، يجلس بهدوء لمدة نصف ساعة قبل أن ينصرف.

تمرُّ العائلات بالكنيسة الصَّغيرة أو غرفة الترتيبات، أو حتى مكتب الاستقبال، أمَّا المحرقة نفسها فهي مساحتي الخاصة. وفي معظم الأيام أكون وحدي فيها، أو «في الخلف» كما يصيغها مايك.

في قائمة أسعار الدار، عرضنا شيئًا يسمَّى «شاهد حرق الجثة»، ولكن لم يختر أحد هذا الخيار في أسابيعي القليلة الأولى في ويست ويند، لكن ذات يوم وجدت عائلة هوانج هناك. فحين وصلت إلى العمل في الثامنة والنصف، وجدت عشرات النساء الآسيويات الأكبر مني سنًا يجلسن في خزانة المستلزمات دونًا عن كل الأماكن الأخرى، ويُقِمن مذبحًا مؤقتًا.

اتجهت لمكتب المدير وصرختي تسبقني: «مـايـك!»، فأجاب بصوته اللامبالي المعتاد: «ما الخطب؟».

- مرحبًا، لماذا يوجد أشخاص في خزانة المستلزمات؟

قال: «أوه، إنَّهم هنا للشهادة بعد ظهر اليوم. لن تسَعَ الكنيسة جميع أغراضهم، لذلك أعطيتهم خزانة المستلزمات لإقامة المذبح».

تخبطت مرعوبة من غزو مساحتي وإزعاج روتيني: «أنا... لم أعرف أن ثمة شاهدًا اليوم».

قال: «ظننت أنَّ كريس أخبرك، لا عليكِ إذًا، سأتولاه أنا».

لم يقلق مايك تمامًا من أحداث اليوم، لعله يستطيع الحرق مع وجود شاهد بيد واحدة والأخرى خلف ظهره، لكن بدت الفكرة بأكملها خطيرة للغاية في نظري. يتبع حرق جثمان في وجود شاهد خطوات محددة: تُمنح الأسرة وقتًا في الكنيسة مع المتوفى، ثم تُنقل الجثة إلى المحرقة، ثم تبدأ عملية حرق الجثث أمام أنظار العائلة بأكملها. مساحة الخطأ تضاهي مساحة الخطأ خلال نقل الأسلحة النووية.

عندما تطوَّر حرق الجثث في الغرب من المحارق المفتوحة إلى الآلات الصِّناعية المغلقة، صُمِّمت أولى هذه الآلات الجديدة بفتحات في الجانب حتى تتمكَّن أسر المتوفين من اختلاس النَّظر ومشاهدة العملية كأنَّهم في عرض للشرِّ. حتى إنَّ بعض دور الجنائز اشترطت وجود أفراد الأسرة لحظة إدخال الجثَّة في الفرن، ولكن مع مرور الوقت اختفت هذه الفتحات وأُغلقت وأُبعدت العائلات عن المحرقة تمامًا.

وعلى مدى العقود القليلة الماضية، طوَّرت صناعة الجنازات عددًا من الأساليب لإبعاد العائلات أكثر عن المحرقة وأيَّ جانب آخَر قد يُزعجهم من جوانب الموت.

عندما أصيبت جدة صديقتي «مارا» بسكتة دماغية قاتلة، ركبت أول طائرة إلى فلوريدا للصلاة والانتظار بجانب فراش الموت، وعلى مدار الأسبوع التالي، شاهدتْ مارا جدتها تكافح مع صعوبة التَّنفس وعدم القدرة على البلع أو الحركة أو إصدار صوت، وحين أخذ الموت الرحيم المرأة العجوز، توقعت مارا أنَّها ستحضُر طوال الجنازة أيضًا، لم يحدث ذلك. وتلقيت هذه الرسالة

منها: «كيتلين، لقد وقفنا بجوار القبر المفتوح فحسب، كان نعشها هناك وكان التراب مُغطى بالعشب الصِّناعي، ظللت أقول في نفسي إنَّهم سينزلون النَّعش في القبر، لكن لم يفعلوا ذلك قط، واضطررنا إلى الرحيل بينما ظل النعش هناك دون دفن».

ولن يبدأ إنزال تابوت الجدَّة إلى باطن الأرض وإحضار حفَّارات البناء الصفراء لإيراء نعشها الثرى إلا حين تغادر عائلة مارا المقبرة.

تساعد استراتيجيات إنكار الموت الحديثة هذه في حصر أُسر المتوفين في «الاحتفالات الإيجابية بالحياة»، فتسويق الحياة أسهل من تسويق الموت، بل إنَّ واحدة من أكبر شركات الجنائز أفران تحميص صغيرة بالقرب من غرفة الترتيبات حتى تبثَّ روائح البسكويت الطَّازجة الرَّاحة في نفوس الأسر طوال اليوم وتشتت انتباههم، آملين أن تخفي رائحة رقائق الشوكولاتة روائح المواد الكيميائية والتحلل.

عدت مرة أخرى لخزانة مستلزمات ويستويند، وأومأت برأسي للنساء اللواتي كن يحرزن تقدمًا ملحوظًا على المذبح، لقد عملن على ترتيب أوعية متعددة من الفاكهة وأكاليل الزُّهور الدائريَّة عند قاعدة إطار صورة كبيرة للفقيد السيد هوانج كبير العائلة. أشبهت الصُّورة الصُّور الَّتي تراها على مدخل مركز تسوق، رأس وكتفا رجل صيني مُسن يرتدي بذلة رائعة وله خدان ورديان بشكل غير طبيعي، وخلفه سُحب مرسومة بفرشاة الرسم.

تنفيذًا لتعليمات مايك أحضرت أنا وكريس النَّعش الخشبي للسيد هوانج إلى الكنيسة، وعندما فتحنا الغطاء كان ينتظرنا في أفضل بذلة، إلا أن مظهر الجثث المُحنَّطة الشَّمعي الصَّلب سلبه طلة الحالم الصَّارم الموجودة في الصورة ذات السحب.

جاء المزيد والمزيد من أفراد عائلة السيد هوانج على مدار اليوم، حاملين المزيد من الفاكهة والهدايا لمذبح الخزانة. نبحت عليَّ امرأة مسنة باستياء: «أنت، لماذا ترتدين اللون الأحمر؟».

يرتبط اللون الأحمر بالسعادة وهو لا يليق بالجنائز في الصين، وبالنسبة إليهم يصرخ الفستان الأحمر الكرزي الذي أرتديه: «ها، حزانى! أنا أضحك في مواجهة الحساسيات الثقافية!».

أردت أن أعترض بأنني لم أكن أعرف أنَّ عائلة هوانج ستحضر في ذلك اليوم، خاصة لشيء مرعب مثل الشهادة على الحرق، وبدلًا من ذلك غمغمت بالاعتذار والانسحاب حاملة وعاء البرتقال الذي أحضرته.

كان مايك قد دخل بالفعل إلى الخلف لتسخين أحد الفرنين، وحين حان وقت حرق جثة السيد هوانج جعلني أتبعه إلى الكنيسة. شققنا طريقنا بين حشود من أقارب السيد هوانج المُستائين من ثوبي الأحمر، ونقلنا النعش من الكنيسة إلى محرقة الجثث. تدفَّقت العائلة خلفنا، وغزا ما لا يقل عن ثلاثين شخصًا، ما كنت أعتبره حتى ذاك الوقت مساحتي المقدسة.

ومع دخولنا المحرقة، سقط الجميع (بما فيهم النساء المُسنات) على ركبهم وهم ينوِّحون. اختلطت صيحات المكلومين بزئير آلة الحرق، وكان تأثير ذلك مخيفًا. وقفت خلفهم وعيناي تحدقان، وأشعر وكأنني أنثروبولوجية تطَّلع على طقوس غير معروفة.

فمن العادات الصينية استئجار النَّائحات المحترفات للاحتفال مساعدةً في تسهيل الحزن، وإدخال الحشد في حالة من الحزن. وتعذَّر عليَّ معرفة ما إذا كان بعضٌ من الحاضرات في ساحة حرق الجثث نائحات محترفات، استأجرتهن الأسرة لنشر عدوى الحزن من خلال مشاعرهن المفرطة، هل ثمَّة نائحات محترفات في أوكلاند؟ لقد بدا حزنهن حقيقيًّا. لكن مرة أخرى، لم أقع في موقف مشابه قبل هذا، حيث سمحت مجموعة كبيرة من الناس بإظهار ضعفهم العاطفي. لا يوجد من يضغط على شفته العلوية هنا.

فجأة، شقَّ رجل أخطأته عيناي -بطريقةٍ ما- طريقَه بين الحشد حاملًا كاميرا فيديو لتصوير النَّائحين، وظلَّ يقف أمام النائح ويلوِّح بيديه إلى أعلى، مشيرًا بأنَّ ما يريده منه هو المزيد من النحيب فيُطلق النائح صرخة أعلى

وأكثر حزنًا ويضرب الأرض بيده. يبدو أنَّ أحدًا لا يريد أن يبدو أمام الكاميرا هادئًا أو متحفظًا.

كانت عائلة هوانج مندمجة في الطقوس بشكلها الكلاسيكي، حيث يمتزج الإيمان بالعمل الجسدي الملموس. وقد أوضح «أندرو نيوبيرا» و«يوجين داكويلي»، الباحثان في الدماغ البشري بجامعة بنسلفانيا، أنَّ شرط نجاح الطقوس هو اندماج المشاركين «بجميع أجزاء الدماغ والجسم، ويجب دمج السلوك والأفكار معًا». فعبر النحيب والانهيار والحزن، ارتبط أفراد عائلة السيد هوانج بشيء أكبر منهم.

انزلق تابوت السَّيد هوانج إلى غرفة حرق الجثث وأشار مايك إلى ابن السيد هوانج للضغط على زر إشعال النيران، لقد كانت هذه لفتة رمزية، لكنها بادرة حملت قوة لا تصدق.

لاحقًا قال لي مايك: «عليكِ أن تدعيهم يضغطون على الزر؛ إنهم يحبون الزر بشدة».

لقد امتلك السيد هوانج شيئًا مهمًا لم يمتلكه جيكوب: شخص يحبه يضغط على زرٍّ سيخرجه من هذه الحياة، بدلًا من مُشغلة أفران جثث عشوائية ترتدي ملابسَ غير لائقة.

وفيما ينغلق باب الفرن حابسًا السيد هوانج في الغرفة النَّارية، تقدَّم كريس لوضع شمعة مشتعلة كبيرة أمام الماكينة، لقد أدى مايك وكريس هذا المشهد معًا من قبل، وناح آل هوانج حزنًا معًا من قبل، وكنت أنا الوحيدة الشاذة وسط هذا المشهد.

أجبرني السيد هوانج على التفكير فيما سأفعله إذا مات والدي. بصراحة، لم أملك أيَّ فكرة. وهناك احتمال معتبر أنَّ ليس كل من شارك في حرق الجثة شعر بالحزن بالحدَّة نفسها التي أظهروها، فلعله بالنسبة إلى البعض مجرد عرض أكثر منه حزنًا حقيقيًا، لكن هذا لا يهم، المهم هي طقوس آل هوانج. لقد عرفوا ما عليهم فعله وأنا أحسدهم على ذلك، لقد عرفوا كيف يصرخون

بصوت أَعَلّ، ويحزنون بشدة، وأن يُحضروا أطباق الفاكهة، وفي وقت الوفاة كانوا مجتمعًا يلتفُّ حول الأفكار والعادات.

لقد درَّس والدي مادة التاريخ في مدرسة ثانوية حكومية لأكثر من أربعين عامًا، ورَغم أنَّ المدرسة التي كان يعمل بها كانت على الطرف الآخر من الجزيرة، كان يستيقظ كلَّ صباح في الخامسة والنصف ليوصلني بسيارته إلى مدرستي الخاصة في هونولولو في رحلة تستغرق ساعة كاملة، ثم يقود ساعة أخرى إلى مدرسته، كل ذلك لكي لا أضطر إلى ركوب الحافلة العامة، لقد حملني لآلاف الأميال، فكيف أتركه لشخص آخر حين يموت؟

مع اكتساب المزيد من الخبرة في محرقة الجثث، لم أعد أحلم ببناء التستر اللطيف في دار لا بيل مورت للجنائز، بل أدركت أنَّ علاقتنا بالموت كانت معيبة من الأساس. بعد بضعة أشهر فقط في ويست ويند، شعرت بالسذاجة لأنني تخيلت يومًا إعادة المرح للجنائز.

إن إقامة احتفالات «الاحتفال بالحياة» مع عدم وجود جثة في المكان أو حتى حديث واقعي عن الموت، بل مع تشغيل أغاني موسيقى الرُّوك القديمة المفضلة للمتوفى بينما يشرب الجميع قليلًا، بدت أقرب إلى وضع عصابة «مرحبًا يا قطتي» على جرح طلق ناري بدلًا من إجراء الإسعافات الأولية، حان وقت إطلاق الرصاص على هذه الثقافة.

لا، حين يموت والدي سيذهب إلى محرقة، وليس مستودعًا مثل ويست ويند، بل محرقة جميلة بنوافذ ضخمة تسمح بدخول الضوء الطبيعي، ولن يكون مكانًا جميلًا بسبب التَّستر على الموت أو إنكاره، بل لأن الموت سيكون مقبولًا، سيكون مكانًا للتجربة، به غرف تأتي العائلات إليها وتغسل موتاها، حيث يشعرون بالأمان والراحة مع الجثة حتى اللحظة الأخيرة وهي تدخل في النار.

***

في عام 1913، وصف جورج برنارد شو مشاهدته لحرق والدته، حيث وُضِع جسدها في تابوت بنفسجي وأُدخلت قدماها أولًا إلى النيران. كتب:

«انظر! تنفجر القدمان بأعجوبة إلى ألسنة متدفقة من اللهب الجميل الملوَّن بألوان العقيق، خاليًا، دون دخان أو إحجام. وبينما ينزلق التابوت بينها اشتعلت النيران في كلِّ مكان، وأصبحت أمي تلك النار الجميلة».

تخيَّلت أبي هناك وباب فرن الجثث يرتفع والصدى يملأ الغرفة، وإن بقيت على قيد الحياة حين يموت، سأكون هناك لأشهد تحوله إلى «تلك النار الجميلة». لا أريد أن يفعل ذلك أيُّ شخص آخر، فكلما عرفت المزيد عن الموت وصناعة الموت، أرعبتني فكرة أن يتولى شخص آخر العناية بجثث عائلتي أكثر.

الكوكتيل الوردي



ذات مرة، عاش شعب «واري» في أدغال غرب البرازيل دون أيِّ اتصال بالحضارة الغربية تقريبًا. ثم في أوائل الستينيات وصلت الحكومة البرازيلية إلى إقليم واري جنبًا إلى جنب مع المبشرين المسيحيين الإنجيليين في محاولة من الطرفين لإقامة العلاقات مع هذا الشعب. جلب الغرباء معهم مجموعة من الأمراض (الملاريا والأنفلونزا والحصبة) التي لم يكن لجهاز المناعة في واري سابقة في مكافحتها. وفي غضون بضع سنوات، مات ثلاثة من كل خمسة واريين، وأصبح مَن نجا منهم يعتمد على الحكومة البرازيلية، التي زودتهم بالأدوية الغربية لمحاربة الأمراض الغربية الوافدة.

من أجل الحصول على الدواء والغذاء والمساعدات الحكومية، أُجبر الواريُّون على التَّخلِّي عن جانب مهم من حياتهم: أكل لحوم البشر.

كتب فيلسوف عصر النهضة ميشيل دي مونتين في كتابه «On Cannibals» أنَّ «كل إنسان يَصف كل ما ليس من ممارسته بالبربريَّة». ونحن نصف أكل لحوم البشر بالبربريَّة قطعًا، وهو ليس من ممارستنا، شكرًا جزيلًا لك. أكل لحم البشر هو للمختلين اجتماعيًا والمتوحشين؛ إنه يستحضر صور صائدي المطلوبين و«هانيبال ليكتر».

ويمكننا القول بثقة إن أكل لحوم البشر يدل على الاضطراب وقسوة القلب لأننا عالقون فيما أسماه عالم الأنثروبولوجيا كليفورد جيرتز: «شبكة

القيمة». منذ ولادتنا، لُقنَّا ثقافتنا حول الطرائق التي «يتم بها» الموت وما يعتبر «مناسبًا» و«مُحترمًا».

تحيزاتنا في هذه المسألة لا مفرَّ منها، فبقدر ما نتخيل أنفسنا منفتحين، ما زلنا مسجونين في معتقداتنا الثقافية. يشبه هذا محاولة السَّير في غابة بعد أن سهرت العناكبُ طوال الليل تنسج شباكها بين الأشجار، قد تتمكن من رؤية وجهتك من بعيد، لكن لو حاولت السير نحوها، فستلتصق بك شبكات العنكبوت وبوجهك وتملأ فمك بشكل محرج، هذه هي شبكة القيمة التي تجعل من الصعب جدًا على الغربيين فهم أكل لحوم البشر عند آل واري.

كان الواريون من أكلة لحوم البشر في الجنائز، بمعنى أنَّ أكل لحوم البشر كان أحد الطقوس التي تُقام عند الوفاة، ومنذ النَّفس الأخير لأيٍّ من أفرادها، لا تُترك جثَّه وشأنها، تهزُّ الأسرة الجسد وتحمله مع التَّرنيم بصوتٍ ثابتٍ ونغمة عالية. يُعلن هذا الترنيم ونحيب الموت لباقي المجتمع، وسرعان ما يُقبل الجميع على صوت الترنيم، يسارع الأقارب من قرى أخرى للوصول إلى الجثة للمشاركة في طقوس الموتى.

استعدادًا لأكل اللحم، يطوف الأقارب بالقرية ويسحبون عارضة خشبية من كل منزل فتتدلى أسطحها. وتصف عالمة الأنثروبولوجيا «بيث كونكلين» هذا الميل بأنَّه تذكيرٌ بصريٌّ بأن الموت قد انتهك المجتمع. ثم يُضمُّ الخشب المجموع من المنازل معًا ويُزيَّن بالريش ويُستخدم لإشعال نار الشواء.

وأخيرًا تتنازل الأسرة عن الجثة لتُقطَّع إلى أشلاء، ثم تُغلَّف الأعضاء الداخلية بأوراق الشجر ويوضع لحم أطراف الجثة مباشرة على رفِّ الطهي. في أثناء ذلك تُحضِّر نساء القرية خبز الذرة، الذي يعدُّ خيارًا مثاليًا إلى جانب لحوم البشر.

لم ينزعج الواري من طهي اللحم البشري كأنه «ليس إلا قطعة لحم»، أما الحيوانات ولحومها فتمثِّل (ولا تزال) شيئًا مختلفًا جدًا لأفراد قبيلة واري عما تمثله لنا. فبالنسبة إلى الواري تتمتع الحيوانات بأرواح حيوية، فهي ليست من البشر ولا أدنى من البشر، ويومًا تكون صيدًا للبشر ويومًا تكون الصياد،

وقد يرى النمر أو القرد نفسه في مكانة البشر وقد يرون البشر هم الحيوانات، يحترم الواري كل ما يقع بين أيديهم من لحم، بشرية كانت أو حيوانية.

ولا يأكل أقرباء الميت، كالزوجات أو الأطفال، من اللحم المشوي. بن يكون هذا الشرف -وهو حقًا شرف بالنسبة إليهم- من نصيب أشخاص مختارين كانوا بالنسبة إلى الميت كالأهل: الأصهار، وأولو القربى، وأفراد المجتمع الذين يطلق عليهم الأصهار. ولم يكن أيٌّ منهم متوحشًا متعطشًا للأكل من لحم عدوه بغرض الانتقام أو مولعًا بمذاق لحم الإنسان المشوي، ولم بصبحوا كذلك بعد البروتين الذي وفَّره اللحم البشري وكلاهما من الأشياء التي تشيع نسبتها إلى أكلة لحوم البشر.

وفي الواقع، تكون الجثَّة التي تُركت لعدة أيام في مناخ دافئ ورطب في غابة الأمازون المطيرة قد دخلت في مراحل مختلفة من التحلل، وحينئذٍ يكون أكل اللحم تجربة كريهة. وغالبًا ما يستأذن هؤلاء الأصهار بالانصراف للتقيؤ ثم العودة لتناول الطعام مرة أخرى، ومع ذلك يجبرون أنفسهم على الاستمرار لقناعتهم القوية بأنَّهم يؤدون عملًا حنونًا تجاه الأسرة والشخص الذي مات على حدٍّ سواء.

إذًا لم تدفع الأصهار الرَّغبة في الحفاظ على قوة الحياة أو الأبدان، بل أكلوا بهدف التدمير، إذ أرعبت فكرة دفن الجثث الواري وتركها كاملة في باطن الأرض، ولا يمكن لشيء سوى أكلها أن يوفر التحرير والتدمير الذي يرغبون فيه. وعند الانتهاء من أكل اللحم، تُحرق العظام، وبهذا الاختفاء التام للجسد ترتاح الأسرة ويرتاح المجتمع.

كان لا بدَّ من التَّخلص من الموتى ليعود المجتمع للاكتمال مرة أخرى. دُمِّرت الجثة، كما تُحرق ممتلكات المتوفى معه، بما في ذلك المحاصيل التي زرعها والمنزل الذي بناه. مع زوال كل شيء تُصبح عائلة المتوفى تحت رحمة الأقارب والمجتمع لرعايتهم ومساعدتهم على إعادة بناء حياتهم، وبالفعل كانوا يعتنون بهم، ما يُقوِّي أواصر المجتمع.

في الستينيات، أجبرت الحكومة البرازيلية الواريين على التخلِّي عن طقوسهم والبدء في دفن موتاهم، كان وضع موتاهم في الأرض للتعفُّن معاكسًا تمامًا لما مارسوه وآمنوا به، فما دام بقي الجسد المادي سليمًا، ظلَّ ذكرى معذِّبة لما فقدوه.

ولو كنا قد ولدنا لأسرة في قبيلة الواري، لكان أكل لحوم البشر الذي نرفضه ونعتبره بربرية من تقاليدنا العزيزة على القلوب، ولمارسناه بصدق واقتناع. فطريقة الدفن المُعتادة في أمريكا الشمالية، من التَّحنيط (الحفاظ على الجثَّة على المدى الطويل) متبوعًا بالدفن في تابوت ثقيل مُغلق في الأرض، يعدُّ أمرًا مسيئًا وغريبًا على الواري. و«تكريم الميت» بالنمط الغربي من خلال الدفن ما هو إلا التكريم الذي يحدده محيطنا المباشر.

***

عندما بدأت العمل في ويست ويند، لم يكن التَّحنيط الحديث شيئًا يمكنني تعريفه بوضوح، كل ما علمته أنَّ ما «يحدث» للجثث خيط واحد في شبكة قِيَمي الشخصية.

في العاشرة من عمري توفِّي والد زوج ابنة عمي، كان السيد «أكينو» كاثوليكيًا ملتزمًا، وهو رجل دولة كبير في عائلة كبيرة من أصول هاوايية فلبينية، أقيمت جنازته في كاتدرائية قديمة في مدينة كابولي، وعندما وصلنا انضممت أنا وأمي إلى الطابور للمرور على نعشه، وعندما وصلنا إلى مقدمة الطابور نظرت من فوق الحافة ورأيت بابا أكينو ممددًا، لقد تعرَّض لتجهيزات جعلته يبدو غير حقيقيٍّ، فجلده الرمادي مشدودٌ بشدة، وهذه نتيجة جانبية لسائل التحنيط الذي يُضخُّ في الدورة الدموية.

أُشعلت مئات الشموع حول تابوته، وانعكس الضوء المنبعث من لهيبها على شفتيه اللامعتين ذاتَي اللون الوردي الزاهي، فحولت تعابير وجهه إلى العبوس. لقد كان رجلًا محترمًا في الحياة لكنَّه بدا في الموت كأنَّه تمثال شمعي يشبهه، لقد كانت تجربة مررت بها أنا والآلاف المؤلفة من الأطفال

الأمريكيين الآخرين الذين يُدفعون نحو النعش ويلقون هذه النظرة الموجزة والشمعية على الموت.

وبالنسبة إلى شخص من النَّوع الذي سيختار مهنة تأدية هذه العملية الكئيبة، تخيلت بغموض رجلًا هزيلًا بخدين مُجوَّفَين، طويلًا نحيفًا مثل «ليرتش» من عائلة آدمز[1]. ومزجت في مخيَّلتي ليرتش بالحانوتي التقليدي الذي كان يظهر في أفلام الرعب في خمسينيات القرن الماضي، مرتديًا معطف المختبر وحوله سائل أخضر مشع ينزلق في خراطيم إلى جثة ميتة.

لا شيء يجمع بين مُحنِّط دار ويست ويند وما في هذا الخيال، كان بروس المُحنِّط بالمهنة الذي يأتي عدة مرات في الأسبوع لتجهيز الجثث رجلًا أمريكيًا من أصل إفريقي شائب الشعر، له وجه ولد صغير ملائكي. بدا كأنه جاري كولمان بطول ستة أقدام في الخمسين من عمره لكنه لا يبدو أكبر من العشرين، كان صوته يتموَّج بشدة بين النغمات والإيقاع وينتقل عبر المحرقة، مستقبلًا إياي بحماس: «مرحبًا يا كيتلين».

- مرحبًا بروس، كيف حالك؟

- كما تعلمين يا فتاة، مجرد يوم آخر، مجرد يوم آخر مع الموتى.

من النَّاحية الفنية، كنت أتدرب لأكون عاملة حرق جثث تحت إشراف مايك، لكن بروس كان مساعد مدرس التحنيط في كلية سان فرانسيسكو للعلوم الجنائزية، وهي كليَّة التَّحنيط التي أغلقت أبوابها بعد فترة وجيزة من تفوُّق عرض ويست ويند للعناية بالموتى المشرَّدين والمُعوِزين على عرضها. ورَغم عدم وجود مدرسة لحفظ الجثث في سان فرانسيسكو، ظلَّ بروس معلمًا بطبيعته وظلَّ حريصًا على مشاركة أسرار التجارة، ولا يعني ذلك أنه حمل قدرًا عظيمًا من الاحترام لكليات العلوم الجنائزية الحالية.

كان يقول: «حين تعلمتُ يا كيتلين هذه الأشياء كانت تعتبر فنًا، التحنيط يعني حفظ الجسد. لقد بدأت أتساءل عما يعلمونه حقًا للطلبة في هذه الكليات الجنائزية، يتخرج الطالب فيها وهو لا يعلم كيف يعثر على وريد لتصريف

---

(1) Body Worlds.

الدم. أما في السبعينيات فكنا نعمل على الجثث كل يوم، كل ما كنا نفعله هو الجثث والجثث والجثث».

***

ثمَّة قصة نسجَها في الغالب أهل صناعة الجنائز في أمريكا الشَّمالية، تضع ممارسات التَّحنيط الحديثة ضمن سياق من تقليد قديم، كأنَّه شكل من أشكال الفنِّ المتوارث عبر آلاف السنين من المصريين القدماء، أساتذة الحفاظ على الجثث، ويضطلع مدير الجنازة حاليًا بدور حامل حكمتهم القديمة.

وغنيٌّ عن القول إنَّ بهذه القصة عددًا من المشكلات، فقد يزعم المحنطون أنَّ تجارتهم تنحدر من المصريين القدماء، لكن هذا يهمل الفرق الضخم بين عصر توت عنخ آمون والوقت الذي بدأ فيه الأمريكيون التحنيط في أوائل ستينيات القرن التاسع عشر.

كان التحنيط الذي مارسه المصريون القدماء شيئًا مختلفًا تمامًا عما كانت تمارسه دار الجنائز في منطقتك، فمنذ نحو 2500 عام خضعت جثث النُّخبة المصريَّة لعملية تحنيط معقدة استغرقت شهورًا. في المقابل، يستغرق التحنيط حاليًا من ثلاث إلى أربع ساعات من أوله إلى آخره، وهذا إذا كنت محظوظًا كفاية لتحصل على ثلاث إلى أربع ساعات من وقت المحنط. فمنذ سنوات عملت شركات الجنائز الكبيرة على شراء دور الجنائز العائلية، مع الحفاظ على اسمها الأصلي الذي يثق به المجتمع ورفع أسعارها وجعل مرافق التحنيط مركزية، ما يُضفي على تحضير الجثث مناخ خط التجميع الصناعي، مع الضغط على المحنطين لإنتاج الجثة الجاهزة في وقت قياسي.

أجرى المصريون التَّحنيط لأسباب دينية معتقدين أنَّ لكل خطوة في عمليتهم أهمية عميقة، بدءًا من إزالة المخ من خلال الأنف بخطاف حديدي طويل إلى وضع الأعضاء الداخلية في مزهريَّات على شكل رأس حيوان تسمى «الأواني الكانوبية» إلى تجفيف الجسم لمدة أربعين يومًا باستخدام ملح النطرون، ولا توجد خطافات أو أوانٍ لتخزين الأعضاء في عمليات التحنيط الحديثة في أمريكا الشمالية، بل تتضمن إزالة الدم والسوائل من

تجويف الجسم واستبدال مزيج من المواد الحافظة القوية بها. والأهم أنَّ التَّحنيط الحديث لم يولد من رحم الدين بل من قوى أقوى بكثير: التسويق والاستهلاكية.

في هذا اليوم بالذَّات، كان المُستلقي على طاولة التَّحنيط لدى بروس رجلًا ذا درجة اجتماعية مختلفة تمامًا عن مواطني طبقة النُّخبة الذين اهتم المصريون بتحنيطهم، كان اسمه «كليف»، وهو أحد قدامى المحاربين في حرب فيتنام، مات وحيدًا في مستشفى إدارة المحاربين القدامى بسان فرانسيسكو. تدفع حكومة الولايات المتحدة تكاليف التحنيط والدفن (في مقبرة وطنية) لقدامى المحاربين من أمثال كليف من الرجال، وأحيانًا النساء اللاتي يمُتن وليس لهن أصدقاء أو أسرة.

اقترب بروس بمشرط، ووجَّهه إلى أسفل حَلْق كليف. ثم قال: «حسنًا، أول ما عليكِ فعله هو إخراج الدم، ثم غسل الدورة الدموية وكأنَّك تغسلين دورة مُكيِّف السيارة».

فتح بروس شقًّا، وكنت أتوقع أن يتفجَّر الدَّم كالأفلام إلا أنَّ الجرح كان جافًا، أوضح بروس وهو يهزُّ رأسه في إحباطٍ: «هذا الرجل ليس طازجًا تمامًا».

أوضح لي بروس كيفية مزج الكوكتيل الوردي كلون السلمون الذي سيحل محل دم كليف: مزيج من الفورمالديهايد والكحول يُضخُّ في خزَّانٍ زجاجي كبير، دفع بروس أصابع يده المغطاة بطبقة القفَّاز في الشقِّ الجديد في حلق كليف وفتح الشريان السباتي، ثم أدخل أنبوبًا معدنيًا صغيرًا متصلًا بأنبوب مطاطي أكبر. ضغط بروس على مفتاح عند قاعدة الخزان فبدأ في الاهتزاز والهمهمة فيما يدفع السائل الوردي عبر الأنبوب لتملأ المواد الكيميائية الدورة الدموية في جسد كليف، وفيما يتدفق السائل إلى شريانه، تدفق الدَّم النازح للخارج من الوريد الوداجي وانزلق على الطاولة إلى مصرف الحوض.

سألت: «أليس من الخطير تصريف الدم في البالوعة بهذا الشكل؟»

أفتي: «كلا، هذا ليس خطيرًا. هل تعرفين ما الذي يذهب إلى المجاري أيضًا؟»

واضطُررت حينها إلى الاعتراف أنَّ هذه المقارنة جعلت الدم أقل قرفًا.

وتابع: «هذه ليست بالدماء الكثيرة يا كيتلين، كيف لو رأيتِني وأنا أعمل على حالة خضعت للتشريح، ستغطيكِ الدماء ولن يكون كل شيء نظيفًا وأنيقًا كما يحدث في التلفاز، بل ستكونين مثل أو جي».

قلت: «مهلًا، مثل أو جي سيمسون؟ كيف سأشبهه؟»

- أنا حانوتي، أليس كذلك؟ أحيانًا حين أجرح الجثث تغطيني الدماء، إذ تجد أحد الشرايين التي تنفجر على كل شيء، تعرفين طبيعة الدماء. ألا يقولون إن أو جي جرح شخصين وهما لا يزالان على قيد الحياة وخرج ولكن ما عُثِر إلا على ثلاث قطرات من الدم على السيارة؟

قلت: «حسنًا يا بروس، لكن ألم يقتلهما شخص ما؟».

- أيًّا كان من فعلها فلا بُدَّ أنه ارتدى بذلة تغطي الجسم من الرأس إلى أخمص القدمين، فما يبتل تمامًا بالدماء لا يمكن غسله وحسب بل يصطبغ بها. هل شاهدت مسرح الجريمة على شبكة سي إن إن؟ لقد كان المكان مغطى بالدماء، كل ما أقوله هو أنه لا بدَّ من وجود أثر للدماء.

وفيما تكلَّم بروس كمحقق جنائي وهو يغسل أطراف كليف بالصابون ويدلِّكها برفق لتوزيع المواد الكيميائية في جهازه الدوري. كان المشهد غريبًا، رجل بالغ يُحمم جثة بإسفنجة، لكنني الآن قد اعتدت على لوحات ويست ويند المميزة.

ساعد الميل في طاولة التحنيط المصنوعة من البورسلين في انزلاق دمٍ كليف نحو البالوعة مع انتشار محلول الفورمالديهايد في جسده. يعتبر الفورمالديهايد، وهو غاز عديم اللون في حالته النقية مادةً مسرطنة. ولم يعد كليف قلقًا من السرطان بعدما أصبح جثة، أما بروس فهو فريسة سهلة إذا لم يتَّخذ الاحتياطات المناسبة، فقد توصَّل المعهد الوطني للسرطان إلى أنَّ

المحنطين معرَّضون بشكل أكبر لخطر الإصابة بسرطان الدَّم النخاعي، وهو النمو غير الطبيعي في أنسجة نخاع العظام وسرطان الدم، المفارقة هي أنَّ المحنطين يكسبون قوت يومهم من استنزاف دماء الآخرين، فتتمرد عليهم دماؤهم.

ما كان يحدث لكليف من حفظ بالمواد الكيميائية لم يكُن من عادات الأمريكيين مع الموت قبل الحرب الأهلية في منتصف القرن التاسع عشر، لقد بدأ الموت في أمريكا كعملية منزلية بالكامل: يموت أحد أفراد الأسرة في فراشه محاطًا بأسرته وأصدقائه، بعدها تُغسَّل الجثة وتكفَّن على يد أقرب الناس إليه أو إليها وتُترك لعدة أيام في المنزل لليقظة، وهو طقس سُمِّي على اسم الكلمة الإنجليزية القديمة التي تعني «المراقبة»، وليس كما يُعتقد غالبًا من أنه خوفٌ من استيقاظ الجثة فجأة.

لمنع تحلل الجثَّة وهي في المنزل، ابتكر أهل القرن التاسع عشر حلولًا مثل الأقمشة المبللة بالخل ووضع أحواض الثلج تحت الجثة. وخلال فترة الانتباه (اليقظة)، يجري تناول الطعام وشرب الكحول، ويعمُّ شعور بإعفاء الميت من موقعه في المجتمع. وكما قال «جاري لادرمان» الباحث في تقاليد الموت الأمريكية: «على الرغم من أنَّ الجسد قد فقد الشرارة التي تحركه، فإن الأعراف الاجتماعية العميقة قد فرضت على الأحياء منحه الاحترام والرعاية المناسبين».

وخلال هذه الفترة أيضًا، يُصنع التابوت الخشبي الذي تصنعه إمَّا العائلة بنفسها وإمَّا تكلِّف به نجار خزانات محلي بذلك، كان التَّابوت في ذلك العهد سداسيًا نحيفًا من الجزء السفلي، ما يشير إلى أنه بالفعل حاوية لإنسان ميت، على عكس التَّصميم الحالي لكل من الشكل الذي أصبح مستطيلًا عاديًا والاسم الذي أصبح نعشًا وبعد عدة أيام، تُوضع الجثة في التابوت وتُنقل على أكتاف أفراد الأسرة إلى قبر قريب.

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، أصبحت المدن الصناعية الكبرى، مثل: نيويورك وبالتيمور وفيلادلفيا وبوسطن، بحجم يصلح لإقامة صناعة الموت، وبعكس المزارع أو البلدات الصغيرة، لجأت المدن الكبيرة إلى الحرف

المتخصصة. كما ظهرت مهنة الحانوتي، رَغم أنَّها شملت أكثر من مجرد بيع المستلزمات والديكورات، إذ قد يتولى الحانوتي المحلي بناء تابوت بدلًا منك، أو تأجير مركبة أو عربة الجنازة لك، أو بيع ملابس ومجوهرات الحداد لك. وغالبًا ما يضيفون إلى ذلك وظائفَ أخرى لزيادة دخلهم، ما أخرج لنا بعض الإعلانات المسلية في القرن التاسع عشر: «جون جنسن: الحانوتي، وخالع الأسنان، ومُضيء المصباح، وصانع الإطارات، والحدَّاد، ونجَّار الخزائن».

ثم جاءت الحرب الأهلية الأمريكية، الحرب الأكثر دموية في تاريخ الولايات المتحدة، حيث تحمل معركة أنتيتام، الواقعة في 17 سبتمبر 1862، لقب كونها كانت أكثر مواقع الحرب الأهلية (والتاريخ الأمريكي) دموية، حيث مات خلالها 23 ألف رجل في ساحة المعركة، وانتفخت جثثهم المنفجرة باليرقات وسط جيف الخيول والبغال المنتفخة مثلها. وعندما وصل فوج بنسلفانيا رقم 137 بعد أربعة أيام، طلب قائده السماح لرجاله بشرب الكحول أثناء دفن الجثث، فلم تصلح هذه المهمة إلا في ظل حالة واحدة: حالة سكر.

وخلال أربع سنوات من المعارك بين الشمال والجنوب، لم يكن لدى العديد من عائلات الجنود أيُّ وسيلة لاستعادة أبنائهم وأزواجهم القتلى من ساحات القتال. يمكن نقل الجثث في القطارات، ولكن بعد بقائها لأيام في حرارة صيف الجنوب تدخل الجثث في أعمق مراحل التحلل، ومجرد انزعاج حاسة الشمِّ لا يصف حتى ملاقاة الرائحة المنبعثة من جسم متروك في الشمس.

وبحسب رواية طبيب في جيش الاتحاد: «خلال معركة فيكسبيرج، دعا الجانبان إلى هدنة قصيرة بسبب الرائحة الكريهة للجثث المتحللة في الشمس الحارقة». كان نقل الجثث لمئات الأميال في هذه الحالة البغيضة كابوسًا لقادة القطارات مهما بلغوا من وطنية، وبدأت هيئات السكك الحديدية في رفض نقل الجثث غير الموضوعة في توابيت حديدية باهظة الثمن، وهو ليس خيارًا في متناول معظم العائلات.

أحيا هذا الوضع الغرائز الريادية لدى الرجال، الذين أجروا في ساحة المعركة للقادرين عملية جديدة للحفاظ على الجثث تسمى التَّحنيط. لقد تتبعوا المناوشات والمعارك بحثًا عن فرص العمل. كانت المنافسة شرسة،

فنجد قصص المحنِّطين يحرقون خيام بعضهم بعضًا ويضعون إعلانات في الصحف المحلية كتب فيها: «الجثث التي نُحنِّطُها لا تتحول إلى اللون الأسود أبدًا»، بهدف تسويق فعالية خدماتهم، وعرض المحنطون جثثًا محفوظة حقيقية انتشلوها من بين الموتى المجهولين ويقيمونها واقفة على أقدامها أمام الخيام لإظهار مواهبهم بأفضل شكل.

احتوت خيام التحنيط في ساحة المعركة غالبًا على لوح خشبي بسيط فوق برميلين، وعمد المحنطون إلى حقن المواد الكيميائيَّة في دورة الدموية للميتين حديثًا، والمكوَّنة من مزيجهم الفريد من «الزرنيخ، وكلوريد الزنك، وثاني كلوريد الزئبق، وأملاح الألومينا، وسكر الرصاص، ومجموعة من الأملاح والقلويات والأحماض»، وقد أكد د. توماس هولمز، الذي لا يزال يعتبره الكثيرون في صناعة الجنازات على أنَّه القديس الراعي لفن التحنيط، إنه خلال الحرب الأهلية عمل شخصيًا على تحنيط أكثر من 4 آلاف جندي ميت بهذه الطريقة، بتكلفة 100 دولار للجثة. والخيار الموفِّر لمن لا يميلون إلى الأساليب شديدة الدقة من توظيف المواد الكيميائية والحقن، هو نزع الأعضاء الداخلية وملء تجويف الجسم بنشارة الخشب. ويعدُّ تدنيس الجسد بهذه الطريقة خطيئة في كلٍّ من البروتستانتية والكاثوليكية، لكن الرغبة في رؤية وجه الأحباء مرة أخرى تفوقت أحيانًا على الأيديولوجية الدينية.

لا يختلف نزع الأحشاء بالكامل من تجويف الجسم كثيرًا عما يحدث اليوم، باستثناء نشارة الخشب، وربَّما يكون أقذر سر من أسرار عملية التَّحنيط الحديثة هو الاستخدام الخفي لقطعة معدنية نحيفة تُعرف باسم «المبزل». رفع «بروس» مبزله كأنَّه السيف إكسكاليبر[1] ودفع طرفه المدبب نحو معدة كليف وطعنه أسفل سرة بطنه مباشرة. وبعدما وخزه بالمبزل مخترقًا الجلد وجهه إلى ثقب الأمعاء والمثانة والرئتين والمعدة. وظيفة المبزل في عملية التَّحنيط هي شفط أيٍّ سوائل وغازات ومخلفات في تجويف الجسم، انطلق السائل البني إلى أعلى أنبوب المبزل مع صوت قرقرة وامتصاص غير مريح ثم وقع في مصرف الحوض وذهب إلى المجاري. ثم عكس المبزل الاتجاهات،

---

(1) سيف سحري أسطوري كان يعود للملك آرثر ملك بريطانيا الأسطوري.

وبدلًا من الامتصاص حقن المزيد من كوكتيل السلمون الوردي، بتركيز كيميائي أقوى هذه المرة في تجويف الصدر والبطن، إذا كان هناك أي شك في موت كليف، فقد بدده المبزل.

لم يُبدِ بروس أيَّ تعبيرات وهو يضرب كليف بعنفٍ بالمبزل. ومثل كريس الذي قارن نقل الجثث بـ «نقل الأثاث»، رأى بروس التحنيط مجرد تجارة أتقنها على مدى سنوات عديدة، ولن يفيد التورُّط العاطفي مع كل جثة. كان بروس قادرًا على العمل بالمبزل دون تردد، وظلَّ طوال الوقت يتحدث معي كما لو كنا صديقين قديمين نتناول فنجانًا من القهوة.

يقول: «كيتلين، هل تعرفين ما الذي أحتاج إلى فهمه؟» ثم يهوي بطعنة. «...تلك الحمائم اللعينة. هل تعرفينها؟ تلك الحمائم البيضاء التي يطلقونها في الجنازات...» ثم يهوي بطعنة أخرى. «...هذا هو العمل المربح حقًا، يجب أن أُحضر بعض الحمائم». ويهوي بالطعنة بعد الأخرى.

ولا شكَّ في وجود جانب عملي في إجراءات التَّحنيط خلال الحرب الأهلية، لقد رغبت العائلات في رؤية جثث ذويها، وهو جانب مهم من الطقوس والتصالح مع ما جرى، ووفَّر التحنيط تلك الفرصة. وحتى يومنا هذا قد تكون العملية مفيدة للجثث الاستثنائية، فكما يقول بروس: «اسمع! هل تحتاج إلى التحنيط؟ لا. ولكن إذا كنت تريده أن يقضي عطلة نهاية أسبوع حافلة، والانتقال بين الصلوات والكنائس المختلفة في جميع أنحاء المدينة، فمن الأفضل تحنيط هذا الجسد»، أما بالنسبة إلى كليف فلا حاجة إلى هذا الإجراء، وهو الذي سيذهب مباشرة في اليوم التالي إلى قبره بمقبرة قدامى المحاربين في سكرامنتو.

عندما نتحدث عن التحنيط فإنَّ المخاطر ليست قليلة، فرَغم عدم وجود قانون يفرض التحنيط فهو الإجراء الأساسي في قطاع الجنائز التي يبلغ حجمها مليار دولار في أمريكا الشمالية. إنَّها مدار المهنة بأكملها منذ 150 عامًا مضت، ودونها لظلَّ عمل الحانوتية مجرد بيع التوابيت وإيجار عربات الموتى وخلع الأسنان على الهامش.

إذًا كيف وصلنا إلى احترام التَّحنيط، وتزيين موتانا كأنهم ألواحٌ برَّاقة ومرسومة على وسائد وثيرة؟ كيف وصلنا إلى اعتبار تحنيط رجل مثل كليف إجراءً قياسيًا، دون أن نكلف أنفسنا عناء التساؤل عما إذا كان بحاجة إليه؟ لقد أدرك حانوتيَّة أواخر القرن التاسع عشر أنَّ الجثة هي رابطهم المفقود بالاحتراف، وأنَّ من شأن الجثة أن تصبح منتجًا، وستكون كذلك.

وقد عبَّر «أوجست رينوارد»، أحد أوائل المحنطين الأمريكيين، عن هذا عام 1883 حين قال: «اعتقد العامة في الماضي أن أيَّ أحمق يمكن أن يصبح حانوتيًا. لكن التحنيط يجعل الناس يتعجبون من عملية الحفظ «الغامضة» و«غير المفهومة»، ويجعلهم يحترمون مُمارسها».

وقد كانت النَّظرة إلى الحانوتي خلال سنوات التحنيط الأولى على أنه أحمق، لأن المهنة لا تتطلب معاييرَ أو مؤهلات موحَّدة على المستوى الوطني، لقد سافر «الأساتذة» المتجولون من مدينة إلى أخرى لعقد دورات لمدة ثلاثة أيام تنتهي بمحاولته بيعك سائل التحنيط من الشركة المصنعة التي يمثلها.

ولكن في غضون بضعة عقود فقط تحوَّل المُحنِّط من بائع متجوِّل يكسب المال في ساحات المعارك إلى «متخصص» بعد أن عمل مصنِّعو كيماويات التحنيط بقوة على تسويق المحنِّط في صورة محترف مدرب تدريبًا عاليًا وفني عبقري وخبير في كل من التطهير والفنون يُنتج جثثًا جميلة تحوز إعجاب الجمهور. وروَّجت الشركات إلى أن هذا هو المجال الذي يقع فيه الجمع بين الفن والعلم بخبرة لا تُضاهى في مجلات صناعة الموت مثل: مجلة الكفن، ومجلة الحانوتي الغربي، ومجلة الجانب المشرق[1].

وبدأ الحرس الجديد لفنِّ التحنيط في رسم صورة جديدة: من خلال تدريبنا الفني حمينا المجتمع من الأمراض، ومن خلال فننا خلقنا «الصورة الأخيرة» التي ستتذكر بها العائلة الميت. وبالتأكيد جنوا المال من الأموات، لكن كذلك يفعل الأطباء، فلمَ لا يستحق المحنِّطون أيضًا أجورهم التي تُدفع لهم مقابل عملهم الجيد؟ بغض النظر عن أن الجثث ظلت لمئات السنين تُحفظ بأمان

(1) The Shroud, The Western Undertaker and The Sunnyside.

تام في المنزل بعد تجهيزها على يد أسرة الميت نفسها. التحنيط هو ما جعل المحترفين محترفين، لقد كان العنصر السحري.

وصف «شينمون أوكي»، الحانوتي المعاصر في اليابان، تعرُّضه للسخرية من المجتمع بسبب وظيفته في تغسيل الموتى ووضعهم في توابيت، بل إن عائلته تبرأت منه وهجرته زوجته في المضجع لأنه «مُدنَّس» بالجثث. لذا اشترى أوكي معطف الجراحين وقناعًا وقفازات طبية ووصل إلى منازل العملاء مرتديًا زيًّا طبيًّا كاملًا. بدأ الناس يتفاعلون معه بشكل مختلف، واقتنعوا بالصورة التي يبيعها ونادوه بلقب «الطبيب». وقد فعل الحانوتية الأمريكيون شيئًا مشابهًا، فقد اكتسبوا الشرعيَّة في أعين الناس بإضفاء الشكل الطبي على أنفسهم.

أثناء مشاهدة كليف وهو يخضع لعملية التَّحنيط، تذكرت مرة أخرى شهود عائلة هوانج لحرق جثته والعهد الذي قطعته على نفسي بأن أكون مَن يحرق أفراد عائلتي.

قلت لبروس: «لقد كنت أفكر في الأمر، وتوصلت إلى أنَّي قد أحرق جثة والدتي، لكن يستحيل أن أُحنِّطها بهذا الشكل».

أدهشني أنه اتفق معي: «يستحيل.. يستحيل. ربَّما تظنين نفسك قادرة على ذلك إلى أن تريها مستلقية ميتة على الطاولة. هل تظنين أنَّك تستطيعين قطع رقبة والدتك والوصول إلى الوريد؟ هل تعتقدين أنكِ تستطيعين وخزها بالمبازل؟ إننا نتحدث عن والدتك هنا. يجب أن تكوني قاسية يا أختاه لتفعلي ذلك».

ثم توقف بروس عن العمل، ونظر في عيني، وقال شيئًا جعلني أفهم، وليس للمرة الأخيرة إنه يعدُّ عمله أكثر من مجرد تجارة. فرَغم أنه أخفى أفكاره تحت الشخصية الصاخبة ومخططات الثراء من خلال بيع الحمام الجنائزي، أخفى أنه فيلسوفٌ. قال: «فكري في الأمر بهذه الطريقة: بطن أمك هو المكان الذي عشت فيه تسعة أشهر، إنه طريقك إلى هذا العالم، إنه منبتك

وأصلك. ثم من المفترض أنَّك ستفعلين به كل ذلك؟ طعنه؟ تدمير موطنك الأول؟ هل تريدين حقًا فعل هذا؟».

في أعالي جبال التبت، حيث الأرض صخرية وصلبة جدًا فلا يمكن دفن الموتى والأشجار نادرة جدًا فلا يتوفَّر الحطب لحرق الجثث، طوَّر التبتيون طريقة أخرى للتعامل مع موتاهم. يقطع روجيابا المحترف، أو مُقطِّع الجثث اللحم من الجثة ويطحن العظام المتبقية بدقيق الشعير وزبدة الياك. بعد ذلك يُوضع الجسد على صخرة عالية ومسطحة لتأكله النسور، فتنقض الطيور حاملة أبعاض الجثة في اتجاهات مختلفة، وتصعد إلى السماء. إنَّها طريقة سخية للتخلص من الجثث، واللحم المتبقي يُغذي حيوانات أخرى.

لكلٍّ ثقافة طقوسها في الموت مع القدرة على صدمة غير المبتدئين وتحدي شبكة قيمنا، بدءًا من شَوي شعب الواري للحم رفاقهم من رجال القبائل إلى الرَّاهب التبتي الذي تمزقه مناقير النسور وإلى المبزل الفضيٍّ الطويل الذي يخترق أمعاء كليف، ولكن هناك فارق مهم بين ما فعله الواريون والتبتيون بموتاهم وما فعله بروس بكليف، ذلك الفارق هو الإيمان الديني. كان الواريُّون يؤمنون بأهمية التَّدمير الكامل للجسد، ولا يزال التبتيون يعتقدون أنَّ الجسد يوفِّر الغذاء لكائنات أخرى بعد أن تتركه الروح، أمَّا شعوب أمريكا الشمالية فيمارسون التحنيط ولا يحملون أي مشاعر دينية تجاهه، إنه ليس طقسًا يجلب لنا الراحة، بل رسومًا إضافية بقيمة 900 دولار على فواتير جنازاتنا.

إذا كان التَّحنيط شيئًا لن يعرض تاجر مثل بروس أمه إليه أبدًا، يعني هذا التساؤل لماذا نفعله بأيٍّ شخص من الأساس؟

أطفال من أجل الشيطان

«الكابوس الكاشف للجنون المجهول

من طبخ الأجنة لغذاء عبدة الشياطين

تراقب الساحرات العجائز الطفلة تنضج

وتظهر ساقها لإمتاع الشيطان›.

«تشارلز بولدير»، قصيدة «أضواء المنارة».

عندما تتخرج في الكلية بشهادة في تاريخ العصور الوسطى، فقليل من أرباب العمل هم من سيقرعون بابك. اكتب «العصور الوسطى» و«تاريخي» على موقع Craigslist، وأفضل خيار وظيفي ستجده هو «نادلة بملابس العصور الوسطى»[1] في شركة Medieval Times الترفيهيَّة، وخيارك الوحيد حقًا هو الذهاب إلى قسم الدِّراسات العليا بإحدى الكليات وقضاء سبع سنوات أخرى في العمل بين أكوام متربة من المخطوطات المُضيئة عن فرنسا في القرن الثالث عشر، سينحني ظهرك وأنت تعمل على فكِّ اللغة اللاتينية المكتوبة بخطٍّ باهتٍ، وتدعو الله أن تقتنع الجامعة بالسماح لك بالتدريس.

لقد خطر ببالي أن أعمل في الأوساط الأكاديمية، لكن لم أملك القدرة الفكرية ولا القدرة على التحمُّل. لكن العالم خارج البرج العاجي بارد وقاسٍ،

(1) إذا بحثت على الإنترنت عن «mead wench» ستجد صور كثيرة لهذه الأزياء. - المترجم.

وكل ما تسلَّحت به خلال سنوات دراستي الجامعية هو أطروحة بكالوريوس مؤلفة من خمسين صفحة بعنوان: «على صورتنا: قمع الأجنة الشيطانية في نظرية السحر في أواخر العصور الوسطى».

تركَّزت أطروحتي التي كنت أعتبرها في ذلك الوقت أعظم أعمال حياتي على محاكمات الساحرات في العصور الوسطى المتأخرة. وعندما أتحدث عن الساحرات، لا أقصد ساحرات الهالوين المرسومات على بطاقات المعايدة بوجوه عليها ثآليل[1] كبيرة وقبعات سوداء مدببة. بل أعني النساء (والرجال) الذين اتهموا بالشعوذة في أواخر العصور الوسطى ثم أُحرقوا على عمود خشبي، هؤلاء هن الساحرات اللاتي أقصد.

الأرقام ليست دقيقة، لكن أقل التقديرات التَّاريخية تشير إلى إعدام أكثر من 50 ألف شخص في أوروبا الغربية لارتكابهم جريمة «الشعوذة»، وممارسة السحر الضار. وهؤلاء الـ 50 ألفًا هم من أُعدموا بالفعل بتهمة ممارسة السِّحر عن طريق الحرق، والشنق، والإغراق، والتعذيب، وما إلى ذلك. أما مَن اتُهموا بممارسة السحر وواجهوا المحاكم بهذه الجرائم المفترضة فهو عدد لا يحصى.

لم يُتَّهم هؤلاء، ومعظمهم من النساء بممارسة سحر المبتدئين البسيط كالاحتفاظ بأقدام الأرانب لجلب الحظ الحسن أو جرعات الحب[2]، بل اتُهموا بما لا يقل عن عقد اتفاق مع الشيطان لنشر الموت والدمار. ولأن شعوب أوروبًا كانت أمية في غالبها، فالطريقة الوحيدة التي تبرم بها أيٌّ ساحرة طموحة صفقة مع الشيطان كانت من خلال فعل جنسي، ويا له من توقيع مثير.

وإلى جانب تسليم أنفسهن بخلاعة للشيطان في قداس شيطاني، اتُهمت الساحرات بإثارة العواصف وإفساد المحاصيل وإصابة الرِّجال بالعجز الجنسي وسلب أرواح الأطفال الرُضَّع، ويبدو أنَّ أيَّ حدث لا يمكن السيطرة

(1) الثؤلول وجمعه ثآليل: كتلة حميدة تنمو على الجلد. – المترجم.

(2) سائل سحري للإيقاع بالرجل. – المترجم.

عليه في أوروبا العصور الوسطى وعصور الإصلاح البروتستانتي كان من فعل الساحرات.

من السَّهل على إنسان في القرن الحادي والعشرين أن يقول دون اكتراث: «تبًا، أهل القرون الوسطى هؤلاء مجانين جدًا لاعتقادهم في اتباع الشياطين الطائرة والمواثيق الجنسية»، لكن السحر كان حقيقيًا بالنسبة إلى رجال ونساء العصور الوسطى مثله مثل دوران الأرض أو أنَّ التدخين يسبب السرطان بالنسبة إلينا. ولا يهم إن كانوا يعيشون في مدينة أو قرية صغيرة، وسواء كانوا فلاحين متواضعين أو كان البابا نفسه، آمن الجميع بأن هناك ساحرات وأنَّ السحرة كانوا يقتلون الأطفال والمحاصيل ويمارسون الجنس الفاجر مع الشيطان.

بل إنَّ واحدًا من أشهر كتب القرن السادس عشر كان دليلًا لمطاردة الساحرات لمحقق يُدعى «هاينريش كرامر» بعنوان «مطرقة الساحرات»، وكان أشهر دليل للعثور على الساحرات في مدينتك والتخلص منهن. في هذا الكتاب نتعلم ما يُفترض أنَّه رواية ساحرة من سويسرا عمَّا فعلته الساحرات مع الأطفال حديثي الولادة:

> «هذه هي طريقة ذلك: ننصب أفخاخنا للأطفال غير المُعمّدين أساسًا... وبتعاويذنا نقتلهم في مهدهم أو حتى وهم ينامون إلى جانب والديهم، وبهذا يُعتقد بعدها أنهم اختنقوا لأن أحدًا نام عليهم بالخطأ أو أنَّه موت طبيعي بسبب آخر. ثم نأخذهم سرًّا من قبورهم ونطبخهم في مرجل حتى ينفصل اللحم عن العظم لعمل حساء يمكن شربه بسهولة. ومن المواد الأصلب نصنع مرهمًا يساعدنا في فنوننا ومتعنا وفي التنقُّل».

وفقًا لاعترافات الساحرات المتهمات، اللاتي خرجت منهن من خلال التعذيب الشديد، فعلت المجرمات كل شيء بالأطفال المقتولين: القليل من الغلي، والقليل من التحميص، والقليل من شرب دماء، وأكثر ما فعلن كان تحويل بقايا عظامهم إلى مرهم عبر طحنه لدهنه على عِصي المكانس لجعلها تطير.

أتحدث عن تاريخ قتل الساحرات للأطفال لأوضح أنني كتبت عن قتل الأطفال قبل أن أرى طفلًا ميتًا. وحين تبدأ فصلًا جديدًا من حياتك، تعتقد أنَّك تركت الجزء القديم وراءك ولسان حالك: «اذهبي إلى الجحيم أيَّتها النَّظرية الأكاديمية عن السحر في العصور الوسطى، لتذهب إلى الجحيم العصور الوسطى بفلسفتها عن الموت، أيَّتها المتحذلقة المخادعة! لا مزيد من كتابة أشياء لا يقرأها أحد؛ سأعيش في المجال العملي الآن! سأعرق وأتألم وأحرق الجثث وأجلب نتائجًا ملموسة!»، لا توجد طريقة حقًا لترك الماضي وراءك؛ لقد جاء أطفال الساحرات المساكين معي.

كما ذكرت، أوَّل شيء تلاحظه عندما تدخل وحدة التبريد في دار ويست ويند هو أكوام مُكدَّسة بنظام من صناديق الورق المقوَّى البُنِّية، وعلى كلٍّ منها ملصقٌ يوضح الإنسان الميت حديثًا (أو ليس حديثًا) الذي يسكنها. ربَّما لن ترى في البداية أشباه الكبار الصغار: الرضَّع. إنهم موزَّعون على رفٍّ معدني منفصل في الزَّاوية الخلفيَّة مثل حديقة صغيرة من الحزن. يُلف الرضَّع الأكبر سنًا ببلاستيك أزرقَ سميكٍ، وعندما تزيل البلاستيك يبدون تمامًا كما ينبغي أن يبدو أي رضيع: مرتدين قبعات صغيرة وقلادات على شكل قلب وقفازات، كأنهم «نائمون وحسب»، لولا أنهم باردون للغاية.

أما الرضَّع الأصغر سنًّا: أي الأجنة، فلم يكن حجمهم أكبر من كف اليد، ولأنهم أصغر من أن يوضعوا في غطاء بلاستيكي أزرقَ يُتركون في حاويات بلاستيكية من سائل الفورمالديهايد البني كأنَّهم جزءٌ من تجربة علمية في المدرسة الإعدادية. في اللغة الإنجليزية وتعبيراتها الملطفة كثيرًا للمفاهيم

الصعبة، نقول إن رضيعًا مثل هذا «وُلد ساكنًا»، لكن المتحدثون بلغات أخرى أكثر جلافة[1] يقولون: «ولد ميتًا».

يأتي هؤلاء الرضَّع إلى المحرقة من أكبر مستشفيات بيركلي وأوكلاند، وتعرِض المستشفيات على الأهل حرق جثث أطفالهم مجانًا إذا مات رضيعهم في الرحم أو بعد الولادة بقليل. إنه عرض سخي منها: فرَغم الخصم الذي تقدمه كثيرًا دور الجنازات على حرق جثث الأطفال فقد تصل تكلفته إلى عدة مئات من الدولارات. وبغض النظر، هذا هو آخر شيء تريد الأم أن تحصل عليه مجانًا من المستشفى.

كنا نجمع الرضَّع وننقلهم إلى حديقتنا الصغيرة، أحيانًا ثلاثة أو أربعة رضَّع فقط في الأسبوع وأحيانًا أكثر من ذلك بقليل، كنا نحرق كلَّ جنين على حدة وترسل إلينا المستشفيات شيكًا. وعلى عكس إجراء استخراج شهادة وفاة للبالغ، تحصل المستشفيات على شهادات وفاة الأطفال من ولاية كاليفورنيا قبل وصول الجثث إلى المحارق، وقد أعفانا ذلك من طرح الأسئلة البيروقراطيَّة المطلوبة على الأم المفجوعة (مثل: متى كان موعد آخر دورة شهرية جاءتك؟ هل كنتِ تدخنين أثناء الحمل؟ كم عبوة في اليوم؟).

ذات مرة كان كريس في الجانب الآخر من الخليج في سان فرانسيسكو لجلب جثة من مكتب الطبيب الشرعي، أخبرني مايك أنه سيُرسلني لجلب أطفال الأسبوع، طلبت من مايك منحي تعليمات محددة للغاية، فقد بدت المهمة معقدة لدرجة رهيبة.

قال مايك: «ما عليك سوى صفِّ الشاحنة عند رصيف التَّحميل الخلفي والذهاب إلى مكتب الممرضات وإخبارهن أنَّكِ جئتِ من أجل الأطفال، ينبغي أن تكون الأوراق وكل شيء جاهزًا لديهم، إنَّها مهمة سهلة».

بعد عشر دقائق، صففت الشَّاحنة عند رصيف التحميل خلف المستشفى وأخرجت منها النقَّالة، ولعل استخدام نقَّالة الكبار الضخمة لنقل عدد قليل من الأطفال غريب في حد ذاته، لكن لا أعتقد أنَّ من الحكيم المشي في ممرات

(1) الجلافة: غلظة الطبع وتبلد الإحساس. – المترجم.

المستشفى وأنا أحتضن بذراعي أطفالًا ميتين، تخيلت نفسي أتعثر وأسقطهم من يدي مثل أم متوترة تحمل الكثير من أكياس البقالة لتجنب العودة مرة أخرى للسيارة.

بحسب تعليمات مايك، فإنَّ محطتي الأولى هي مكتب الممرضات. في هذه المرحلة، كان تناول موضوع الموت لا يزال صعبًا بالنسبة إليَّ، وأميل بطبيعتي عند مقابلة أشخاص جدد إلى التبسُّم بدفء وإجراء محادثة صغيرة، ولكن حين يكون الهدف هو تسلُّم جثث الأطفال، فإن أيَّ ابتسامة تبدو قلة أدب وفي غير محلِّها. تخيل: «كيف حالكِ اليوم؟ أنا هنا من أجل جثث الأطفال. بالمناسبة، أقراطك رائعة يا فتاة!». من ناحية أخرى، إذا حنيت رأسي وشبكت أصابعي وذكرت سبب قدومي سأصبح الفتاة الغريبة من دار الجنائز، المطلوب هو موازنة دقيقة: أن أكون سعيدة ولكن ليس أكثر من اللازم.

أجرت الممرضات مشاوراتهن وقررن أنَّ لدي السُّلطة المناسبة للهروب بالأطفال، أخذتني امرأة من الأمن إلى مشرحة المستشفى، وكانت امرأة صارمة تعرف هدفي الغادر ولا تمزح. بعد عدة محاولات فاشلة واصطدامات بسيطة بالحائط، نجحت في إدخال نقَّالتي إلى المصعد وبدأنا رحلة النزول المحرجة إلى المشرحة.

كان السؤال الأول للحارسة منطقيًا: «لماذا أحضرتِ هذه العربة؟».

أجبتها: «يعني، تعلمين... للرضَّع، لإخراجهم؟».

كان ردها سريعًا: «الرجل الآخر يُحضر صندوقًا صغيرًا من الورق المقوَّى، أين الرجل الآخر؟».

صندوق من الورق المقوى! عبقري! وسيلة نقل متخفِّية ومحمولة ومعقولة لعدد من الرضَّع، لمَ لم يذكر مايك هذا؟ لقد فشلت قبل أن أبدأ.

فتحت الحارسة قفل المشرحة لتسمح لي بالدُّخول ووقفت على الباب وعقدت ذراعيها بنفورٍ واضحٍ، لم تعطني صفوف المبردات المتطابقة

المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ أيَّ فكرة عن مكان اختباء الرضَّع، فاضطررت إلى الاستفسار عن مكانهم مع ما يجلبه ذلك من ألم لكرامتي.

جاء ردها: «ألا تعرفين؟»

ورفعت إصبعًا واحدة ببطء مشيرة إلى المبرد المطلوب، وظلَّت تشاهدني وأنا أحمل الرضَّع واحدًا تلو الآخر وأربطهم في العربة بأكثر طريقة غير منطقيَّة ممكنة. دعوت بصمتٍ أن تتحول نقَّالتي بطريقة سحريَّة إلى صندوق من الورق المقوَّى أو قفص حليب أو أيِّ شيء حتَّى لا أضطر إلى دفع هذه الأجنة المغمورة في الفورمالديهايد عبر قاعة الانتظار على نقَّالة مُعدَّة لشخص بالغ كامل النمو.

ظننت أنني أستطيع الخلوص برُضَّعي، ورأسي متواضع لكن مع الحفاظ على كرامتي. عند هذا وجهت لي الضربة القاضية: «سيدتي، ستحتاجين إلى التوقيع على تسلُّم هؤلاء».

هل تذكرت أن أحضر قلمًا؟ لا، لا لم أتذكر. سألتها حين لاحظت عدة أقلام معلقة من جيب قميصها: «حسنًا، هل يمكنني استعارة قلم منك؟».

وعندها أتت أشدُّ نظرة ازدراء واحتقار تلقيتها في حياتي، وكأنني أنا من قتلت هؤلاء الصِّغار دون أيِّ ندمٍ. قالت وهي تنظر إلى القفاز الذي لا يزال على يدي لنقل الرضَّع: «ربما لو خلعت تلك القفازات».

ولأكون منصفة، لست متأكدة من أنني لو كنت مكانها لقبلت بإعطاء قلمي (سلعة ثمينة في كيان بيروقراطي مثل مستشفى أمريكي) لفتاة كانت تُمسِك للتوِّ بجثث أطفال، لكن الطريقة التي نطقت بها هذه العبارة أعلمتني بوضوح أنَّ هذه المرأة مرتعبة من الموت، ومهما تبسَّمت في وجهها وأخبرتها أنَّني جديدة في هذا العمل باعتذارات متتالية، لم تكن هذه المرأة لتغير نظرتها إليَّ على أنني قذرة ومنحرفة. إنَّني في نظرِها خادمة للعالم السفلي، لم تزعجها واجباتها المعتادة كحارسة أمن، أما هذه الرحلات إلى المشرحة فكانت في

غاية الثقل عليها. خلعتُ القفَّازات، ووقعت على أوراق الاستلام، ودفعت الصغار إلى شاحنتي على النقالة، وهي نسخة أشدُّ حزنًا من عربة الأطفال.

تمَّت عمليات حرق جثث الرضَّع بنفس طريقة حرق جثث الكبار، وبدأت بتسجيل أسمائهم، إن كان لهم أسماء. فكثيرًا ما كنا نسجِّلهم «رضيع جونسون» أو «رضيع سانشيز»، لكن حين كان لهم أسماء كاملة كان الحدث محزنًا أكثر، حتى لو كانت أسماء فظيعة، مثل كيتلين التي كان تُكتب بطريقة «كات-ليين». لقد أظهر امتلاكهم أسماءً كاملة مدى استعداد والديهم لقدومهم وضمهم إلى الأسرة.

لا يوجد جهاز تحميل ميكانيكي لوضع الرضَّع بدقة بين ذراعي الغرفة النارية، كما هو الحال مع البالغين، وعليك أنت، مشغل الفرن أن تتقن القذف، بحيث يحلق الرضيع من يدك وينزل مباشرة أسفل اللهب الرَّئيس الذي يهبط من سقف الفرن، يجب أن تتأكد من أن الطفل وقع في المكان الصحيح، وبالممارسة، أصبحت جيدة جدًا في ذلك.

كُنا نبدأ في حرق جثث الرضَّع في نهاية يوم العمل، ففي آخر اليوم يُصبح الطوب المبطن للفرن ساخنًا جدًا لدرجة أنَّ الرضَّع الصغار يحترقون تلقائيًا، ومن المعتاد أن يطلب مني مايك حرق رضيعين بدلًا من جثة بالغ قبل نهاية اليوم.

يستغرق حرق الكبار ساعات، بما في ذلك حرق الجثة نفسه وعملية التبريد، أما حرق جثث الرضَّع فينتهي في عشرين دقيقة بحدٍّ أقصى. وجدتني أرتب أهدافي: «حسنًا، كيتلين، كم الساعة؟ الثالثة والربع مساءً؟ أراهن أنَّ بإمكانك إنجاز خمسة رضَّع قبل الساعة الخامسة. هيا يا فتاة! خمسة قبل الخامسة. هذا هو هدفك!».

بشع؟ قطعًا، لكن لو تركت نفسي أغرق في الحزن المحيط بكل جنين، وكل عمر مرغوب وضائع، لأُصبت بالجنون. سأُصبح مثل حارسة الأمن تلك: خائفة وفاقدة لروح الدعابة.

كنت من أنصار فكِّ أغطية الرضَّع كبار الحجم الذين يُلفون بالبلاستيك الأزرق، فتحتها لا لأحدق ببلاهة أو أمارس فضول الجنازات، بدا لي من الخاطئ ألا أنظر إليهم وألقيهم كما لو كانوا عدمًا أو التظاهر بأنَّهم نفايات طبية لا نلقي لها بالًا.

أكثر من مرة أفتح البلاستيك وتصيبني مفاجأة صرخة مز التشوه الذي بالجثة: الرأس الضخم، والعينان الغائرتان، والفم الملتوي.

في أوروبا قبل عصر التنوير، أثارت التشوهات كل أنواع التفسيرات الخيالية، بما في ذلك أن طبيعة الأم فاسدة أو أنَّها نتيجة لمزيج من الأفكار الشريرة لدى الأم والأب، كانت وحشية مظهر الطفل انعكاسًا لخطيئة والديه.

وقد قدَّم أمبرواز باريه قائمة طويلة بأسباب العيوب الخلقية في أطروحته التي تعود لمنتصف القرن السادس عشر تتمثل في: «غضب الله، وزيادة السائل المنوي، ومشكلات الرحم، والنهم الشديد لدى الأم». تبدو هذه الأسباب غير ذات صلة اليوم، إلا إذا كنت تعتبر إدمان المخدرات أثناء الحمل «نهمًا غير محتشم» (ولعلها كلمات مناسبة تمامًا لوصف الإدمان).

كان من الواضح أنَّ العديد من هؤلاء الأطفال غير مرغوب فيهم، ومجرد وجودهم يمثل عبئًا، لم يكونوا جميعًا ثمرة قلوب أهلهم التي ضلَّت الطريق خلال رحلتها البيولوجية من جنين إلى رضيع. فمعدل الفقر في أوكلاند أعلى بكثير من معدل الفقر في كاليفورنيا ككل، وثمة مخدرات وعصابات، وجاء الأطفال إلى ويست ويند من كل الألوان والأجناس، فالسلوك الشَّائن متغلغل في جميع مجتمعات أوكلاند.

ينظر الأطفال إليك بملامح مختلطة ببعضها بعضًا، ولطالما تساءلت عما إذا كانوا ضحايا لنزوات الطبيعة القاسية أم نتاج أمهات لم يستطعن إيقاف إدمانهن حتى مع نمو طفل في بطونهن. لم يكن التخمين مفيدًا، لكن بعد أشهر تظهر الحقيقة في بعض الأحيان حين يتجاهل الجميع تسلُّم رماد الرضيع رغم اتصالنا بهم عدة مرات.

بكيت مرة واحدة فقط لرضيعة كبيرة، فذات يوم ذهبت إلى مكتب مايك أطلب منه شيئًا أفعله إلى أن ينتهي حرق ضحيتي الحالية. كان رده: «في الواقع، ربَّما يمكنك أن... حسنًا، لا عليكِ».

قلت: «مهلًا، ماذا تقصد بلا عليكِ؟».

قال: «كنت سأقول لك احلقي شعر هذه الطفلة، لكن لا عليكِ، لن أجعلك تفعلين هذا».

قلت: «لا، يمكنني فعلها! فما زلت أسعى لإثبات قبولي التام للموت».

كانت هذه الرضيعة تبلغ أحد عشر شهرًا حين ماتت بسبب عيب في القلب. كانت ثقيلة، ويمكن تبيُّن ملامحها كأيٍّ مخلوق طبيعي في العالم. أراد والداها أخذ شعرها قبل حرقها، على الأرجح للاحتفاظ به ووضعه في دلاية أو خاتم كما فعل الناس في العصر الفيكتوري. يعجبني الطريقة التي كان الناس يصنعون بها المجوهرات والتذكارات الجميلة من شعر موتاهم، وقد فقدنا هذا التقليد الجميل في مرحلة ما من تاريخنا، وأصبح الحفاظ على أيٍّ جزء من الموتى الآن مُقرفًا، حتى إن كان شيئًا غير ضار كالشعر.

اضطررت إلى حمل جسد هذه الرضيعة بين ذراعي لأسباب لوجستية، فهذه هي أفضل زاوية لقصِّ وحلق ضفائرها الشقراء الصغيرة. وضعت الخُصل في مظروف وأخذت الطفلة إلى المحرقة، وفيما كنت أقف أمام الفرن وعلى وشك وضعها فيها، بدأت فجأة في البكاء، وهو أمر نادر في بيئة العمل الصناعية التي نعمل فيها حيث من الضروري العمل بكفاءة.

لماذا شعرت بالأسى لهذه الطفلة بالذات؟

ربَّما كان ذلك لأنني حلقت رأسها ولففتها ببطانية وكنت على وشك إلقائها في اللهب الحارق، وأداء طقوس مقدسة لعالم خيالي، عالم تُختار فيه شابة يانعة لجمع الرضَّع المتوفين وحلق رؤوسهم ثم حرقهم لصالح المجتمع.

وربما شعرت بالأسى لأنها كانت جميلة، بشفتين مقوستين صغيرتين وخدين مملوءين، فقد أشبهت أطفال إعلانات الخمسينيات من كل وجه ممكن لطفل إعلانات ميت.

وربما رمزت لكل طفل لم أبكِ من أجله، كل طفل لم أملك الوقت لبكائه لأنني أردت أداء عملي وحرق خمسة قبل الخامسة.

أو ربَّما ذكرتني عيناها الزرقاوان بنفسي بنرجسية بدائية، وبحقيقة أنني بطريقة ما نجوت من الحرق لأحرق الآخرين، قلبي ينبض وقلبها توقَّف.

فهمت الآن ما دفع مايك إلى تفويض حلق شعر الطفلة إليَّ، حتى وإن تردد في الطلب. كان لمايك ابن، ملاك يبلغ خمس سنوات، وحرق جثث الأطفال صعب على شابة ذات 23 ربيعًا لم تنجب، فلأنه عذاب بالنسبة إلى أبٍّ مُحب، لم يقل قط أنه يتأثر بهذا ولكن ثمَّة أوقات نادرة تتشقق فيها القشرة التي يختبئ خلفها، وحينها أرى هذا.

لأشهر طويلة ظننت أن مايك كان صلبًا، لكن الغول الذي تخيَّلته في رأسي لم يكن قريبًا من حقيقة مايك. كان لمايك في الواقع زوجة جديدة تدعى «جوايدليس»، وطفل صغير رائع، وزرع حديقة عضوية في الفناء الخلفي لمنزله، وقد تولى وظيفته في المحرقة بعد سنوات من العمل لتأمين وطن جديد للاجئين. كنت أراه غولًا لأنه ظلَّ صارمًا مهما عملت واجتهدت ولم يتأثر بجهودي، لم يمنحني مايك ملاحظات سلبية، لكن مجرد غياب التعليقات ضرب نفسية الشابة الصغيرة التي لا تشعر بالأمان، لقد عكست عليه خوفي من أنَّ ضعيفة مثلي لا تستطيع تحمُّل العمل، ولا تستطيع تحمُّل الموت الحقيقي الذي سعيت جاهدة لأكون في حضوره.

سألت بروس عن عدم رغبة مايك في التعامل مع الأطفال، فنظر إليَّ وكأنني مجنونة، ثم قال: «حسنًا، نعم، مايك يريدك أن تفعلي ذلك؛ لديه طفل، وليس لديك طفل. لو كنت مكانه لرأيتِ طفلك مكان هذا الطفل. عندما تتقدمين في العمر، يبدأ الشعور بدنوِّ الموت يخيفك». ثم أعقب هذا بما بدا لي تحذيرًا: «انتبهي! سيزيد انزعاجك من الأطفال كلما تقدمتِ في العمر».

عندما انتهى حرق رضيعتي الفاتنة، كان كل ما تبقى منها مثل كل ما يتبقى من أيٍّ رضيع نحرقه، كومة صغيرة من الرَّماد وشظايا العظام. وعظام الرضَّع صغيرة جدًا فلا يمكن تحويلها إلى مسحوق باستخدام مطحنة العظام

نفسها التي نستخدمها للبالغين. لكن المعروف ثقافيًا (وما يفرضه القانون) ألا نُسلِّم كيسًا صغيرًا من العظام الواضحة التي يمكن التعرُّف عليها إلى الوالدين أيضًا. لذلك بعد تبريد العظام كان لا بدَّ من «معالجة» كل رضيع يدويًا. وباستخدام قطعة معدنية صغيرة تشبه مطحنة الحبوب الصغيرة أطحن عظام أفخاذهم الصغيرة وشظايا جماجمهم حتى تصبح مسحوقًا متماثلًا، وتنتج العظام ما يقارب ثُمن كوب من المسحوق، لكنها كافية للدفن أو وضعها في جرَّة صغيرة أو نثرها أو إمساكها بين أيدي الوالدين.

***

لقد كتبت أطروحتي عن ساحرات العصور الوسطى المتَّهمات بتحميص جثث الرُّضَّع وطحن عظامهم، وبعد عام واحد أجد نفسي أحمِّص رُضَّعًا ميتين وأطحن عظامهم حرفيًا. والمؤسف للنساء اللاتي اتُهمن بالسحر أنهنَّ لم يقمن حقًا بطحن عظام الرُضَّع لمساعدتهن على الطيران إلى جلسة منتصف الليل مع الشيطان. ورغم ذلك كن ضحايا القتل ظلمًا بالحرق وهن أحياء على عمود خشبي، أما أنا فقد طحنت بالفعل عظام الرُضَّع، وكثيرًا ما يشكرني أهلهم المساكين على رعايتي واهتمامي.

العالم يتغيَّر.

التخلُّص المباشر

كان «مارك نوين» يبلغ من العمر ثلاثين عامًا فقط عندما توفي، وند تُرك جسده في ثلاجة في مستشفى سان فرانسيسكو الطبي ليعمل مكتب الطبِّ الشرعي على تشريحه، عندما وصلت والدته لترتيب حرق جثته في ويست ويند.

- لأستكمل بيانات شهادة الوفاة، هل كان مارك متزوجًا يا سيدة نوين؟

- لا يا عزيزتي! لم يكن متزوجًا.

- أله أطفال؟

- لا.

- وما آخر مهنة امتهنها مارك؟

- لم تكن له مهنة، لم يعمل قط.

- أنا آسفة للغاية يا سيدة نوين.

وفي ظني أن أيَّ امرأةٍ ابنها ميت وهو في الثلاثين من عمره ستكون مُحطمة، وحُقَّ لها هذا.

هزت رأسها مستسلمة وقالت: «يا عزيزتي، صدقيني هذا أفضل».

كانت السيدة نوين قد انتهت من حدادها على ابنها منذ فترة طويلة: بعد أن بدأ في تعاطي المخدرات لأول مرة، ودخل السجنَ لأول مرة، وبعد أول وثاني وسادس مرة ينتكس فيها. في كل مرة لم تجد مارك كانت تقلق من أنه قد تعاطى جرعة زائدة. قبل يومين فقط عثرت على مارك ميِّتًا على الأرض

في غرفة نُزل تؤجَّر بالساعة في منطقة تندرلوين بسان فرانسيسكو، وحينها لم تعد بحاجة إلى القلق، لقد تحققت أسوأ مخاوفها، وأشعرها هذا بالارتياح.

عندما حان وقت تسديد ثمن الحرق، مدت السيدة نوين بطاقة ائتمان ثم سحبتها مرة أخرى وقالت: «مهلًا مهلًا، استخدمي هذه البطاقة بدلًا من تلك؛ أحصل على أميال طيران مجانية على هذه. على الأقل سيجلب لي مارك بعض الأميال».

اندفع لساني: «يجب أن تذهبي إلى مكان استوائي». كأنها جاءت إلى مكتب سياحة. بعد كل شيء، عندما تجدين ابنك ميتًا في غرفة نزل بائسة، ألا تستحقين الترويح عن نفسك ببعض الماي تاي[1]؟

قالت وهي توقع على الإيصال: «أعتقد أن هذا سيكون رائعًا يا عزيزتي. لطالما رغبت أن أذهب إلى كاواي».

أجبتها: «أنا من أواهو في الأساس، لكنني حقًا أحب جانب هيلو من الجزيرة الكبيرة».

وانطلقنا في محادثة طبيعية حول إيجابيات وسلبيات جزر هاواي المختلفة التي يمكن للسيدة نوين زيارتها باستخدام أميال حرق ابنها.

كانت السيدة نوين هي أول طلب للحصول على أميال طيران، لكن زواج التكنولوجيا والموت لم يكن غريبًا على مؤسسة ويست ويند للحرق والدفن. ففي مرأب ويست ويند على الحائط فوق صناديق جِرار الرماد الإضافية عُلق إطار بداخله تصريح العمل من المدينة لدار «باي سايد» لحرق الجثث. كان المرأب من الناحية الفنيَّة في عنوان مختلف، وكانت باي سايد لحرق الجثث من النَّاحية الفنيَّة مؤسسة مختلفة، لكنهما يعملان من المنشأة نفسها، ميزت شركة باي سايد نفسها من خلال تقديم خيار متطور وهو طلب الحرق عبر الإنترنت.

فإذا توفي أبوك في مستشفى محلي، يمكنك زيارة موقع باي سايد لحرق الجثث على الإنترنت، وكتابة موقع جثته، وطباعة بعض النماذج، والتوقيع

(1) مشروب مُسكر من الرم والفواكه الاستوائية. – المترجم.

عليها، وإرسالها بالفاكس إلى الرقم الموجود على الموقع، ثم الدفع بإدخال رقم بطاقتك الائتمانية. كل هذا دون الحاجة إلى التحدث إلى إنسان حقيقي. في الواقع، لم يُسمح لك بالتَّحدث إلى شخص حقيقي حتى لو أردت ذلك: يجب إرسال جميع الأسئلة بالبريد الإلكتروني إلى info@baysidecremation.com. ثم بعد أسبوعين، يرنُّ جرس الباب ويسلِّمك ساعي البريد رماد أبيك المشحون عبر شركة شحن مُرخَّصة وسيطلب منك التوقيع على التسلُّم. لا جنازة، ولا وجوه حزينة، ولا حاجة إلى رؤية جثة أبيك، التجنُّب التام مقابل سعر منخفض جدًا: 799.99 دولارًا.

أما خلف الكواليس، فلم يختلف أيُّ شيء، كان عليَّ أنا أو كريس قطع الرحلة نفسها لتسلُّم الجثة، وعلينا استصدار شهادة الوفاة نفسها، واستخدمنا ماكينة الحرق نفسها. كل ما وفرته باي سايد هو نفس نموذج عمل ويست ويند للحرق المباشر لكنه خالٍ تمامًا من التفاعل البشري، القليل بالأساس في العملية الطبيعية.

كانت لدى بروس أستاذ التحنيط، مشاعر قوية تجاه الحاجة إلى بشر أحياء حقيقيين لرعاية البشر الأموات: «اسمعي يا كيتلين، لا يمكن لحاسوب حرق جثة».

كان بروس قد عمل في منشأة لحرق جثث أخرى قبل ويست ويند، حيث جعلوا العُمَّال يشغلون آلات حرق الجثث من أجهزة توقيت محوسبة.

- تبدو هذه فكرة جيدة، أليس كذلك؟ ستحقق الكفاءة وما إلى ذلك؟ لكنها لن تنجح لو لم يكن هذا الجسد في وضع مثالي. وإن كان وضعه غير مثالي، فستقول لك الآلة: (دينج دينج، لقد انتهى الحرق)! والجثة لم تنتهِ. ستفتحين المحرقة لتجدي جثة نصف متفحمة. هذا ما يأتيك به الحاسوب يا رجل!

كانت معظم العائلات التي اختارت استخدام خدمات باي سايد تبحث عن أدنى سعر للتخلص من جثة نسيبها الذي لا تحبه البالغ من العمر خمسة وستين عامًا والذي فرضت عليهم كاليفورنيا قانونَ دفع ثمن حرق جثته. ولعلَّ مارك نوين حالة مثالية بالنسبة إلى باي سايد، فهو مدمن مخدرات منذ

زمن طويل وله أم دفنته نفسيًا قبل وفاته بوقت طويل. لكن ثمة حالات مقلقة أيضًا، فمن بين المحترمين الذين أحرقتهم باي سايد في الحادية والعشرين من عمره، أي بنفس عمري قريبًا في ذلك الوقت. ولا شكَّ أنَّ واحدًا وعشرين عامًا كافية لكي يفسد الإنسان، هذا أكيد، لكنها ليست وقتًا كافيًا لفقدان الأمل فيه.

حاولت أن أتخيَّلَ أن يتلقى والداي خبر موتي، فتلتفت أمي إلى أبي وتقول: «والآن يا جون، أتساءل عما إذا كان بإمكاننا إتمام عملية حرق جثث بسعر زهيد عبر الإنترنت لكاتي؟ هل تتذكر حين طلبنا طعامًا صينيًا عبر الإنترنت في الأسبوع الماضي وكيف كان ذلك سهلًا؟ ولست بحاجة إلى مناقشة أيٍّ أسئلة أو مخاوف بشأن ذريتي الثمينة مع إنسان حقيقي، لذا فخيار استخدام الإنترنت بالطبع سيكون مناسبًا».

بدأت أشك في أنَّ جسدي سيتلقى العناية الملائمة إذا مت صغيرة، لقد ألقت فكرة باي سايد على نفسي شعورًا ساحقًا بالوحدة، وأثقلتني فكرة أن أيًّا من أصدقائي على الفيسبوك الذين يسرعون في التعليق بـ «لذيذ!» على صورة أضعها لطبق سلطة حضَّرتها، لن يأتي لمسح العرق عن جبيني في فراش الموت ولا البراز عن جثتي.

كانت وظيفتي هي تغليف رماد الجثث في باي سايد لإرساله بالبريد، وقد اشترط البريد الأمريكي تعبئة الجِرار بطريقة معينة، مع وضع شريط تغليف بنيٍّ ثقيل على جميع الجوانب ولصق ما بدا كأنه أربعون ملصقًا مختلفًا. وحين أنتهي من عدد من الطرود وتصبح جاهزة لإرسالها بالبريد، كنت أذهب إلى مكتب البريد وأضعها على المنضدة، فتهزُّ السيدة الآسيوية المُسنة التي كانت تقف على الطرف الآخر رأسها لي وهي تختم الصناديق بختم «بقايا بشرية».

وفي كل مرة أصر: «اسمعي، العائلات هي من تريد منا إرسالها، أنا لا أضع القواعد!».

إلا أن تعبيرات وجهها التي تعبر عن حكم غير لطيف لا تختلف وتشغل نفسها بالختم.

وحتى مع ختم وتعبئة صناديق البريد وإغلاقها بشريط لاصق كأنها قلعة مُحصَّنة، نجد عائلات تحاول إقناعنا بأنها تسلَّمت جرارها بحالة سيئة، وهي مجرد حجة لتجنب الدفع. ادَّعى أحد المحترمين من ولاية بنسلفانيا أنَّ شقيقه وصل في عبوة يتسرب منها الرماد، وهو وضع تدهور عندما وضع شقيقه في المقعد الخلفي لسيارته المكشوفة وتطاير الرَّماد في الهواء بينما كان يقود سيارته على الطريق السريع. بينما أقدر الاحتفاء، فقد تخلَّى عن قصته وتوقف عن التهديد برفع دعاوى قضائية عندما أخبرته كيف نُغلف الجرة. بعد ذلك اكتشفنا أنه لم يذهب قط إلى مكتب البريد لتسلُّمها.

لوصول طلب حرق إلى باي سايد نغمة مميزة للفاكس، وأثارت تلك النغمة استجابة شرطية لدى موظفي ويست ويند لأن الشركة وعدتنا بإقامة حفل كوكتيل وعشاء حين نصل إلى أول 100 حالة حرق جثث عبر الإنترنت.

في صباح أحد أيام الثلاثاء رنَّ الفاكس ووقف كريس بسخطه المعتاد (حفلات الكوكتيل والتجمعات الاجتماعية بوجه عام لم ترق له) وذهب لالتقاطه.

- يا إلهي! ما هذا! يا كات، إنَّها في التاسعة.

- مهلًا يا كريس ماذا؟

- إنَّها في التاسعة.

سألت مذعورة: «هل تقصد تسع سنوات؟ ما اسمها؟ جيسيكا؟»

قال كريس وهو يهز رأسه: «آشلي».

- يا إلهي!

كانت فتاة توفيت في التاسعة من عمرها تُدعى آشلي بعد أن أنهت الصف الثالث مباشرة. في المستشفى حيث ترك والداها جسدها وعادا للمنزل، وكتبا رقم بطاقتهما الائتمانية في موقع إلكتروني، وانتظرا وصولها في طرد بريدي بعد أسبوعين.

اضطررت في النهاية إلى التحدُّث مع والدة آشلي عبر الهاتف، لأن بطاقة الائتمان التي قدمتها لم تعمل مهما بلغ عدد ما تبادلناه من رسائل البريد الإلكتروني، واتَّضح أنَّها حاولت استخدام بطاقة خصومات أحد المتاجر الكبرى لدفع ثمن حرق الجثة، من كان يتخيل حقًا أن متجر التسوق العادي لا يوفر عملية حرق جثث مماثلة بنقرة واحدة؟ ولو فعل لأتى بالتأكيد بتعبير ملطف للحرق مثل «إجراء التجزئة بالحرارة» لتزيين حقيقة العرض. ولعل أهل آشلي من أصحاب الرؤية المستقبلية حول الموت، وليسوا جماعة من معدومي الضمير كما تخيلتهم.

إنَّ فكرة أنَّ فتاة تبلغ من العمر تسع سنوات يمكن أن تتحول بطريقة سحرية إلى صندوق أنيقٍ ومنظم من الرفات هي فكرة جاهلة وعار على ثقافتنا، وهو ما يعادل اعتقاد البالغين أن الأطفال يأتون من طيور اللقلق. لكن جو، مالك ويست ويند، اعتقد أن باي سايد للحرق هي مستقبل رعاية الموت منخفضة التكلفة. لن تكون هذه المرة الأولى التي تشهد فيها كاليفورنيا مستقبل الموت.

شمال لوس أنجلوس مباشرة في مدينة جليندل، موطن لعروض متنوعة كونها أحد أكبر تجمعات الأرمن في الولايات المتحدة وسلسلة متاجر باسكن-روبينز للآيس كريم، وتحوي ما يعده البعض إحدى أهم المقابر في العالم: فورست لاون. فورست لاون ليست مجرد مقبرة، بل «حديقة تذكارية» بتلال ممتدة متموجة وشواهد قبور تملأ الأفق. تضم أرضها عددًا من مشاهير هوليوود: «كلارك جابل»، «جيمي ستيوارت»، «همفري بوجارت»، «نات كينج كول»، «جان هارلو»، «إليزابيث تايلور»، «مايكل جاكسون»، وحتى «والت ديزني» نفسه (فبعكس الأسطورة، ليس محفوظًا بالتبريد).

***

تأسست فورست لاون عام 1906، وتولاها مديرٌ عامٌ جديد عامَ 1917 يُدعى «هيوبرت إيتون»، وهو رجل أعمال يكره بشدة نموذج الموت الأوروبي الباهت. كانت رؤيته هي إنشاء «حديقة تذكارية» أمريكية جديدة تتسم بالتفاؤل لشنِّ حرب شاملة ضد المقابر التقليدية، والتي سماها «ساحات

الشواهد الكئيبة». أزال إيتون شواهد القبور من فورست لاون واستبدل بها لوحات تعريف مسطحة لأنك «لا تشوه (المقبرة) بشواهد القبور؛ سيفسد كل شيء». لقد ملأ أراضي فورست لاون بالفن والتماثيل، التي أشار إليها بـ «الباعة الصامتين». وكان أول تمثال رئيس يشتريه يُدعى «طفل البطة»، وهو تمثل لرضيع عُريان مُحاط بفراخ البط. مع نمو المقتنيات الفنية لفورست لاون، قدَّم مليون ليرة للفنان الإيطالي الذي يتمكن من رسم «المسيح وهو مليء بالإشراق وينظر إلى الأعلى بنور داخلي من الفرح والأمل».. لكي نكون أكثر تحديدًا، ما أراده إيتون هو «المسيح بوجه أمريكي».

كان إيتون هو الحانوتي المتفائل الأصلي، وكان هدفه «محو كل علامات الحداد». وتُعتبر فورست لاون المنشأ لبعض من أقوى التعبيرات المُلطفة المحبوبة في صناعة الجنائز الأمريكية. فقد أصبح الموت «إجازة»، وأصبحت الجثة «الحبيب»، و«الرماد»، أو «السيد فلان الفلاني»، الذي بعد التحنيط المتقن وعلاجات التجميل، ينتظر دفنه في غرفة نوم خاصة مفروشة جيدًا.

لقد وصف مقال نُشر بمجلة تايم عام 1959 فورست لاون بأنها «ديزني لاند الموت»، ووصف إيتون بأنه يبدأ يوم إجازته بإمامة طاقمه للصلاة وتذكيرهم بأنهم «يبيعون الخلود». كانت هناك بالطبع حدود لمن سيسمح لهم بشراء الخلود، إذ يخبرنا المقال نفسه أنهم «رفضوا مع الأسف التعامل مع الزنوج والصينيين».

أصبحت فورست لاون مشهورة بسياستها الجريئة والموت الجميل بأي ثمن، والتي تهكم عليها إيفلين وفي رواية The Loved One، حيث وصف في شعره كيف يضمن جيش إيتون من نُخبة المحنطين تخليل كل جثة قادمة إلى فورست لاون في الفورمالديهايد وتزيينها كالعاهرة أو الروبيان الوردي الذي لا يفسد ولا يزول لونه من قبل.

نفَّذ هوبرت إيتون خطته للموت الجميل بجوٍّ ديكتاتوري. فقد أسماه الموظفون (بأمر منه) باسم «البنَّاء». (هذا يذكرني بالتسمية السريالية لاختصاصي تقويم الأسنان في المدرسة الإعدادية، والذي جعل مساعديه يشيرون إليه ليس باسم «الطبيب» أو «د. وونج» بل «طبيب» فقط. لا يزال

العنوان مطبوعًا في ذهني، على الرغم من عودة أسناني منذ فترة طويلة لوضعها الأصلي الملتوي. «سيكون طبيب معك خلال دقيقة» أو «متى كانت آخر مرة رأيت فيها طبيب؟» أو «يجب أن أسأل طبيب عن رأيه في هذا».

وبسبب جزء كبير من تأثير فورست لاون، كانت خمسينيات القرن الماضي فترة ساحرة لصناعة الموت، فخلال التسعين عامًا التي تلت الحرب الأهلية، تمكَّن الحانوتية من تغيير تصُّور العامة لعملهم، فانتقلوا من صانعي توابيت محليين أُجبروا على زيادة دخلهم بطرائق أخرى إلى محترفين في القطاع الطبي تلقوا تدريبًا عاليًا، ويعملون على تحنيط الجثث من أجل «مصلحة الصحة العامة»، وإنشاء عروض فنية بالجثث للأهالي، ولم تضرهم الطفرة الاقتصادية التي أعقبت الحرب ووفَّرت للناس دخلًا يمكن إنفاقه على مواكبة مغامرات ما بعد الوفاة.

ولما يقرب من عشرين عامًا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ظلَّ معدل حرق الجثث على المستوى الوطني ثابتًا عند نطاق منخفض بشكل فاضح بين ثلاثة وأربعة في المئة، فلماذا سترغب أيُّ أسرة في حرق جثث موتاها في حين يمكنها إثارة إعجاب جيرانها بالصناديق الأنيقة على طراز كاديلاك، وتنسيق الزهور، والتحنيط، والجنازات المُتقنة؟ كان الجسد المُحنط عملًا فنيًا ينزل القبر على وسائد زاهية في عباءات الدفن الرقيقة وبتسريحات شعر منتفخة، لقد كان فنًّا هابطًا بامتياز، وهو ما يناسب تمامًا جماليات ما بعد الحرب.

أوضح «ستيفن بروثيرو»، أستاذ الدين والباحث في صناعة حرق الجثث الأمريكية، أنَّ «الخمسينيات من القرن الماضي مثَّلت فرصة رائعة للإفراط في البهرجة».

لكن «الإفراط في البهرجة» لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، وبحلول أوائل الستينيات بدأ المستهلكون الأمريكيون يشعرون بالخداع بسبب الأسعار المرتفعة السخيفة لصناعة الجنائز. وبعدما كانت الجنازة ذات يوم أحد أعمدة الاستقامة في المجتمع، بدأ الناس في التشكيك في أنَّ الحانوتية ربَّما

الدجَّالون عديمو الضمير يستغلون الأسر المكلومة، وتزعَّمت حركة معاداة الوضع الراهن لقطاع الجنائز الراهن امرأة عادية تُدعى «جيسيكا ميتفورد».

كانت ميتفورد كاتبة وصحفية ولدت لعائلة غريبة الأطوار من الأرستقراطيين الإنجليز، وكان لها أربع شقيقات شهيرات، إحداهن نازية و«صديقة حميمية لهتلر»، لكن ميتفورد ألهمت الجميع من «كريستوفر هيتشنز» إلى «مايا أنجيلو»، واستشهدت بها «جاي كي رولنج» باعتبارها أكبر مَن أثر عليها ككاتبة.

في عام 1963، كتبت ميتفورد كتابًا بعنوان «الطريقة الأمريكية للموت»[1] الذي لم يكن رؤوفًا على الإطلاق بمديري الجنائز، ورأت ميتفورد الشيوعيَّة المُسجَّلة في حزب سياسي، أن مديري الجنازات ما هم إلا رأسماليون جشعون «دبَّروا للشعب الأمريكي مقلبًا ضخمًا ومروعًا ومكلفًا». وكان كتابها من أعلى الكتب مبيعًا، وظلَّ على رأس قائمة نيويورك تايمز لأفضل الكتب مبيعًا لأسابيع. واستجابةً لكتابها، تلقت ميتفورد آلاف الرسائل من مواطنين شعروا بالغشِّ من قبل صناعة الموت، كما وجدت حلفاء غير متوقعين في أعضاء الطوائف المسيحية، الذين رأوا التركيز على الجنائز الباهظة «طقسًا وثنيًا».

اعترفت ميتفورد على مضض أنَّ هيوبرت إيتون مخترع فورست لاون «ربَّما كان له تأثير أكبر على اتجاهات صناعة المقابر الحديثة أكثر من أيِّ إنسان آخر»، ومن ثم كان رجل الجنائز الذي كرهته أكثر من غيره.

واحتجاجًا على الفساد الذي أحدثته فورست لاون وأمثالها، أعلنت ميتفورد أنَّها تتنازل عن الجنازة «التقليدية» باهظة الثمن عند وفاتها وتختار بدلًا منها الحرق غير المكلِّف. ويمكننا أن نقول إن عام 1963 هو عام حرق الجثث. فقد نُشر كتاب «الطريقة الأمريكية للموت» عام 1963، وكذلك أصدر البابا بولس السَّادس إلغاء حظر الحرق الذي أصدرته الكنيسة الكاثوليكية من قبل، وتكفَّل هذان العاملان بتحويل اتجاه الموت في البلد بأكمله نحو حرق الجثث، فحين ظهر كتاب «الطريقة الأمريكية للموت»، كانت الغالبية العظمى من الأمريكيين

(1) The American Way of Death.

تختار التَّحنيط ثم الدفن، لكن ارتفعت معدلات حرق الجثث بشكل مطرد في السنوات التي أعقبت ذلك، ويعتقد علماء الاجتماع أنَّ 50% من الأمريكيين، إن لم يكن الأغلبية، سيختارون الحرق خلال العقد المقبل.

وعندما ماتت ميتفورد عام 1996، حقق زوجها طلبها وأرسل جثتها إلى الحرق المباشر، حرق متواضع مقابل 475.00 دولارًا أمريكيًّا ودون جنازة ولا حضور العائلة، ثم وضع رمادها في جرة بلاستيكية يمكن التخلص منها. كما رأت ميتفورد، كان الحرق المباشر هو الطريقة الذَّكية وغير المكلِّفة للانتقال من هذه الحياة. أطلق قدامى صناعة الموت، ومعظمهم من الرجال، على هذا النوع من الحرق المباشر «خبز وتحريك» أو «التخلص المباشر»، وكان طلب ميتفورد الأخير هو المسمار الأخير في نعش هذه المجموعة التي كرهت كل شيء نادت به.

ورَغم أنَّ ميتفورد نشأت في إنجلترا، فقد تزوجت من أمريكي في زواجها الثاني وعاشت معه لسنوات في أوكلاند بكاليفورنيا، إذًا من أين حصلت على هذا الحرق المباشر بتكلفة 475 دولارًا؟ حسنًا لقد تسلَّم جسدها صديقنا القديم كريس من ويست ويند لحرق الجثث.

لقد منحني العمل على الماكينة التي حوَّلت جيسيكا ميتفورد إلى رماد شعورًا كبيرًا بالرضا عن موقعي الصغير في تاريخ الموت، كنت أعرف أنني مثلي مثل ميتفورد لا أتَّفق مع الجنائز التقليدية الكبيرة المُكلِّفة، لم تقنعني حالة الحفظ الأبدية أيضًا رغم حماس بروس المُعلن لفن التَّحنيط. ومن المثير للإعجاب بميتفورد أنَّها أول من رفع «ستارة الفورمالديهايد» للتحنيط وكشفت للجمهور أنَّ الشخص الميت العادي وراء الكواليس «يتعرض للرش والجرح والثقب والتخليل والربط والتقليم والدهن والتَّشميع والتلوين ووضع أحمر الشفاه وتلبيس الملابس أنيقة، ليتحوَّل من جثة عادية إلى صورة جميلة لذكرى».

لم تخَف من استخدام تفاصيل حية، لدرجة أنَّ ناشرها الأصلي حذَّرها من أنَّها جعلت الكتاب «أصعب في بيعه بسبب المبالغة في الطول والتفاصيل

اللزجة للغاية لعملية التحنيط». ويُحسب لميتفورد أنَّها غيرت الناشر ومضت قُدمًا.

لكن كلما طالت فترة عملي في ويست ويند، وجدت أنني لا أتفق تمامًا مع ميتفورد، على الرغم من أنني شعرت أنني أخونها بالتَّشكيك فيما قالت، ففي النهاية كانت ملكة صناعة الجنائز البديلة بلا منازع، والفارسة التي تحمي المستهلك، وإذا كان التحنيط والجنائز باهظة الثمن أمرًا سيئًا، فلا بُدَّ أن دعوتها لجعل الجنائز بسيطة وبأسعار معقولة أمرٌ جيدٌ؟

لكنني لم أرتَح لثقافة الموت القائمة على الحرق المباشر وحده، فرغم توفير ويست ويند لخدمات التحنيط والدفن، كان المصدر الرئيس للعمل هو الحرق المباشر للجثث: أي تحويل الجثة إلى رماد بأقل من ألف دولار. والآن برز موقع باي سايد للحرق وخدمة الإنترنت ليُصبح أعظم مُناصرٍ لفكرة ميتفورد في السعي للاستغناء عن مدير الجنائز.

على غلاف نسختي من إعادة الإصدار لكتاب «الطريقة الأمريكية للموت» لعام 1998، تجلس ميتفورد في ممر يوصل إلى ضريح مبنيٍّ فوق الأرض وهي ترتدي بدلة معقولة وتحمل حقيبة معقولة ولا تُبدي تعبيرًا غريبًا لا معنى له. إنَّها نسخة منتصف العمر من المرأة الصَّارمة التي ظهرت في البرنامج التلفزيوني «سوبر ناني[1]»، حيث يستوردون ناني من إنجلترا لتقويم الأطفال الأمريكيين المشاغبين الذين يصرخون بأشياء مثل: «لكن يا ناني، اللحم المقدد خضار أيضًا!».

كان الطابع البريطاني لدى ميتفورد في صدارة وقلب كتاباتها، حيث احتفظت بفخرها بتقاليد مسقط رأسها، التقاليد التي تعني في العصر الحديث القليل من التَّفاعل الثمين مع الجسد وقت الوفاة. ونقلت عن زميلتها الإنجليزية التي تعيش في سان فرانسيسكو والتي حضرت سهرة حداد أمريكية وكان الجسد مكشوفًا فيها: «لقد صُدمتُ بشدة عند وصولي إلى هناك لأجد النَّعش مفتوحًا و«أوسكار» العجوز المسكين يرقد هناك مرتديًا بدلة

(1) Nany: بمعنى مُربية الأطفال.

بنية اللون، وعليه مساحيق تجميل جعلته أسمرَ، والدرجة الخاطئة من طلاء الشفاه، ولولا أني أحب هذا العجوز بشدة، أشعر أنني كنت سأضحك. في تلك اللحظة وذاك المكان قررت أنني لن أتمكن من مواجهة جنازة أمريكية أخرى لا حية ولا ميتة».

تطورت رؤية الجسد المحنَّط إلى درجة أن تكون العُرف الثقافي في الولايات المتحدة وكندا، لكن البريطانيين (على الأقل من بين أقران ميتفورد من الطبقة العُليا) اختاروا التغييب التام للجثة، ويصعُب اختيار العرف الأسوأ من بينهما.

قارن «جيوفري جورر» عالم الأنثروبولوجيا البريطاني، الموت الحديث في بريطانيا بنوع من المواد الإباحية، فإذا كان الجنس والتوجُّه الجنسي من المحرمات الثقافية في العصر الفيكتوري، فالموت والاحتضار من محرمات العصر الحديث. «لقد قيل لأجدادنا إنَّ الناس يعثرون على الأطفال تحت شجيرات عنب الثعلب أو كُرنب، وعلى الأرجح سنقول لأطفالنا إنَّ الموتى يتحولون إلى زهور، أو يرقدون بسلام في حدائق جميلة».

وأثبت جور أنَّ «الوفيات الطبيعية» من المرض والشيخوخة قد استُبدل بها في القرن العشرين «الوفيات العنيفة»، يعني الحروب ومعسكرات الاعتقال وحوادث السيارات والأسلحة النووية. وإن أدى التفاؤل الأمريكي إلى تجميل الجثَّة بالمساحيق والمواد الكيميائية، فقد أدى التشاؤم البريطاني إلى إخفاء الجثَّة وطقوس الموت عن المجتمع المُهذب.

في مقدمة ميتفورد لكتابها: «الطريقة الأمريكية للموت»، صدمني شيئان: الأول كان تصريحها بأن الكتاب لن يتناول «عادات الموت الغريبة التي ما زالت بعض القبائل الهندية تمارسها». وهي بالمناسبة، العادات البعيدة كل البُعد عن كونها غريبة، فقد امتلك الأمريكيون الأصليون طقوسًا غنية للغاية بالموت بما في ذلك طريقة «داكوتا سيوكس» لبناء منصات خشبية يبلغ ارتفاعها ستة إلى ثمانية أقدام ووضع الجثة عليها للتعرض للعوامل الجوية في حفل حداد مفصل. أما الثاني فكان استبعاد ميتفورد القاطع لفكرة أنَّ الجمهور

الأمريكي قد يكون مسؤولًا جزئيًا عن وضع صناعة الجنائز، فهي تقول بثقة: «أنا غير راغبة، على أساس الأدلة القائمة في إثبات أن الجمهور مذنب».

وعلى عكس ميتفورد، أنا راغبة في إدانة الجمهور. راغبة جدًا، في الواقع.

خلال ترتيب جنازة في ويست ويند، نظرت ابنة المرأة المتوفاة بعمق في عيني وقالت: «تخطيط هذا الأمر صعب للغاية، لأن وفاة أمي كانت غير متوقعة فحسب. عليك أن تفهميني، لقد مكثت في دار رعاية المرضى بأمراض عضال لمدة ستة أشهر فقط».

كانت والدة هذه المرأة في الدار (رعاية المرضى في أيامهم الأخيرة) لمدة ستة أشهر، 180 يومًا قبل وفاة الأم بالفعل في منزلك، وقد كنت تعلمين أنَّها مريضة قبل فترة طويلة من دخولها دار الرعاية، فلمَ لمْ تبحثي عن أفضل دور الجنائز في المنطقة، وتقارني بين أسعارها؟ أو تسألي الأصدقاء والعائلة وتطلعي على ما يسمح به القانون؟ أو الأهم من ذلك: تتحدثي مع والدتك حول ما تريده لنفسها حين تموت؟ لقد كانت تحتضر وكنت تعرفين ذلك جيدًا. أجد أنَّ رفض الحديث عما سيحدث بلا شك ثم وصفه بأنه «غير متوقع» ليس عذرًا مقبولًا.

عندما يموت شاب بشكل غير متوقع، ستواجه الأسرة على الأرجح ما أسمته ميتفورد: «ضرورة شراء منتج يجهلونه تمامًا». الموت المفاجئ لشاب مأساة مروعة، ولا ينبغي أن تضطر الأسرة في حزنها إلى القلق من أنَّ دار الجنائز سيستغلها ببيعها تابوتًا أو حزمة خدمات أغلى ثمنًا، لكن أيُّ شخص يعمل في صناعة الموت يستطيع أن يؤكد بسهولة أنَّ أقلية ضئيلة من الحالات تتضمن الموت المفاجئ لشاب، وفي الحقيقة تأتي معظم الوفيات إثر أمراض طويلة أو خطيرة أو حياة طويلة جدًا.

ولو أنني ذهبت إلى ساحة لبيع السيارات المستعملة وأخبرني البائع أنَّ ثمن سيارة هيونداي 1996 هو 45 ألف دولار أمريكي (القيمة السوقية 4.200 دولار أمريكي فقط) واقتنعت بشرائها، فأنا من يتحمل الذنب في هذا الموقف.

وسأبدي غضبي كما أريد من المحتال الكبير الذي باعني الهيونداي مقابل 45 ألف دولار، لكن سيتفق الجميع أنه استغلني لأنني لم أبحث وأستشر.

أقرت ميتفورد بأنَّ الشخص العادي في موقف السيارة سيقرأ تقارير المستهلكين (أو سيتصفح الإنترنت في القرن الحادي والعشرين)، أما إجراء هذا النوع من البحث في صناعة الموت، فلا يبدو طبيعيًا لأن الشخص العادي لا يحب التفكير في الآثار المترتبة على الموت ولأنه «حريص على إنهاء الأمر برمته بسرعة»، ولم تعترض ميتفورد قط على نهج دفن الرأس في الرمال هذا.

يؤكد كتاب «الطريقة الأمريكية للموت» للقراء أنَّ كراهية الموت أمرٌ طبيعي تمامًا: بالطبع أنت حريص على إنهاء الأمر بسرعة ومغادرة دار الجنائز، فمن المؤلم سؤال الناس مقدمًا عمن جربوا من «الحانوتية الموثوقين»، وبالطبع لا تعرف كيف تبدو دار الجنائز أو كيف تعمل. وقد وعدتنا ميتفورد في نثرها اللطيف بأن إنكار الموت لم يكن أكثر راحة فحسب، بل هو الوضع الطبيعي، لقد أحبَّت تمكين الآخرين من ممارسة العادات السيئة.

لكنها كرهت حقيقة أنَّ مديري الجنائز رجال أعمال، ولحسن الحظ أو سوئه هذا هو الواقع، ودور الجنائز في معظم البلدان المتقدِّمة مجرد مؤسسات خاصة قائمة لدرِّ الربح. ولن يجد العاملون في دور الجنائز التابعة لشركات صعوبة في تذكُّر قصص عن الضغط الهائل عليهم لبيع المنتجات والخدمات الإضافية وتسويقها، فقد أخبرني مدير جنائز سابق من إحدى هذه الدور الكبرى أنه عندما مرَّ بشهر سيئ من حيث الإيرادات (ربما لأن زبائنه في ذلك الشهر كانوا عائلات منخفضة الدخل أو لأن عملاءه اختاروا حرق الجثث)، «جاءتني مكالمة مفاجئة من الشركة في تكساس تسأل عما إذا كانت حياتي على ما يرام، وتتأكد من أنني أفهم أنني لن أحصل على مكافأتي».

ولأن ميتفورد كانت صحفية، عرفت بخبرة كيف تُثير الأمور وتكشف عيوب العالم الخفية، ولا شكَّ في أنَّ صناعة الجنائز الأمريكية كانت بحاجة إلى تغيير، لكن ما حلَّ بها كان سياسة الأرض المحروقة، فقد أشعلت ميتفورد

عود ثقاب ورمته خلف ظهرها، وابتعدت. وفي أعقاب وفاتها، تركت جمهورًا ساخطًا يطالب ببدائل أرخص للجنائز.

في كتابتها، لم تحاول جيسيكا ميتفورد تحسين علاقتنا بالموت، بل حاولت تحسين علاقتنا مع السعر، وهنا جانبها الصواب. لقد خدعت صناعة الجنائز العامة في الموت وليس المال: في التفاعل الواقعي مع الموت وفرصة مواجهة حقيقة أننا إلى فناء، ورغم جميع النَّوايا الحسنة التي حركت ميتفورد، لم يزد الحرق المباشر للجثث الطين إلا بلة.



طبيعي غير طبيعيٍّ

صرخت بلهجة أوروبية شرقية ثقيلة: «كيف تجرُئين على محاولة جعلنا ندفع هذا المبلغ؟»

حاولت أن أشرح: «أنا آسفة، سيدة «إيونيسكو»، لكن علينا أن نحصل منك 175 دولارًا».

جلست السيدة «إيونسكو»، ابنة الراحلة «إيلينا إيونسكو»، أمامي في مكتب الترتيبات في دار ويست ويند، وشعرها البني الكثيف يتصاعد بشكل حلزوني على جانب رأسها، ويدها المُحمّلة بأسورة ذهبية، تلوح بجموح.

قالت: «إنكِ تحاولين ابتزازنا. أنا لا أفهم لماذا تفعلين هذا! جئت لرؤية أمي مرة أخيرة فحسب».

لو كانت هذه هي المرة الأولى لي في مباراة «المرة الأخيرة»، لربَّما استسلمت لمطالب هذه المرأة. لكنني أعلم أنَّ مايك لن يحب إلغاء الرسوم لمجرد أنني أتمنى تجنُّب المواجهة. من الشائع أن يرغب الأهل في «رؤية أمي للمرة الأخيرة» قبل حرق جثتها أو دفنها، ولم يرغبوا في دفع 175 دولارًا مقابل هذا الامتياز، وشرح سبب اقتراحنا هذا صعب جدًا.

الموتى يبدون أمواتًا جدًا جدًا. من الصعب فهم معنى هذا، لأن احتمالية أن يصادف أحدنا قطيعًا هائمًا من الجثث في البرية ضعيفة، نحن نعيش في عالم يندُر أن يموت فيه الإنسان في منزله، وإن حدث فسيُنقل إلى دار الجنائز في اللحظة نفسها التي يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة، وحين يرى أحد سكان

أمريكا الشمالية جثة ميتة، فعلى الأرجح تكون مُحنَّطة ومُهندمة وتلبس أفضل الملابس بفضل موظف جنائز.

ونادرًا ما تساعد برامج الجريمة المتلفزَة في هذا الصدد، فحين تُعرض الجثث على شاشة التلفزيون في أوقات الذروة، بعد أن تكتشفها إحدى الخادمات وعامل الصيانة وشخص يركض في سنترال بارك، تبدو كما لو أنَّها مُعدة بالفعل لحفل جنائزي، حيث تُغلق أعينهم وتُلصق شفاههم ببعضها بعضًا، ويتوهَّج منها اللون الأزرق المائل إلى البياض، وهي المساحيق التي نفهم منها نحن المشاهدين أنَّ هذا «ميت». يُعَد تمثيل هذه العروض باستخدام عارضين وممثلين شُبان يحاولون شق طريقهم نحو مسلسلات مثل CSI وLaw & Order أثناء انتظار دعوتهم لتجربة أداء، إنهم بعيدون كلَّ البعد عن غالبية الجثث التي نراها في دور الجنائز التي تكون: مسنَّة، وشعثاء ومدمَّرة بفعل سنوات من الإصابة بأمراض مثل: السرطان وتليُّف الكبد.

كانت هناك فجوة كبيرة بين ما تتوقعه عائلة إيونيسكو وما ستحصل عليه بالفعل إذا أخرجنا إيلينا مباشرة من وحدة التبريد لزيارة أسرتها المنتظرة، وأصبحت هذه الفجوة مشكلة لدور الجنائز بسبب تهديد الأهالي المستمر برفع دعوى قضائية حين لا يبدو الجسد بالشكل الذي يتوقعونه، ومن الصعب بالطبع أن نُشفق على صناعة الجنائز، لأن ظهور التَّحنيط هو ما خلق هذه الفجوة من الأساس.

يبدو وجه الميت دون علاج مرعبًا، على الأقل من وجهة نظر توقعاتنا الثقافية الضيقة جدًا، فجفونهم مرتخية وأعينهم غائمة وشاخصة بنظرة خاوية، وأفواههم فاغرة[1] تشبه لوحة الصرخة لإدوارد مانش. ووجوههم قد تسرَّب منها لونها وأصبحت باهتة، وهذه الصور تعكس العمليات البيولوجية الطبيعية للموت، لكنها ليست ما تريد الأسر رؤيته، لذا تضع دور الجنائز على قوائم أسعارها ما يتراوح بين 175 دولارًا و500 دولارٍ مقابل «ضبط الملامح»، وهكذا تبدو الجثث «مُطمئنة» و«طبيعية» و«مرتاحة».

---

(1) فاغر فاه أو أفغر فاه: فتح فمه. – المترجم.

أمَّا الحقيقة القاسية فهي أنَّ إيلينا إيونسكو التسعينيَّة من أصل روماني، أقامت في المستشفى لأكثر من شهرين قبل وفاتها، وأدى مجموع الاستلقاء في الفراش لمدة ثمانية أسابيع والاتصال الدائم بالقطرات الوريدية والأجهزة إلى انتشار الوذمة في جسد إيلينا بأكمله، وهي حالة تصيب الجسم بعد الوفاة يتضخم فيها السَّائل تحت الجلد، كانت منتفخة مثل رجل ميشلان[1] بعد أن استولت الوذمة على الأجزاء السفلية من ساقيها وذراعيها وظهرها، لقد تسرب السائل من جلدها، والأسوأ أنَّ الرطوبة الغامرة الناتجة عن الوذمة قد عجَّلت من عملية التحلل.

وعندما يبدأ التحلل وتكثر السوائل الزائدة، يصبح «انزلاق الجلد» المُخيف احتمالًا حقيقيًا، اسمه التقني هو التقشُّر، ولكن من الناحية العملية يطلق عليه اسم انزلاق الجلد، وهو عبارة يمكن أن تسجَّل في الملكية الفكرية كما ترى، تسببت عملية التحلل في تراكم الغاز وازدياد الضغط داخل إيلينا وارتخاء جلدها وتحرر الطبقة العليا من الجلد عن الجسم كأنَّها تريد إخلاء السفينة، إذا حدث هذا الموقف لشخص حي، فسوف ينمو الجلد ويتجدد في النهاية، لكن بالنسبة إلى إيلينا، كان هذا هو الحال: حتى حرق الجثة، ستبقى بشرتها طازجة وردية اللون ومغطاة بطبقة رقيقة من المخاط.

كان من الآمن الجزم بأنَّ جسد إيلينا لن يبدو كما تخيلت ابنتها الغاضبة. ومع ذلك، لا تملك ويست ويند لحرق الجثث ودفنها أي حق على الإطلاق في حبس إيلينا إيونسكو في ثلاجتها، فالجثث، بموجب القانون، هي شبه ملكية، وتمتلك عائلة إيلينا جثتها إلى حين دفنها أو حرقها. وهو ما يقودنا إلى سبب شائع آخر لمقاضاة دور الجنائز، حيث ظهرت دعاوى قضائية بدعوى احتجاز بعض مديري الجنازات الأخساء جثة بشكل غير قانوني لضمان تسديد الأسرة لمستحقاتهم.

فلو قالت ابنة إيلينا: «سلميني إياها في التوِّ واللحظة، سأضع والدتي في المقعد الخلفي من سيارتي وآخذها من هذا المكان الذي لا يعرف ربنا»،

(1) الشخصية الإعلانية لشركة إطارات السيارات الفرنسية "ميشلان". – المترجم.

لفعلت ذلك دون طرح أي أسئلة، بل إنني مررت بحالات كنت لأشيد فيها بمثل هذا القرار.

سددت رميتي الأخيرة قائلة: «آنسة إيونسكو، أنا آسفة. يحق لكِ تمامًا الذهاب إلى مكان آخر، وأنا أحضُّك على السؤال عبر الهاتف في أماكن أخرى، لكنني أعتقد أنك ستجدين مبلغ 175 دولارًا نفسه أينما ذهبت في المنطقة».

أجابت: «أعتقد أننا لا نملك خيارًا، أليس كذلك؟»، ثم مدت يدها للتوقيع في أسفل العقد فطرقت خواتمها ببعضها بعضًا.

بعد ساعتين، وُضعت إيلينا إيونسكو أمامي على طاولة غرفة التَّجهيز، وهي على وشك أن تُصبح طبيعية لتراها الأسرة في اليوم التالي، ومن الأسرار التي لم تكتمها جيدًا صناعة الجنائز أنَّ العمليات المُستخدمة لجعل الشخص يبدو طبيعيًا غالبًا ما تكون غير طبيعية على الإطلاق.

وقفت أمام نفس الخزَّانة المعدنية حيث سلَّمني مايك قبل عدة أشهر ماكينتين، الأولى لحلاقة الجثث، أخرجت «أغطية للعين» تبدو مثل سفن فضاء بلاستيكية صغيرة، على شكل دائرة ولونها لون الجلد، وجعلتها المسامير الصغيرة التي تبرز من البلاستيك تبدو كأنها أداة تعذيب مصغرة من عصر محاكم التفتيش. كان الغرض من أغطية العين ذا شقين: أولًا عند وضعها تحت جفن إيلينا ستبدو عيناها مستديرتين، وتخفي مقلتَي العينين الهابطتين المسطحتين تحتهما، وثانيًا أدت مسامير التعذيب وظيفة مهمة تتمثَّل في إمساك الجفنين من الخلف، ومنعهما من الارتفاع بغمزة بعد الوفاة.

وباستخدام أعواد الأذن والقطن نظَّفت أنف وأذني وفم إيلينا، وهي مهمة مزعجة للغاية، فغالبًا ما تُتجاهل النظافة الشخصية في نهاية الحياة. منطقي، لكن السبب المنطقي لا يخفف من شناعة العواقب، عند تحريك الجثة ثمَّة دائمًا احتمالية الانفجار المفاجئ «للإسهال»، سائل رغوي بني به حُمرة يُزال من الرئتين والمعدة، لم أحسد الممرضات، فمرضاهم الأحياء ينتجون هذه السوائل البغيضة كل يوم.

دون أطقم الأسنان التي تركتها منقوعة في كوب بجانب سريرها في المستشفى، انثنت شفتا إيلينا على اللثة الفارغة للتصدي لهذا، استخدمنا أداة تشكيل الفم، وهي قطعة بلاستيكية منحنية تشبه غطاء العين لكن أكبر (على شكل فم)، أرفع شفتها العليا برفق لإدخال أداة تشكيل الفم، لكن الجهاز كان كبيرًا جدًا على المرأة المُسنة، لقد جعلتها تبدو كقرد، أو لاعب كرة قدم أمريكية يرتدي واقي الفم. فزعت وأخرجتها بسرعة وعملت على قصها بمقص قوي.

بعد ذلك جاء دور حاقن الإبر، وحاقن الإبر هو مسدس لإغلاق الفم، وهو جهاز معدني يُستخدم لإطلاق الأسلاك في لثة المُتوفى لربطها معًا وإغلاق الفم. بدأت باختيار دبوس حاد في نهايته سلك طويل، وضعته في طرف إبرة معدنية كبيرة، دورها هو إطلاق الدبوس في اللثة العلوية والسفلية، كان حاقن ويست ويند من نوعية رديئة إلى حد ما وصدئًا بعض الشيء، ولم يحق بمستوى الجاذبية الذي يرغب فيه المرء، كان هذا يعني أنه كان عليَّ أن أتسلق فوق إيلينا وأستخدم وزن جسدي بالكامل لحقن الأسلاك.

ولأن إيلينا في سنِّ التسعين فهي تفتقر إلى الحجم المناسب للثة، ما استلزم عدة محاولات لتثبيت الشوكة في مكانها، وبمجرد استقرار الأشواك في مكانها، يُلفُّ ذيل السلك معًا بعد لفه حول بلاستيك أداة تشكيل الفم، وبذلك يجتمع الفك العلوي بالسفلي.

وإذا فشلت كلُّ هذه الحيل وأصرت العينان أو الفم على الانفتاح، فهناك دائمًا السلاح السري: الصمغ القوي. لقد استخدمنا تلك الأنابيب الخضراء الصَّغيرة من السائل السحري في كلِّ شيء، وحتى إن حدثت معجزة وعملت أغطية العين وحاقن الإبرة كما ننشد، فمن الحكمة تعزيزها بالصمغ كذلك. فلا تريد الأسر رؤية العينين الزرقاوين اللبنيتين واللثة المكشوفة، لكنها أقل رعبًا من ظهور البلاستيك المُسنن ذي لون الجلد أو الأسلاك الحديدية السميكة التي تحفظ الآن وجه أحبائها سليمًا.

بمجرد أن استسلمت عائلة إيلينا إيونسكو لدفع رسوم النظرة الأخيرة، أحضِروا إلى ويست ويند بطقم ملابس حتى نتمكن من تجهيز إيلينا لزيارتها.

لكن لم تتورم إيلينا إلى ضعف حجمها الطبيعي فحسب، بل جلبت عائلتها مثلما تفعل الكثير من العائلات، ملابس من ماضيها الأنيق الرشيق. لا بُدَّ أنَّ هناك سببًا لامتلاء صفحات النعي بالصحف بلقطات ساحرة وصور زفاف وصور للحفلات الرسميَّة من قديم الزمان. نريد أن يظل الناس في أفضل حالاتهم إلى الأبد، تخيل كيت وينسلت وهي تلتقي بخديها الورديين الجميلين، بليوناردو دي كابريو في جثة تيتانيك بعد عقود من غرق السفينة.

كان على مايك مساعدتي في ضغط إيلينا في ثوبها الأوروبي الشرقي الفخم من عصر الانفتاح السوفيتِّي، وكان يملك حقيبة من الحيل المفيدة، على سبيل المثال: لف ذراعيها بالبلاستيك كمومياء من خمسينيات القرن الماضي، لكن الرحلة لم تكتمل بعد، فكقاعدة عامة إذا طلب منك أيُّ شخص وضع جوارب على امرأة رومانية متوفاة تبلغ من العمر تسعين عامًا تعاني من وذمة، فيجب أن تُجيب بـ «لا».

قلت بتنهيدة: «مايك! نعلم أنَّ نصفها السفلي سيكون مغطى بالملاءات أثناء الزيارة، أكره أن أقول ذلك، لكن ربَّما يمكننا التخلي عن الجوارب».

لكن مايك الذي تُحسب له مهنيته، لم يقبل.

- لا، لقد دفعت الأسرة ثمن الملابس والرؤية يا رجل، يمكننا إلباسها هذا.

ازدهرت تجارة صناعة الجنائز من خلال بيع نوع معين من «التكريم»، والتكريم هو لحظة أخيرة مُنسَّقة للعائلة، ولا تكتمل إلا بجثة منسقة جيدًا. ويتحوَّل مديرو الجنازات إلى مديري المسرح، ويُخرجون عرض هذه الأمسية. الجثة هي نجمة العرض وتُبذل الجهود وتُحتمل الآلام في سبيل ضمان عدم خرق الجدار الرابع[1]، وأنَّ الجثة لن تتفاعل مع الجمهور وتُفسد الوهم.

حتى إنَّ شركة Service Corporation International، وهي أكبر شركة أمريكية لدور الدفن والمقابر ومقرها هيوستن بولاية تكساس، تمكَّنت من تحويل التكريم إلى علامة تجارية لها. زُر أيًّ من مرافق «Dignity

---

(1) الجدار الرابع: هو جدار متخيل يفصل الممثلين عن الجمهور فلا يرونهم. – المترجم.

Memorial®» التابعة لها وستظهر لك هذه العلامة المزعجة «®» في كلِّ مرة، لتخبرك بمهارة أنهم حاصروا سوق فترة ما بعد الوفاة.

في زيارة إيلينا في صباح اليوم التالي، شدت ابنتها شعرها وناحت حزنًا، لقد كان صوتًا حقيقيًا سيُطاردني وأردت أن أستوعبه وأبذل له التقدير الملائم لأنه صوت عميق. لكن كل ما استطعت التركيز عليه هو الخوف الشديد من أن تنفتح عين أو أن يتفجَّر تسرُّب من الذراع الملفوف بالبلاستيك. بدت إيلينا جميلة جدًا بالنسبة إلى الظروف، ومع ذلك شعرت بهزلية الموقف. يقولون إنك حتى لو وضعت أحمر الشفاه لخنزير سيظل خنزيرًا، وينطبق الشيء نفسه على الجثة، ضع أحمر الشفاه للجثة وستكون قد لعبتِ لعبة تلبيس الجثة فحسب.

في الإثنين التالي لزيارة إيلينا إيونيسكو، أتيت للعمل لأجد أنه خلال عطلة نهاية الأسبوع، تغيَّرت أرضيتا كلتا ماكينتَي الحرق ورُكبت لهما أرضيتان جديدتان رائعتان، ناعمتان كخدَّي طفل. لقد ظهر خلال العطلة جو، صاحب محرقة الجثث لفترة وجيزة وزحف داخل الفرن ومعه خرسانة وحديد مُسلَّح وشجاعة فولاذية لإكمال المهمة بنفسه. ضع في اعتبارك أنني لم ألتقِ به من قبل، وقد غذَّى مشروع عطلة نهاية الأسبوع هذا صورته الأسطورية في مخيَّلتي لأنني لم أتصور أنَّ حيًا سيزحف (طواعية)! ليدخل فرن حرق الجثث. وقبل ظهوره كانت الأرضيات قد أشبهت تضاريس جبال الألب، حيث انخلعت قطع كبيرة من الخرسانة إثر سنوات من الاستهلاك، وبمثل هذه الحالة أصبح تنظيف الأرضيات من العظام والرماد كاختيار للبراعة والإرادة التي لم تُذكر في الوصف الوظيفي، ومع هذه الأرضيات الجديدة يمكنني أن أُخرج العظام بضربات رشيقة ناعمة ودون أن يندى لي جبين.

مَرَّ اليوم الأول للآلات ذات الأرضيات الجديدة دون أحداث، وبدأ اليوم الثاني معي بإدخال السيدة «جرايهاوند»[1]. وعلى نقيض ما يوحي به لقبها الأنيق، كانت السيدة جرايهاوند امرأة ممتلئة في الثمانينيات من عمرها، وقد

(1) Greyhound هي سلالة من كلاب الصيد والسباق المشهورة بنحافة أجسادها.

ذكَّرني شعرها الأبيض المجعد ويداها الناعمتان بجدتي لأبي، التي عملت معلمةً في مدرسة من فصل واحد في بلدة صغيرة بولاية أيوا وربَّت سبعة أطفال وصنعت لفائف القرفة من الصفر.

في إحدى إجازات الصيف وأنا طفلة قمت بزيارتها في ولاية أيوا واستيقظت في منتصف الليل لأجدها تبكي في غرفة المعيشة المظلمة لأنها أدركت «أنَّ هناك أشخاصًا لا يعرفون حب يسوع». ماتت جدتي قبل ما يقرب من عشر سنوات من بدئي العمل في ويست ويند، لكن لم يتمكن سوى والدي وحده من العودة لولاية آيوا لحضور جنازتها، كان من السهل أن ترى جدتك في أشخاص... أو بالأحرى جثث... مثل السيدة جرايهاوند.

باستخدام المبادئ الأساسية لحرق الجثث، أدخلتُ السيدة جرايهاوند في بداية اليوم فيما لا يزال الفرن باردًا، فقد احتجنا إلى أن تكون غرف الحرق الحجرية باردة في الصباح لاستيعاب رجالنا ونسائنا الأكبر حجمًا وإلا سيحترق اللحم بسرعة كبيرة، ويصعد من المدخنة في شكل دخان أسود كثيف يجلب انتباه إدارة الإطفاء، يُحرق أصحاب الدهون الزائدة في الجسم (مثل: السيدة جرايهاوند الممتلئة) أولًا، فيما تُحفظ السيدات الأكبر سنًا والأصغر بدنًا واللاتي لا يملكن دهونًا (والأطفال) بوجه عام في نهاية اليوم.

أدخلت السيدة جرايهاوند في الفرن البارد وانشغلت بأعمالي الصباحية المعتادة، وحين عُدت لها بعد لحظات، رأيت دخانًا يتصاعد من الباب، دخانًا أسود متلاطمًا، أطلقت صيحة «تقييم حالة الطوارئ»، وهي صوت بين الاختناق والصُراخ، وركضتُ لإحضار مايك من مكتبه.

قال بعين ثابتة: «يا إلهي، الأرضية!».

انطلقنا أنا ومايك صارخين في هلع نحو المحرقة. وفي اللحظة نفسها، من المنزلَق الذي نجرف منه العظام، فاضت الدهون المنصهرة وتدفقت، فسحب مايك حاوية تجميع العظام، التي تقارب حجم صندوق حذاء كبير، لتتجمع بركة، ما بلغ في تقديري جالونًا من السائل غير الشفاف، واستمرَّ

السائل في الهطول فانطلق كلٌّ منا على استبدال الحاوية تلو الحاوية عند طرف منزلق العظام كما لو كنا نفرِّغ الماء من قارب مثقوب.

ركض مايك بالحاويات إلى غرفة التجهيزات ليسكب الدهون في المصرف نفسه الذي يذهب إليه الدم الناتج عن عملية التحنيط. في هذه الأثناء، نزلت أنا على الأرض مع كومة من الخِرق القماشية لامتصاص الدهون وأمسحها بينما ظلت تهطل، ظلَّ مايك يعتذر، وهذه هي المرة الأولى التي يعتذر فيها مايك على أي شيء طوال فترة عملي في المحرقة، بل كان على وشك التقيؤ بعد الجولة العاشرة وليست الأخيرة، من الدخان، والحرارة، والمسح، والتنظيف.

قال بصوت مهزوم: «إنَّها الأرضية».

فقلت: «الأرضية؟ أرضية الفرن الجديدة الجميلة؟»

فأجاب: «كان في الأرضية القديمة الكثير من الحُفر التي أمكن للدهون التجمُّع فيها ثم ستحترق لاحقًا مع الحرق. الآن لا يوجد مكان تذهب إليه، لذا فهي تنزلق إلى الخارج من الباب الأمامي».

حين أصبح الوضع تحت السيطرة أخيرًا، نظرت إلى الأسفل لأجد ثوبي ملطخًا بالدهن البشري الدافئ (تساءلتُ هل هذا اللون يا تُرى سيينا مُحترقة، أم أنه أقرب للأصفر القاتم)؟ كنت متعرِّقة ومُنهكة ومغمورة بالشحم، لكنني شعرت أنني على قيد الحياة.

يُفترض أن يكون حرق الجثث هو الخيار «النظيف»، حيث تُطهَّر الجثث بالنار وتتحول إلى كومة من الرماد غير المؤذي، لكن السيدة جرايهاوند لن تُحرق دون مقاومة، كما قال ديلان توماس في تلك الليلة الجيدة[1]. لم ننجح في جعل التخلص منها نظيفًا، رغم الكثير من أدوات صناعة الموت الحديثة، والآلات الصناعية التي تُكلف مئات الآلاف من الدولارات، لم أكن متأكدة من أننا يجب أن نبذل كل هذا الجهد لتحقيق الموت المثالي. في النهاية، يعني «النجاح» استخدام الكثير من البلاستيك والأسلاك لتقديم الجثة المثالية لإيلينا

(1) إشارةً إلى أغنية «Do not go gentle into that good night» للفنان المذكور.

إيونيسكو، ويعني النجاح أن يتسلَّم جثث الموتى من عائلاتهم محترفون، وظيفتهم ليست إقامة الطقوس، بل التشويش وإخفاء حقيقة الجثث وما تفعله الجثث. بالنسبة إليَّ، فجرت السيدة جرايهاوند حقيقة الأمر كضوء الشمس: يجب أن يكون الموت معروفًا، يجب أن يُعرف بأنها عملية عقلية وجسدية وعاطفية صعبة، وأن يلقى الاحترام والخشية اللذين يستحقهما.

سأل مايك من فوق رأسي: «يا إلهي! هل تحتاجين إلى بدلٍ للتنظيف الجاف أو شيء من هذا القبيل؟».

قهقهتُ بلا حول ولا قوة وأنا جالسة على أرضية المحرقة في ثوبي الملطَّخ بالدهون، وساقاي ممدودتان أمامي وتحيط بي الخرق القماشية، لقد كانت لحظة التقاط الأنفاس. قلت: «أعتقد أنَّ هذا الفستان انتهى يا رجل، يمكنك أن تشتري لي غداءً أو شيئًا من هذا القبيل.. اللعنة».

لقد بثَّ ما حدث للسيدة جرايهاوند في نفسي الرُّعب، لكن سأكون كذابة لو وصفت التجربة بأي شيء أقل من «مبهجة»، فالاشمئزاز والاندهاش وجهان لعملة واحدة.

لقد مكَّنني عملي في ويست ويند من الوصول إلى مشاعر لم أكن أعرف أنني قادرة على الشعور بها، لقد بدأت في الضحك أو البكاء حين تسقط مني قبعة سخيفة، كنت أبكي ولا يهم ما أبكي لجماله أكان غروب شمسٍ استثنائيًّا أو عداد موقف السيارات.

شعرت كما لو كنت أعيش حياةً حتى هذه اللحظة قد قضيتها بنطاق ضيق من الأحاسيس، أتنقَّل بينها ذهابًا وإيابًا مثل كرة الطائرة. في ويست ويند، سقطت جدران النطاق العاطفي القديم، فشعرت بالنشوة والقنوط كما لم أشهدهما من قبل.

أردت أن أصعد جبلًا وأصرخ بما تعلَّمته في ويست ويند، أريد أن أُطلق تذكرة بالموت كل يوم بنبرة أكثر وضوحًا من اليوم الذي سبقه. أحيانًا أشارك قصَّة الدُّهون المنصهرة مع مجموعة مختلطة أو بعض الحكايات الأخرى التي

تسبب الإحراج مما تعرضت له في المحرقة، وفي كلِّ مرة يطلق الناس رد فعل مصدوم، لكنني شعرت مع الوقت بأنني أقل ارتباطًا بنفورهم، فأشد القصص بشاعة كطحن العظام في خلاط معدني أو أغطية العين ذات المسامير، تُربك ادعاء الناس بالتسامح مع الموت، وقبول الحقيقة بدلًا من إنكارها هو المعرفة الرحبة الحقيقية، مهما كانت مثيرة للاشمئزاز في بعض الأحيان.

واحسرتاه، أيها المسكين يوريك



هناك الكثير من الكلمات التي تتوق المرأة في الحب إلى سماعها، مثل: «سأحبك إلى الأبد يا حبيبتي» و«هل سنشتري خاتم الزواج هذا العام؟» لكن انتبهوا أيها العُشاق الصِّغار: قبل كلِّ شيء، العبارة التي تريد كلُّ فتاة حقًا سماعها هي: «مرحبًا، هذه آمي من معهد ساينس سابُّورت، أنا هنا لتسليم بعض الرؤوس».

لقد ارتبطت ويست ويند بعقود ممتدة لحرق الجثث مع منشأتين للتبرع التشريحي، وساينس سبُّورت إحداهما، لذا أنهى عشرات من سكان كاليفورنيا المحظوظين الذين تبرعوا بأجسادهم لعمليات الوخز والهمز بغرض البحث العلمي الجيد، رحلتهم بين يد رعايتي النارية.

بعد المكالمة الهاتفية من آمي، عبرت شاحنة بوابة في ويست ويند وتوقفت بجانب المدخل الخلفي إلى المكان الذي يُفرغ فيه كريس شحنته اليومية من الجثث، انفتح الباب الخلفي وأخرج شابان رأسيهما ونظرا حولهما بريبة: «نعم يا سيدتي مساء الخير! نحن من ساينس سبُّورت ونحن هنا ومعنا... آه... رؤوس».

مهما كثرت زيارات شاحنة النقل إلى ويست ويند، لم يفقد سائقو ساينس سبُّورت قط خشيتهم من المكان، ولم يطيقوا الوقت الذي يستغرقه إنزال حمولتهم والخروج من المحرقة بسرعة، وقد شعرت بالفخر لأن «قدامى السائقين شديدي البأس» شعروا بالرهبة من محل عملي الطبيعي.

تعتبر ساينس سبُورت ببساطة سمسار جثث، حيث تستقبل جثثًا كاملة يتبرع بها أصحابهم ثم تقسِّمها وتبيع أعضاءها كما تفعل ساحة الخردة بالسيارات القديمة، وهي ليست الوحيدة في هذه اللعبة سمسرة الجثث، إذ تعمل العديد من الشركات الكبرى في هذا المجال المروِّع (لكنه قانوني تمامًا).

وللتبرُّع بالجسد للعلم العديد من الإيجابيات، ففي مشهد الموت الحديث، يعتبر التبرع بالجسد الطريقة الوحيدة المؤكدة لضمان ألا يُكلِّف أحدًا موتك شيئًا. فعند وفاتك، ستأخذ ساينس سبُورت جثتك، وتنقلك إلى منشآتها، وتستخدمك في علاج السرطان (ملاحظة: قد تختلف النتائج)، ثم تدفع رسوم حرق جثتك إلى ويست ويند.

في الواقع، يُستخدم جسمك في الخطوط الأمامية للبحث الطبي. فمثلًا، توفي جدي بعد نوبة طويلة ومرهقة مع مرض الزهايمر، تضمنت إحدى ليالي عيد الميلاد التي لن ننساها بعدما تمكَّن من سرقة مفاتيح السيارة في منتصف الليل واختفى لمدة سبع ساعات في وسط مدينة هونولولو. صباح عيد مرعب عليك أيضًا أيتها العائلة، فلو أمكن للرؤوس المتبرع بها لمرضى الزهايمر، بأدمغتها التي تحتوي على اللويحات والتشابكات التي حوَّلت جدي إلى شخص غريب أن تقلل من معاناة العائلات الأخرى، فرأيي أن نضرب أعناق جثثهم في الحال.

لكن لسوء الحظ، لا تصل كلُّ جثة إلى ما يمكن اعتباره «نهاية نبيلة»، فهناك احتمال ضئيل أن يكون رأسك الذي تبرعت به هو الرأس الذي يحمل مفتاح حل ألغاز الأوبئة العظيمة في القرن الحادي والعشرين، فقد يستخدم جسمك في نهاية المطاف في تدريب مجموعة جديدة من جراحي التجميل في بيفرلي هيلز على فنِّ شدِّ الوجه، أو يلقى من طائرة لاختبار تقنية جديدة في المظلَّات، إنَّك تتبرع بجسمك للعلم بمفهومه العام والواسع، أما ما سيفعله العلم بأعضائك فلا يعود لك.

لقد قطع استخدام الجثث في التَّقدم العلمي شوطًا طويلًا خلال الأربعة قرون الماضية، ففي القرن السادس عشر مُورِس الطب بفهم ضعيف لكيفية

عمل جسم الإنسان على الحقيقة، وأساءت النصوص الطبية فهم كلِّ شيء من كيفية تدفق الدم في الجسم إلى مواقع الأعضاء الحيوية، إلى سبب الإصابة بالمرض من البداية (الإجابة المقبولة: اختلالات في «أخلاط» الجسم الأربعة: البلغم والدم والصفراء والسوداء).

وقد عبَّر فنان عصر النهضة أندرياس فيزاليوس عن استيائه من تعلُّم طلبة الطب علم التشريح البشري عن طريق تشريح الكلاب، وأنهم انتشلوا سرًّا جثث المجرمين بعد شنقهم. ولم تحصل كليات التدريب الجراحي بصورة منتظمة على جثث بشرية للتدريس والبحث حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد ارتفع الطلب على الجثث لدرجة أن الأساتذة سرقوا الجثث الجديدة بنبشها، أو كما فعل ويليام بيرك وويليام هير في اسكتلندا القرن التاسع عشر، قتلوا الأحياء (ستة عشر شخصًا) وباعوا جثثهم ليستخدمها مُحاضرو مادة التشريح عام.

سحب الرجلان القادمان من ساينس سبُّورت صندوقًا كبيرًا من مؤخرة شاحنتهما، وفي الصندوق رأسان بشريان، مُحاطان بعبوات ثلج ملآنة بحبوب هلامية صغيرة تُشبه آيس كريم Dippin 'Dots. وبمجرد أن وقَّعت على استلام الشُحنة أغلق المُحترمون باب الشاحنة وسمعت صريرَ عجلاتها الهاربة من ساحة الانتظار، هذه هي عملية الاستلام النموذجية. أحضر الزملاء من ساينس سبُّورت بانتظام شُحنات من الجذوع والرؤوس والأحشاء المتنوعة الأخرى، وقد وصلتنا ذات مرة أيضًا ساق منفردة، لكن لم تكن من ساينس سبُّورت.

يسأل مايك: «يا كيتلين، أترين تلك الساق المنفردة في الثلاجة؟»

وبعد ستة أشهر من العمل معه، أمكنني التمييز بدقة بين مايك الذي لا يتحدث إلا عن العمل، ومايك الذي يسألني بصدق عما إذا كنت قد رأيت الرجل المذكورة أعلاه، ومايك الساخر الظريف الذي سيبتسم في التوِّ أصغر ابتسامة ممكنة.

- لا يا مايك، لم أرَ هذه الساق التي تتحدث عنها، هل هي ساق من ساينس سبُّورت؟

قال: «لا يا رجل، السيدة على قيد الحياة. لقد بُترت أمس، مرض السكري على ما أعتقد». واتصلت لترى هل بإمكاننا حرق ساقها فقط، هذه أغرب مكالمة تأتيني، جلبها كريس من المستشفى هذا الصباح.

أجبت: «تحرق ساقها فقط؟ إذًا هل تقول لي إن هذا حرق مبكر؟»

كافأني مايك على مزحتي بإيماءة على الضحك.

- حرق مبكر، هذه مزحة جيدة تذكرني بالرجل الذي جاءنا من سان خوسيه الأسبوع الماضي، ذاك الذي أضرم النار في نفسه بسيجارته، حرق مبكر.

هز رأسه والتفت إلى الكمبيوتر.

نقطة للدعابة الجنائزية جيدة التوقيت، أمضيت شهورًا أحاول إقناع مايك بنباهتي الإيجابية تجاه الموت، لكنه بدأ الآن فقط في الوثوق بي كوميديًا.

تعود الرؤوس الموجودة في صندوق ساينس سبُّورت الذي وصل حديثًا لمحترم يبلغ من العمر ثمانين عامًا وسيدة تبلغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا، على الترتيب. وجاء كل رأس ومعه ورقة تعريفية طويلة، لم تذكر الأوراق أسماءهم أو من أين أتوا، لكنها قدَّمت قائمة طويلة بالحقائق المضحكة غير الضرورية مثل: الرأس رقم 1 لديه حساسية من المحار والطماطم والمورفين والفراولة، والرأس رقم 2 مصاب بسرطان المخ وعرضة للإصابة بحمى القشِّ.

ثمَّة فرصة ضعيفة لأن الرأسين كانا يعرفان بعضهما بعضًا في الحياة الواقعية، لكنني أحببت أن أتخيلهما عاشقين فرَّقت الحرب بينهما، ربَّما كانت إحدى الحروب الصليبية، بدت الحروب الصليبية كأنها خلفية رومانسية غارقة في العنف لهذا النوع من الأشياء، وربما كانا من ضحايا شفرة مقصلة واحدة خلال الثورة الفرنسية، أو ربَّما كانا من المغامرين الأمريكيين الأوائل، فهل نُزعت جلودهما؟ سحبت أكياس الثلج الهلامية لألقي نظرة خاطفة عليها. لا، لا، فروة الرأس سليمة. أيًا يكن، ها هما في طريقهما معًا نحو المحرقة الأبدية.

مترددة، ألقيت نظرة خاطفة على صندوق الرؤوس، لعبت برأسي فكرة عدم فكِّ غلافها، يمكن أن أدخلها مباشرة في محرقة الجثث، أليس كذلك؟ ظهر مايك الذي لا تغفل عينه عني، خلف كتفي وقال: «يجب أن تنزعي عبوات الجل هذه؛ ليست جيدة للفرن».

سألت: «ألن يتعين عليَّ إخراج الرؤوس لفعل ذلك؟»

قلت: «نعم، حسنًا لنرى أي نوع من النساء أنتِ».

وعقد يديه.

التفت كريس عن مهمته: تجميع حاوية جثة من الورق المقوى بمسدس الشريط اللاصق، كل الأعين معلقة عليَّ، صناديق الرؤوس تجمع شعب ويست ويند على قلب رجل واحد.

سحبت رأس الرجل بحذر شديد (رقم 1 لديه حساسية من المحار والطماطم والمورفين والفراولة)، كان ملمسه إسفنجيًّا وأثقل مما توقَّعت، بنفس وزن كرة البولينج تقريبًا، ولكن حمله أكثر صعوبة بكثير بفضل دماغه الذي يوزع الكتلة بشكل غير متساوٍ، يحتاج الشخص حقًّا إلى يدين لحمله.

ناديت في نفسي: «وا حسرتاه أيُّها المسكين يوريك!»

- نعم يا كويجكواج.

كانت إشاراتنا الأدبية للرؤوس المقطوعة جاهزة، وهي لعبة لتحسين قطاع الجنائز.

أنهى مايك الموقف بقصة مشوشة عن جويل- بيتر ويتكين، الفنان الطليعي الذي اشترى رؤوسًا من المشرحة المكسيكية ثم صوَّرها بترتيبات متقنة جنبًا إلى جنب مع المخنثين والأقزام في زي أسطوري. يقول ويتكين إن رغبته في التقاط هذه الصور السوداوية جاءت من مشاهدة حادث سيارة مروِّع في صباه، حيث قُطِع رأس فتاة صغيرة، وظل رأسها يتدحرج إلى أن توقف عند قدميه، كان على مايك دائمًا الفوز بجائزة التميُّز.

لقد أعجبت بمَن يتخلون عن الجنازة التقليدية وفكرة التكريم بعد الموت لصالح البحث العلمي، أمثال الرأس 1 والرأس 2، هذا عصري للغاية.

لكن هل يعني هذا أنني أفكر في اختيار مثل هذه النهاية لنفسي؟ بالعكس. لدي رأي عنيف ضد فكرة التشرذم بهذه الطريقة، يبدو الأمر كأنه فقدان تام للسيطرة أن يُوضع رأسي في صندوق في مكان ما، وتُخفى هويتي الجامحة، ولا يبقى لي لا رقم ولا هوية إلا أنني أعاني من حساسية المحار. لطالما أخبرتني والدتي أنه لا يهمها ما نفعله بجسدها: «فقط ضعوني في كيس ضخم على الرصيف ليلتقطني عمَّال القمامة». لا يا أمي! التبرع بجسدك للعلم أمر نبيل بالتأكيد، لكنني أعترض على فكرة تناثر الأجزاء والأعضاء وأبعاض مجهولة في أرجاء المدينة.

لطالما كان التحكُّم في النفس مهمًا بالنسبة إليَّ، فجدي الرجل الذي ذهب إلى نزهة في نوبة لمرض الزهايمر صباح عيد الميلاد، كان عقيدًا في جيش الولايات المتحدة، فقد قاد مُدمرات الدبابات في الحرب الكورية، وتعلم اللغة الفارسية وصاحب شاه إيران، وقضى سنواته الأخيرة في قيادة قاعدة عسكرية بهاواي. لقد كان رجلًا صارمًا ويملك أفكارًا قاطعة حول النحو الذي يجب على الرجال والنساء والأطفال (أي أنا) التصرُّف بها، وقد ذهبت كل هذه الأفكار أدراج الرياح في نهاية حياته، حين جعله مرض الزهايمر مرتبكًا وحزينًا وغير لائق اجتماعيًا.

كان أسوأ ما في مرضه هو تآكل ضبطه لنفسه، وبما أنَّ مرض الزهايمر وراثي جزئيًا، فقد ذكرني يوميًا أن ضبطي لنفسي قد يتآكل هو الآخر يومًا ما. ومرة أخرى، لا شكَّ في أن الموت يُفقدك السيطرة تمامًا، بدا أنه من الظلم أن أقضي عمري في التأكد من ارتداء الملابس المناسبة والتكلُّم بالكلام الملائم لينتهي بي المطاف ميتة وعاجزة، وملقاة بلا ملابس على طاولة بيضاء باردة، وثدياي منكسران إلى الجانب، والدم يسيل من جانب فمي، وعلى رأسي شخص عشوائي من العاملين في دار الجنائز يمسك بخرطوم ويرشني بالماء.

ومن بين كلِّ الناس لا أملك سببًا منطقيًا لأعارض التبرع العلمي، وتفريق الجسد، وجزء من هذا الخوف ثقافي. من الصعب قبول تقطيع أوصال الجثة قبل الدفن في السماء على طريقة التبت رغم أنَّ حرق الجثة من الناحية المنطقية هو مجرد نوع آخر من التشرذم. قتل ابن عم أحد أصدقائي في

أفغانستان ولفترة وجيزة بعد الوفاة تلقت والدته تقارير مزعجة بأنَّ العبوة الناسفة التي كانت مزروعة على جانب الطريق وقتلته وتسببت في طيران أطرافه في جميع الاتجاهات، لكنها شعرت بالارتياح حين اكتشفت أن جسده سليم، رغم أن جسده قد نُقل جوًّا إلى الوطن ليُوضع مباشرة في غرفة حرق الجثث، ويحول بالنار إلى الآلاف والآلاف من القطع المجهولة من العظام غير العضوية.

وسواء أعجبك هذا أم لا، ستعلق بعض هذه العظام بين شقوق الأرضية وعلى جدران الفرن وسيستحيل استردادها، يقر الإذن الرسمي لإحراق الجثث من ولاية كاليفورنيا بهذه الظاهرة بالطريقة التالية:

تتكون حجرة الفرن من السيراميك أو مادة أخرى تتفكك قليلًا في كلِّ مرة تُحرق فيها جثة، ويختلط ناتج هذا التفكك مع بقايا الجثث المحترقة، وتبقى بعض البقايا في الشقوق والأماكن غير المستوية من الحجرة.

أو بالشعبي: عندما يُخرجونك من الفرن بعد حرق الجثث، يأتي جزء من الفرن معك، ويبقى جزء من عظامك هناك. يُطلق على ذلك: «الخليط».

ومهما جررت المكنسة المعوجَّة الصغيرة على الشقوق الموجودة في سطح السيراميك، فقد فُقدت أجزاء من كلِّ جثة إلى الأبد، لا يعني ذلك أنني لم أحاول، لقد حاولت أن أجمِّع كلَّ ما هو فضي، وقد لفح الهواء الساخن وجهي حين حشرت جسدي أكثر من اللازم في الماكينة، وأزلت العظام المحبوسة بالمكنسة الصغيرة حتى تذوب شعيرات المكنسة.

ذات مرة، أثناء كنس حجرة حرق الجثث، هاجمتني بعض شظايا العظم الساخن، فقد خطوت فوقها بالخطأ فحرقت حفرة عميقة في النعل المطاطي لحذائي، صرخت: «لعنك الله!»، وحركت ركبتي بنفضة لا إرادية فانقذف العظم في حركة على شكل قوس عالٍ في حجرة المحرقة، وسقط في مكان ما خلف صف من النقَّالات، بعد خمس دقائق من الحبو وجدت الجمرة وطابق شكلها شكل الفتحة الموجودة في النعل، ستُطحنين!

بالطبع هناك وجهات نظر مختلفة حول الطحن، فبعد شهر منحني مايك إجازة لمدة يومين (غير مدفوعة الأجر) لحضور حفل زفاف ابن عمي في ناشفيل. وكما هو معتاد قبل الزفاف، اخترنا وقتًا تجتمع فيه السيدات في الساونا بعد الظهر قبل الحفل، اصطُحبت إلى غرفة التدليك، عرين البخور والتأمل والموسيقى الخفيفة، بدأت المُدلِّكة الشقراء، ذات الكلام اللطيف والجنوبية للغاية، رقصتها اللطيفة على ظهري، وانطلقنا في الدردشة أثناء التدليك.

طغى صوتها على صوت مكبرات الصوت قائلة: «إذًا ماذا تعملين يا حبيبتي؟»

تساءلت هل أصارح هذه المرأة بوظيفتي؟ هل أقول لها إن أصابعها السحرية تعجن عقدة عضلية ناتجة عن جر الجثث وإخراج العظام من أفران عملاقة؟ قررت أن أخبرها.

يُحسب لها أنَّها لم يرف لها جفن. قالت: «يمكنني أن أخبرك أنَّ لي الكثير من الأقارب في ويست فيرجينيا وهم يعتبرون أمور حرق الجثث من عمل الشيطان».

فسألتني مدلكتي: «وما رأيك أنت في حرق الجثث؟»

شردت لثانية واسترخت يداها على ظهري: «لقد ولدت من جديد[1]».

لحسن الحظ كنت مستلقية على طاولة التدليك ووجهي إلى أسفل فلم تستطع رؤية عيني تدوران ذهابًا وإيابًا، فلم أدرِ هل من المفترض أن أطرح سؤالًا لاستكمال الكلام.

توقفت طويلًا قبل أن تُكمل: «أؤمن أن يسوع سيأتي عند الاختطاف[2] ليأخذ المباركين إلى السماء، لكن ثمَّة شيء، أعلم أننا سنحتاج إلى أجسادنا، ولكن ماذا لو كنت أسبح في المحيط ومزقتني سمكة قرش؟ سينقسم جسدي

---

(1) إشارة إلى تجديد إيمانها بالمسيحية. – المترجم.

(2) هو الإيمان المسيحي بأن بنزول "يسوع" إلى السُّحب بحيث لا يراه أحد ويجذب كل المؤمنين الحقيقيين من كل الجماعات. – المترجم.

بين الماء ومعدة القرش، أتقولين لي إن مخلصنا لا يستطيع أن يجمعني مرة أخرى؟ وإذا استطاعت قدرته أن تشفي هجوم سمكة القرش، فيمكنها أن تشفي حرق الجثث».

كررت: «شفاء حرق الجثث».

لم أفكر في هذا قط: «حسنًا، نظريًا إذا كان الربُّ قادرًا على إعادة تكوين الأجسام المتحللة بعد مرورها من الجهاز الهضمي للديدان، فأعتقد أن بإمكانه أن يشفي الحرق».

بدت راضية عن ردي وقضينا بقية الجلسة في صمت، نفكر في مدى التحلل الذي سنصل إليه في النهاية، جسدها سينتظر الاختطاف، أما جسدي فأخشى أنه لن يتمتع بمثل هذا السمو.

وما أثَّر فيَّ لم تكن حتمية التحلل فحسب، بل أنه لا مفر من الموت، تلك الموجة التي تكتسح كل شيء في طريقها. فكما كتب بوبليوس سيروس في القرن الأول الميلادي: «كبشر، نحن جميعًا متساوون في وجود الموت».

***

في أواخر العصور الوسطى، كانت رقصة الموتى موضوعًا شائعًا في الفن، فقد صوَّرت اللوحات الجثث المتحللة ذات الابتسامات الضخمة التي تصل إلى جمع الأحياء الغافلين. تلوح الجثث المبهجة، التي اختفت ملامحها بسبب التعفُّن بأيديها وتسير بأقدامها وهي تجذب كلًّا من الباباوات والفقراء والملوك والحدادين إلى رقصتها الدائرية، وذكَّرت هذه اللوحات المشاهدين بأن الموت شيء مؤكد: لن يهرب أحد، المجهولية تنتظرنا.

يمتدُّ جسر جولدن جيت شمالًا من طرف سان فرانسيسكو إلى مقاطعة مارين. يعتبر الجسر هذه القطعة المعمارية المصقولة ذات اللون البرتقالي المائل إلى الحُمرة صاحب أكبر عدد صور في العالم، يمكنك العبور عليه في أيِّ ساعة وفي أي يوم من أيام السنة، وستجد أزواجًا سعداء يحتضنون بعضهم بعضًا ويلتقطون الصور. يتميز الجسر أيضًا بشيء سيئ السمعة إلى حد ما لكونه إحدى أكثر نقاط الانتحار شعبية في العالم، حيث يتنافس مع

مواقع مثل: جسر نهر اليانجتسي في الصين وغابة أوكيجاهارا في اليابان في منافسة لا يرغب أي مكتب سياحة في الفوز فيها.

يُتوقَّع لمَن يقفز من على حافة جسر جولدن جيت يضرب الماء بسرعة 75 ميلًا في الساعة، والموت من هذا مؤكد بنسبة 98%، فالصدمة وحدها تؤدي إلى قتل معظم القافزين، حيث تتحطم أضلاعهم وتخرِق الأعضاء الداخلية اللينة، ولو كُتب لك النجاة من السقطة، فستغرق أو تنخفض درجة حرارة جسمك ما لم يكتشفك شخص ما. غالبًا نعثر على الجثث بعد تعرضها لهجوم أسماك القرش أو بعد أن يستعمرها سرطان البحر، وهناك جثث لم نعثر عليها على الإطلاق، ورغم ارتفاع معدل الوفيات (أو بسببه للأسف)، يأتي الناس من جميع أنحاء العالم للقفز من على هذا الجسر تحديدًا، لذلك يجد السياح الذين يمشون على الجسر لمشاهدة غروب الشمس في الخليج لافتات مكتوبًا عليها:

مشورة الأزمات

هناك أمل

اتصل الآن

عواقب القفز من هذا الجسر قاتلة ومأسوية

يُنتج جسر جولدن جيت جثة جديدة بهذه الطريقة كل أسبوعين تقريبًا. ذات يوم بعد عملي في ويست ويند لمدة سبعة أشهر تقريبًا دون قافز واحد، جاءنا اثنان ولا يحتاج الموت إلى مثال أفضل من هذين الرجلين ليثبت أنه عادل: رجل مشرد يبلغ من العمر 21 عامًا، ومهندس طيران يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا.

يعتمد المكان الذي تذهب إليه أجسام القافزين من على الجسر بعد هبوطهم في الخليج على اتجاه التيارات المائية، فإذا جلبت المياه الجثة إلى الجنوب، ستستحوذ عليها مقاطعة سان فرانسيسكو وتُرسلها إلى مكتب

الفاحص الطبي المُكتظ في المدينة، وإذا حملتها التيَّارات شمالًا، فستحوذ الجثة مقاطعة مارين الثرية، التي تملك مكتب طبيب شرعي منفصل.

كان بإمكان مهندس الفضاء الجوي، وهو عالم صواريخ حقيقي، أن يحصل بسهولة على قصر في مقاطعة مارين، لكنه مع هذا جُرف جنوبًا، أما المتشرد والذي كان عاطلًا وفقًا لأخته، فطفا شمالًا في ضواحي مارين الثرية، فالتيار تحت الجسر لا يعرف الفروق النسبية، ولا يهمُّه نوع اليأس الذي قادهم إلى الجسر، وبهذا يحقق الخليج رثاء «كاميل باجليا»، الناشطة النسوية، للبشر: «البشر ليسوا المفضلين للطبيعة، نحن مجرد نوع ضمن العديد من الأنواع التي تمارس الطبيعة عليها قوتها بشكل عشوائي».

بعد ظهر أحد الأيام، غادرتُ مع كريس من المحرقة في شاحنته البيضاء وتوجهنا لبيركلي لاصطحاب «تريز فون»، كانت تريز قد ماتت في سريرها عن عمر يناهز 102 عام، ولدت تريز في وقت كانت الحرب العالمية الأولى (الحرب العالمية الأولى!) لا تزال من المستقبل. وبعد العودة لويست ويند ووضع جثة تريز في الثلاجة، أحرقت جثة رضيع حديث الولادة عاش فقط ثلاث ساعات وست دقائق، وبعد حرق جثتها كان رماد تريز ورماد الطفل متطابقين من حيث الشكل، وإن اختلفا في الكمية.

يتماثل شكل كل شيء سواء الجثث الكاملة، أو الرؤوس الموهوبة للعلم، أو الأطفال، أو ساق مبتورة لإحدى النساء، وتظهر جميعًا بنفس الشكل في النهاية. ولا يُشكِّل النجاح والفشل والعمل الصالح والسيئ في الحياة فارقًا عند غربلة جرة من البقايا المحترقة. «لأنك تراب وللتراب تعود»، كشخص بالغ، غبارك مثل غباري: أربعة إلى سبعة أرطال من الرماد والعظام الرمادي.

هناك اهتمام كبير في قطاع الجنائز المعاصر بـ «التخصيص»، وهو كلام تسويقي يستهدف جيوب جيل الأربعينيات والستينيات، ويضمن أنه مقابل السعر المناسب يمكن أن تحصل كل حالة وفاة على إضافات: صناديق بألوان وشعار فريق بالتيمور رافينز، أو جِرار على شكل مضرب جولف، أو تكفين الجثث ببطانيات عليها مشاهد لصيد البط. وقد أعلنت إدارة الجنائز (أكبر مجلة في صناعة الموت) عن وصول أقبية الدَّفن المزينة برسومات توماس

كينكيد التي استخدم لها الفرش لرسم مشاهد ريفية ملوَّنة بألوان قوس قزح كما لو كانت النزول الثاني للمسيح. توفر هذه المنتجات اللمسات الإضافية التي تقول: «أنا لست جاري، لست مثل الرجل الميت إلى جانبي، أنا... أنا... أنا فريد- لا أُنسى!»، أما بالنسبة إليَّ، فقد أشعلت الترهات التي تعرضها دور الجنائز في نفسي رعبًا تشعر أمامه الجثث المشاركة في رقصة الموت بالاستحياء.

لقد فهمت الدَّافع وراء التخصيص، بل لقد أُغرمت بهذا الدافع حين أتيت إلى ويست ويند بفكرة ساذجة عن افتتاح دار الموت الجميل في المستقبل، وهي دار جنائز توفِّر موتًا فريدًا من نوعه وشخصيًا. ولكن ما نحتاج إليه ليست إضافات جديدة إلى القائمة اللانهائية من المنتجات، خاصة ونحن نفتقد الطقوس التي تحمل معنى حقيقيًا، الطقوس التي تشمل الجثة والأسرة والعواطف، ولا يمكن أن تُستبدَل بالطقوس القوة الشرائية.

على مدار الأشهر التي عملت فيها في ويست ويند، كانت الرفوف المحترقة تتراكم على الرَّف المعدني فوق الأدوات، وكانت لأطفال وبالغين وأعضاء مُشرَّحة من ساينس سبُورت والأجزاء «الإضافية» المتراكمة في الأفران، وهي خليط مما تبقى من كل شخص مرَّ من بابنا. وبعد ظهر أحد الأيام، حين تراكم قدر كافٍ من الأكياس للخروج في رحلة مثيرة، أعددنا المحاربين الرماديين الصَّغار للنثر في البحر الذي لم يشهده أحد، فقد كُدِّست أكياس العظام التي تحمل أسماء كـ «يوري هيراكاوا» و«جليندورا جونز» و«تيموثي رابينوفيتز» في صناديق. وقد دفعت الأسر والأقارب ومؤسسة ساينس سبُورت لمشرحتنا نقودًا لنقل رماد أحبائهم إلى خليج سان فرانسيسكو ونثرهم في مهبِّ الريح.

استغرق التحضير بعض الوقت، ففي كاليفورنيا تحكم القوانين والإجراءات نثر الرفات في البحر، فيتعيَّن على المرء التحقق مرتين من كل متوفى، وكل تصريح بالتخلص، وكل عقد لدى ويست ويند، ومقارنة الأرقام الصغيرة في نموذج ما بالأرقام الصغيرة الموجودة في آخر. وفي النهاية أصبح لديَّ ثلاثة صناديق كاملة تحتوي على بقايا لا يمكن تمييزها لثمانية وثلاثين بالغًا

سابقًا، واثني عشر رضيعًا سابقًا، وتسعة أعضاء مُشرَّحة سابقة، وكنت أنا زعيمة رقصة الموت المروِّعة.

كانت الصناديق جاهزة لتخرج على متن قارب ويست ويند الخاص بنثر الرماد في صباح اليوم التالي، وقد لمَّحت حينئذ لمايك بأنني الشخص الذي يجب أن يذهب. أردت أن أكون الشخص الذي تولَّى هؤلاء الأشخاص طوال الطريق، وأخذهم من حيث سقطوا ووضعهم في النار لننثرهم في البحر. للأسف، حصل مايك على هذه المهمة، فقد كان يتطلع إلى المغامرة الساحلية في الصباح الباكر، ويجب أن يبقى شخصٌ ما في ويست ويند للرد على الهواتف وحرق الجثث، وذلك الشخص هو عاملة حرق الجثث، المرأة في أسفل هرم الموت: أنا.

إيروس وثاناتوس

في المنزل الذي نشأت فيه في بونالي بليس، امتلكنا مسبحًا قضيت فيه ساعات لا تُحصى وأنا طفلة. خلال سنوات مراهقتي، تعطّلت مضخة تنظيف المسبح وتحوَّل مرتع صباي تدريجيًا إلى اللون الأخضر، حيث نبتت طبقة سميكة من النباتات، وأصبحت موطنًا للحياة البرية من الضفادع والبط المحلي. كان من دواعي سرور النباتات والحيوانات العثور على مستنقع متطوِّر بالكامل في وسط شارع عادي في الضواحي.

أنا متأكد من أنَّ جيراننا لم ينبهروا بجهود حفظ الحياة البريَّة التي تحدُث في عقار دوتي القديم، فقد تجوَّلت ضفادع المستنقعات بأعداد مذهلة طوال الليل ولم يكن سرًّا أن آل كيتاساكي جيراننا في المنزل المقابل، كرهوا زوجَي البط اللذين خرجا في بعض الأحيان من مسبحنا إلى حديقتهم للتغوط. وحين وجدنا كلتا البطتين نافقتين جنبًا إلى جنب في الشارع (بعد أن أكلتا سم الفئران: نظريتي غير المؤكدة)، التقطت صورة لهما وألقيت تعويذة صامتة على عائلة كيتاساكي، وبعدها بعام تركوا المنزل لأن شعورهم بالذنب جننهم على الأرجح، وجودة التعويذة.

عندما أصلح والداي المسبح أخيرًا بعد خمسة عشر عامًا تقريبًا، وجد الرجال الذين جففوه طبقةً رقيقة من العظام في الأسفل: لطيور، وضفادع، وفئران، لكن لم تكن أيٌّ منها عظامًا بشرية، ما يعني أن والدي ربح الرهان، إذ كنت مؤمنة بأنَّه من المحتمل جدًا أن نجد عظام اثنين أو ثلاثة على الأقل من جيراننا السابقين هناك.

في الأيام الخوالي، حين كان مسبحنا لا يزال يشبه أيَّ مسبح عادي، كانت اللعبة المفضلة لعصابة فتيات الحي البالغات من العمر سبع سنوات مبنية على قصة عروس البحر الصغيرة. ظهر هذا الفيلم من إنتاج ديزني عام 1989 وكان كلَّ شيء بالنسبة إلينا، لا يمكن أن تبدأ أيُّ لعبة تخيلية تحترم نفسها دون معايير صارمة. تُعلن إحدانا: «أنا عروس البحر، أرتدي حمالة صدر أرجوانية لامعة، وشعري أخضرُ طويلٌ، وذيلي ورديٌّ برَّاق، وأعز أصدقائي هو أخطبوط مُغنٍّ». وإذا حجزت سمات الشعر الأخضر والذيل الوردي، فلا يملك أحد أن يُعلن خليط ألوان مشابهًا وإلا فستطرده المجموعة وينتهي بهم الحال بالبكاء خلف أشجار الموز.

لقد منحتني أعمال ديزني بأكملها وعروس البحر الصغيرة على وجه الخصوص فهمًا مشوهًا للحب. ولمن لم يشاهده منكم، اسمحوا لي أن ألخِّص الحبكة (التي تختلف اختلافًا كبيرًا عن نسخة هانز كريستيان أندرسن، وسأقول المزيد عن ذلك لاحقًا): آرييل حورية شابة جميلة وصوتها أكثر جمالًا منها، لكنها مهووسة بأن تصبح إنسانة بسبب حبها العميق للأمير إريك (إنسان لم تره إلا مرة واحدة) ولحطام الحضارة الإنسانية (التي تجمعها في كهفها تحت الماء). تخبر ساحرة البحر الشريرة آرييل أنَّها تستطيع تحويلها إلى إنسانة إذا تخلت عن صوتها وأصبحت خرساء. توافق آرييل على الصفقة وتقسيم ساحرة البحر ذيل حورية البحر إلى ساقين بشريتين. لحسن الحظ، يقع الأمير إريك في حبِّ آرييل رغم خرسها لأنها جميلة، والمرأة الجميلة لا تحتاج إلى صوت. تحاول ساحرة البحر الشريرة أن تُفرِّق بينهما، لكن الحب ينتصر وتتزوج آرييل من الأمير وتُصبح إنسانة إلى الأبد. النهاية.

توقعتُ أن تسير حياتي العاطفية بنفس الطريقة، باستثناء ساحرة البحر الشريرة وسلطعون الموسيقى الحكيم والساخر، إلا أن سنوات مراهقتي حرمتني من هذه الفكرة.

عندما كنت مراهقة ذات ميول مزعجة، كانت المنافذ الاجتماعية الحقيقية في هاواي هي نوادي القوطيين والمولعين بالميول السادية والمازوخية التي تحمل أسماء مثل: «لحم» و«الزنزانة»، وأقيمت في ليالي السبت في

مستودعات بالقرب من المطار. كنت أنا وأصدقائي، جميع فتيات المدارس الخاصة اللواتي يرتدين الزيَّ الرسمي نهارًا، نُخبر أهالينا أننا سنبيت مع بعضنا بعضًا وبدلًا من ذلك نغير ملابسنا ونرتدي فساتين فينيل سوداء طلبناها عبر الإنترنت. ثم نذهب إلى النوادي ونُقيَّد بصلبان حديدية ونُجلد علنًا وسط آلات نفخ الضباب، بعد إغلاق النوادي الليلية في الساعة الثانية صباحًا، نذهب إلى مطعم يعمل على مدار الساعة يُدعى «زيبيز»، ودائمًا ما ينعتنا بعض الزبائن المرتبكين في وقت متأخر من الليل بـ «الساحرات». وهناك نغسل مساحيق التجميل في الحمام، وننام لبضع ساعات في سيارة والدي، ونظرًا إلى أنني كنت أيضًا في فريق الزوارق التنافسي في مدرستي، فكان عليَّ في صباح اليوم التالي أن أخلع ثوب الفينيل وأجدِّف في المحيط المفتوح لمدة ساعتين فيما تقفز الدلافين بشكل مهيب بجوار زورقنا، كانت هاواي مكانًا ممتعًا لمرحلة المراهقة.

كوني طفلة أمريكية في أواخر القرن العشرين، لم أملك أيَّ فكرة عن أنَّ قصص أفلام ديزني المحبوبة مسروقة من الحكايات الخرافية المروِّعة الوحشيَّة من تأليف الأخوين الأوروبيين «جريم» و«هانز كريستيان أندرسن». تلك الحكايات الخيالية لم تنتهِ بـ «وعاشوا في تبات ونبات»، بل باستنتاجات مثل التي ختمت حكاية «The Goose-Girl»: «ولا تستحق مصيرًا أفضل من تعريتها بالكامل، ووضعها في برميل مرصع من الداخل بمسامير مدببة... يجب استخدام حصانين أبيضين لسحبها من شارع إلى آخر حتى تموت».

كما تخلو حبكة قصة «حورية البحر الصغيرة» الأصلية، للكاتب الدنماركي «هانز كريستيان أندرسن» المنشورة عام 1836م، تمامًا من حيوانات البحر اللطيفة. ففي قصة أندرسن، تقع حورية البحر الصغيرة في حب أمير وتذهب إلى ساحرة البحر طلبًا للمساعدة (حتى الآن نحن على نفس مسار إصدار ديزني). تُمنح حورية البحر رجلَين بشريَّتين، لكنها تشعر في كل خطوة بطعنة سكين حادة تقطع قدميها، وبعدها تطلب الساحرة منها الدفع مقابل هذه الخدمات: «قطع لسان حورية البحر حتى تُصبح غبية، وتعجز عن الكلام أو الغناء مرة أخرى».

والصفقة هي أنَّه إذا عجزت حورية البحر عن إقناع الأمير بحبها، فسوف تموت وتتحول إلى رغوة على سطح الماء وتفقد فرصتها في الحصول على روح خالدة. لحسن الحظ، يبدو أنَّ الأمير فُتن بها: «لقد أذن لها بالنوم عند بابه على وسادة مخملية». بالطبع، لا يوجد شيء يُعبِّر عن الحب مثل السماح لها بالنوم عند عتبة الباب على سرير الكلاب.

لكن سيتزوج الأمير الذي لم يقتنع بالخرساء التي تنام أمام بابه بأميرة من مملكة أخرى، وبعد فشل عروس البحر في كسب حب أميرها البشري، تعلم أنَّها ستموت في صباح اليوم التالي للزفاف. في اللحظة الأخيرة، تقص شقيقاتها شعورهن ويقدمنه إلى ساحرة البحر مقابل سكين، وأعطين السكين إلى عروس البحر قائلات لها: «قبل أن تشرق الشمس عليك أن تغرسيها في قلب الأمير، وحين يتقاطر الدَّم الدافئ على قدميك ستلتحمان معًا مرة أخرى وتشكلان ذيل سمكة، وستعودين مرة أخرى عروس بحر». لا يقوى قلب عروس البحر على ذبح أميرها المحبوب، فتقفز من القارب إلى موتها، النهاية. حاول بيع هذا في فيلم رسوم متحركة للأطفال.

هذا هو إصدار القصَّة الذي كنت أتمنى تثقيف طفولتي به، فكشف حقائق الحب والموت للطفل أقل خطورة بكثير من كذبة النهاية السعيدة. لقد نشأ أطفال عصر أميرات ديزني بنسخة مُزيَّنة من الواقع مملوءة بالحيوانات المرافقة والتوقعات غير الواقعية. يخبرنا عالم الأساطير «جوزيف كامبل» بحكمة أن نزدري النهايات السعيدة: «لأن العالم الذي رأيناه وخبرناه، لا ينتهي إلا نهاية واحدة: الموت، والتفكك، والانهيار، واعتصار قلوبنا على ضياع كل شيء أحببناه».

ولم يكن التفكك والموت قط نهايتين يقبل عليهما الجمهور، بل الأسهل بكثير قبول قصص الحبِّ قديمة الطراز، لذا سأحكي لكم بخوف كبير قصة حبي التي بدأت في اليوم الذي دخلت فيه على بروس وهو يُحضِّر جثة للتشريح.

- مرحبًا يا بروس، هل أحضرت الملابس التي جلبتها العائلة للسيدة جوتيريز بالأمس؟

أجاب بتنهيدة: «يا رجل! هل رأيت تلك الملابس الداخلية؟»، ثم أضاف: «أيتها العائلة، جدتكم ليست بيتي بيج[1]؛ لا تُحضروا ملابس داخلية مثيرة».

قلت: «لماذا يفعلون ذلك؟ هذا غريب للغاية».

فأجابني: «يفعل الناس هذا الشيء المُقزز طوال الوقت». لا تشير كلمة G-string[2] إلى (ملابس الجدات).

أشار بروس إلى الشاب الذي كان يرقد على الطاولة أمامه وقال: «هذا هو الرجل الذي جلبه كريس من عيادة الطبيب الشرعي اليوم. توفي بجرعة زائدة أو شيء من هذا القبيل».

عند ذلك لاحظت أنَّ الرجل الذي يرقد على الطاولة ليس له وجه. لم يُقطع رأسه، ومع هذا ليس له وجه، لقد سُحب الجلد من منبت الشعر إلى أسفل ذقنه كأنه قشرة فاكهة، فانكشفت الأوعية والعضلات الموجودة تحتها.

سألته: «بروس! لماذا هو هكذا؟ ما الذي يجري؟».

متوقعة أنه سيُلقي عليَّ محاضرةً عن أحد أمراض تآكل اللحم وانقلاب الوجه.

كما اتضح، فإنَّ تقشير الوجه مثل غطاء علبة السردين أمر شائع جدًا، فعندما يُشرِّح الفاحص الطبِّي الجثَّة يُزيل الدِّماغ، ويبدأ بعمل شق في خط عند منبت الشعر ثم يشدُّ الجلد إلى أسفل حتى يتمكن الفاحص من فتح الجمجمة بمنشار ترددي. وتتشابه هذه الطريقة بشكل مدهش أسلوب المحاربين السكيثيين[3] القدامى، الذين كانوا يجلبون رؤوس أعدائهم إلى الملك لإثبات انتصارهم قبل إزالة فروة الرأس، ولذا يملك المحارب الجيد منهم (أو الفاحص الطبي) مجموعة كبيرة من فروات الرأس على حزامه.

---

(1) العارضة الأمريكية Bettie Page. - المترجم

(2) نوع ملابس داخلية رقيقة للغاية بحيث تختفي حوافها تحت الملابس الضيقة بين ثنيات الجسم. – المترجم.

(3) شعب بدوي ينحدر من أصول إيرانية من مملكة سكيثيا. – المترجم.

بعد إزالة الدماغ، يُعيد الفاحص غطاء الجمجمة مرة أخرى على رأس الرجل أو المرأة الميِّتين بشيءٍ من الريبة، مثل: قبعة بائع الجرائد المبتذلة، ويدحرج الوجه إلى مكانه مرة أخرى. تتمثل مهمة دار الجنائز في إعادة تجميع الإنسان مرة أخرى. كان بروس يواجه صعوبة كبيرة في ذلك اليوم.

تذمَّر: «انظري يا كيتلين! قلت للعائلة إنني حانوتي، ولست ساحرًا. أتفهمين؟»، وهذه هي نكتته المفضلة.

كان بروس يحاول بشجاعة وضع الجمجمة في مكانها بصورة مناسبة، وقطع شرائط من منشفة لدعم جبين الرجل. وقد شعر بالضَّجر لأن خزانة اللوازم في غرفة تحضير ويست ويند لم تُجهّز مطلقًا بالمواد المناسبة لإصلاح الجبهة.

سألته: «حسنًا، ماذا تريد يا بروس؟».

- بعض زبدة الفول السوداني.

لم يكن في حاجة إلى زبدة فول سوداني حقًا، ما احتاجه هو نوع من المعجون الترميمي الذي أطلق عليه قدامى صناعة الجنائز زبدة الفول السوداني. لم أعرف الفرق وأمضيت عدة أسابيع بعدها أخبر أي شخص يسمعني أنَّ الحانوتية يفردون زبدة الفول السوداني داخل رؤوسنا كعلاج تجميلي بعد الوفاة. اختر نوع الزبدة بعناية أيُّها الحانوتي!

كشفت إزالة وجه الشاب الابتسامة العريضة والمخيفة لجمجمته، ومن المزعج أن تتذكر أن هذه الابتسامة المختلة نفسها تختبئ تحت لحم وجه كل الناس، العَبوس منهم والباكي وحتى المُحتضَر. وبدا أنَّ الجمجمة تعلم أنَّ بروس لم يكن بحاجة إلى زبدة الفول السوداني المعتادة، لقد شاهدت وجهي وهو يغرق في الارتباك وضحكت على جهلي.

لفَّ بروس الجلد بلطف إلى الأعلى مثل قناع الهالوين. مفاجأة: عاد مكانه. تململت معدتي ووقع قلبي في قدمي. مع عودة الوجه لمكانه تعرفتُ عليه، كانت جثة لوك، أحد أقرب أصدقائي، وكان شعره البني الكثيف متلبِّكًا بالدماء.

***

في اليوم الذي اكتشفت فيه أنني حصلت على الوظيفة في ويست ويند، كان لوك الذي لم يرَ قط علاقتي بالموت غريبة، هو أول شخص أخبره. كان بإمكاني أن أشركه مخاوفي بشأن الموت والحياة بأمان، وانتقلت محادثاتنا بسهولة من الأسئلة الوجودية الكبيرة إلى النكات الهزلية من الكوميديا البريطانية التي شاهدناها (إحم، بشكل غير قانوني) عى الإنترنت. كان لوك هستيريًّا، لكنه كان أيضًا ممتازًا في الإنصات ورجلًا ضليعًا في فنِّ طرح السؤال المناسب. الأهم من ذلك، أنه مع مرور الأشهر في ويست ويند وتغيُّر كل شيء أعرفه عن الموت، كان يتفهم شكوكي وإخفاقاتي المتكررة، ولم يَحكم عليَّ بها قط.

بعد لحظة مؤلمة أدركت أنه لم يكن هو حقًا. «زبدة الفول السوداني» لم تكن في الحقيقة زبدة فول سوداني ومدمن المخدرات المتوفى لم يكن لوك الذي عاش على بُعد مئات الأميال جنوب لوس أنجلوس، لكن هذا الرجل كان يشبهه بشكل صادم، والصورة التي انطبعت في عقلي وإن كانت خطأً، لا يمكن محوها أبدًا.

بعد تحنيط بروس للوك الزائف وعودتي للمنزل ليوم واحد طلب مني مايك تنظيف الجثة، كان يرقد في غرفة التجهيزات مُغطى بملاءة بيضاء، مخيَّطًا مرة أخرى من جميع أطرافه كأنه لحاف مُرقَّع. سحبت الملاءة لكشف الجثة واستخدمت قطعة قماش دافئة لمسح الدم من شعره ورموشه وظهر يديه الرقيقتين. لم يمت لوك الحقيقي، لكنني أدركت الآن أنه قد يموت، وسيؤلمني بشدة إذا مات صديقي الحبيب دون أن يعرف مدى أهميته بالنسبة إليَّ.

أعلن المحلل النفسي أوتو رانك أنَّ الحب الحديث مشكلة دينية، فبما أننا نتحول شيئًا فشيئًا إلى العلمانية ونبتعد عن المدن الني ولدنا فيها، لم يعد بإمكاننا استخدام الدِّين أو المجتمع لتأكيد معنانا في العالم، لذلك نختار شريكًا في الحب بدلًا منهما، شخصًا يصرف انتباهنا عن حقيقة وجودنا الحيواني، أما الوجودي الفرنسي «ألبير كامو» فصاغها بطريقة أفضل: «آهٍ يا عزيزي! شخص وحيد دون إله ولا سيد، لا بُدَّ أن ثقل الأيام مرعب».

في اليوم الذي رأيت فيه لوك المزيف في محرقة الجثث كنت وحدي، بعد أن انتقلت إلى سان فرانسيسكو التي لا أعرف فيها نفسًا. لكن في صباح عيد ميلادي الرابع والعشرين ذهبت إلى سيارتي فوجدت زهرة واحدة مُثبَّتة تحت ممسحة الزجاج الأمامي. مررت بلحظة من النَّشوة، معتقدة أنَّ شخصًا ما قد تذكَّر عيد ميلادي، لكنْ حزنٌ عميقٌ غمرني حين أدركت أنَّ هذا مستحيل. لم يعرفني أحد في سان فرانسيسكو بأسرها، وربما جلبتها الريح.

وبعد أن عدت للمنزل في تلك الليلة اشتريت بيتزا وأكلتها بمفردي، واتصلت أمي بي لتتمنى لي عيد ميلاد سعيد.

الأشخاص الآخرون الوحيدون الذين كنت أقابلهم بانتظام بعيدًا عن مايك وكريس وبروس، هم مجموعة من المراهقين. فبالإضافة إلى دوامي من التاسعة إلى الخامسة في دار الجنائز، عملت في المساء مدرسةً للغة الإنجليزية والتاريخ لطلاب المدارس الثانوية الأثرياء في مقاطعة مارين (وصفتها صحيفة نيويورك تايمز مؤخرًا بأنها الأجمل، والأكثر ريفية وتميُّزًا وليبرالية). كان طلابي أطفالًا أبرياء يعيشون وسط المروج المشذَّبة ويملكون آباء شديدي التركيز معهم بحسن النية، مستعدين لفعل أي شيء لتجنب سماع تفاصيل مهنتي النهارية. غالبًا ما كنت أذهب مباشرة من ويست ويند في أوكلاند عبر جسر ريتشموند - سان رافائيل إلى القصور الكثيرة المُطلة على الخليج، فلا يمكنني أن أعيش براتب حرق الجثث في سان فرانسيسكو.

لقد عشت حياة متناقضة، متنقلةً بين عالمي الأحياء والأموات، وكانت النقلة مفاجئةً لدرجة أنني تساءلت في بعض الأيام عما إذا كان بإمكانهم رؤيتها في عيني. «مساء الخير، أنا هنا في منزلك الذي تبلغ تكلفته ملايين الدولارات، على جسدي طبقة من الغبار البشري ورائحة العفن الغامضة، من فضلك ادفع لي مبلغًا كبيرًا من المال لتشكيل عقل ابنك المراهق». ولو لاحظ الأهل الغبار الذي يغطي جسدي، فلا بُدَّ أنَّهم لطفاء كفاية كي لا يأتوا على ذكره. البشر! إنه مصنوع من البشر.

عندما تعلم أنَّ الموت قادم من أجلك، تلهمك الفكرة فتُصبح طموحًا، وتعتذر للأعداء القدامى، وتتصل بأجدادك، وتعمل أقل وتسافر أكثر، وتتعلم الروسية،

وتتقن الحياكة، وتقع في الحب. قررت في اللحظة التي رأيت فيها شبيه لوك على طاولة التَّحنيط أنَّ ما أحمله له هو الحب، كانت مشاعري قوية، وأكثر حدة من أيٍّ وقت مضى. لقد ضربتني السماء بصاعقة البرق المبتذلة، فأصبح لوك مثاليًا، وكنت آمل بشدة أن يجلب لي الأمن والراحة من المشاعر التي أثقلتني خلال الأشهر الماضية، إذا ارتبطت به، فلن أموت وحدي؛ سيخطط شخص لجنازتي ويمسك بيدي ويمسح فمي المحتضر بمنديل مبلل، لن أكون مثل إيفيت فيكرز، ممثلة أفلام الدرجة الثانية ونجمة فيلم «Attack of the 50 Foot Woman»، التي وُجدت متحنِّطة تمامًا في منزلها بلوس أنجلوس بعد أكثر من عام من وفاتها، كانت منعزلة وهي على قيد الحياة، ولم يزعج أحد نفسه بالاطمئنان عليها. وبدلًا من الخوف من أن تأكل قطتي جسدي الميت للبقاء على قيد الحياة، وجدت الحل لوحدتي في لوك.

ظللت أفكر في لوك وأنا أحرق مورين، كانت سيدة في منتصف الخمسينيات، شخَّصها الأطباء بنوع من السرطان السريع كالبرق وماتت خلال أكثر من عام بقليل. ماتت مورين قبل زوجها ماثيو. بكل المعايير كان من المفترض أن يموت ماثيو أولًا، فقد كان قعيدًا وغير قادر على مغادرة منزله، وتوجَّب على كريس أن يذهب بسيارته إلى شقته لإنجاز الترتيبات اللازمة لحرق جثة مورين، لكن في تقويم القدر كُتب بأحرف مأسوية كبيرة: «17 سبتمبر: مورين تموت».

ومَن أوصل رماد مورين إلى شقة ماثيو كان أنا، وقد نزل بنفسه إلى الرَّدهة، وهو رجل بشعر طويل شائب وصوت شاب غريب. وحين أعطيته رماد مورين لم يتحرك أو حتى يرفع بصره، لقد شكرني فقط بصوته الرقيق، وحمل الصندوق البني في حضنه كطفل.

في صباح الإثنين التالي، لم يكن الميت الجديد في ثلاجتنا سوى ماثيو، ميت، استسلم. جاءت أخته إلى المشرحة ومعها حقيبة صغيرة من الأغراض الشخصية التي أراد ماثيو أن تُحرق معه.

يطلب منا أقارب المتوفى فعل هذا كثيرًا. وما دامت لا تحتوي على شيء متفجر بينها، أسعدنا إضافتها، فالأغراض تحترق فحسب مع الجثة، وبعد

وضع ماثيو على الحزام الميكانيكي لإدخاله الفرن، فتحت الكيس لتفريغ محتوياته بجانبه. في الكيس وجدت خصلة من شعر مورين وخواتم زواجهما وما بدا خمس عشرة صورة، ليست صور الرجل الهشِّ المُقعد على كرسيه المتحرك الذي رأيته، وإنَّما شاب سليم وعروسه الخجولة. مورين وماثيو: سعيدان، شابان، جميلان، متزوجان منذ أكثر من عشرين عامًا. لقد امتلكا أصدقاء، وكلابًا، وهو ما يبدو قدرًا لا يصدق من المرح. وفوق كل شيء، امتلكا بعضهما بعضًا.

عنصر آخر انزلق من الحقيبة، كانت بطاقة التعريف المعدنية لرماد مورين، التي أحرقتها معها قبل أسابيع قليلة فقط، تبقى هذه البطاقات مع الجسم طوال فترة حرق الجثث، وتُترك مع الرماد وبذلك يمكن التَّعرف على صاحب أكياس الرماد التي تُترك في المخزن لسنوات. كانت البطاقة التي وجدتها مطابقة (باستثناء رقم الهوية) للبطاقة التي سأضعها الآن مع ماثيو، تخيلت يديه تنغمسان في السطح الرمادي لعظام مورين وتمسكان بالبطاقة، تخيلته يسحبها ويمسح المعدن المترَّب على خده، لقد كان شرفًا غريبًا أن أكون جزءًا من آخر لحظتهما الخاصة معًا، آخر فصل في قصة حبهما.

بكيت (وأجهشت، إذا كنا صادقين) وأنا واقفة فوق جثة ماثيو قبل لحظات من تحميله في الفرن، حتى إن كان الموت هو مصير كل مَن نُحب، أود أن أحصل على حبٍّ مثل حبهما، أن أذوب عشقًا. ألم تعدنا ديزني جميعًا بمثل هذه النهاية؟

***

في القرن الرابع عشر، وقع «دوم بيدرو» ولي عهد العرش البرتغالي، في حب النبيلة «إينيس بيريز دي كاسترو»، لكن لسوء الحظ كان دوم متزوجًا بالفعل، ما يعني أن علاقته مع إينيس ستبقى سريَّة. بعد عدة سنوات، توفيت زوجة دوم بيدرو الأولى، وأصبح حُرًّا أخيرًا في أن يتزوج إينيس، أنجب دوم بيدرو وإينيس العديد من الأطفال معًا، لكن نُظر إليهم على أنهم يمثلون تهديدًا لحكم والد بيدرو، الملك. وحين خرج بيدرو مسافرًا، أمر الملك بإعدام إينيس وأطفالها.

غاضبًا، ثار بيدرو ضدَّ والده ونجح في اقتناص العرش في النهاية، بعد ذلك أمر بإرجاع مُعدِمي إينيس من قشتالة وانتزاع قلوبهم من صدورهم وهو ينظر. أعلن أنَّ إينيس هي زوجته الشرعية وأمر بإخراجها من قبرها بعد ست سنوات تقريبًا من وفاتها، وهنا يختلط الخيال بالواقع، لكن يُقال إن إينيس وُضعت جالسة على عرشها، ووضع تاج على جمجمتها، وأُجبر أعضاء البلاط على تقبيل اليد العظمية لملكتهم الشرعية.

اشتاق الملك دوم بيدرو إلى إينيس، واشتقتُ أنا إلى لوك، يملك البرتغاليون كلمة لا مقابل لها في الإنجليزية «saudade» وتعني الشوق المشوب بالحنين والجنون والمرض إلى شيء فقدته، كانت الصورة المروِّعة لوجه لوك المُقشَّر عن جمجمته كمعاينة لموته قد يختفي في أي لحظة، إذًا أنا بحاجة إليه الآن فالغد ليس مضمونًا، لكنني كنت على استعداد للعب على المدى الطويل، فمهما استغرقت من الوقت عليَّ أن أجدَ طريقة لأكون معه.

الوقوع في الحب

بدأ اليوم ببراءة كبيرة، صاح مايك من غرفة التحضير: «كيتلين! تعالي إلى هنا وساعديني في وضع هذا الرجل الكبير على الطاولة». في الواقع، أتذكر أنه قال: «تعالي إلى هنا وساعديني في وضع هذا المكسيكي الكبير على الطاولة». لكن لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، فقد التزم مايك دائمًا بمذهب الصوابية السياسية في مصطلحاته حتى إنه أشار ذات مرة إلى ضحايا عنف عصابات أوكلاند بـ «شباب المدينة الملونين».

أجد صعوبةً في الاعتقاد بأنَّ تعبير «هذا المكسيكي الكبير» ليس إلا خدعة من خدع الذاكرة. وأيًّا يكن، لم يكن الرجل الذي نقلناه من النقَّالة إلى طاولة العمل لا كبيرًا، لا مكسيكيًّا، بل كان عملاقًا وسلفادوريًّا، يعمل في بيع التأمينات ووزنه أكثر من 450 رطلًا. إذا كنت ترغب في أن تفهم عبارة «العبء الثقيل» بكل ما تحمل من معنى، فحاول رفع جثة رجل مصاب بِسمنة قاتلة من على نقالة متهالكة ومتذبذبة.

توفي خوان سانتوس بسبب جرعة زائدة من الكوكايين، وظلت جثته دون أن يصادفها أحد لمدة يومين في شقته في إيست باي، بعدها شرَّح الطبيب الشرعي الجثَّة وخاط صدره تاركًا خياطة على شكل حرف Y تمتد من الترقوة إلى معدته، سألني مايك: «هل أمسكت بكيس أحشاء هذا الرجل الذي كان في مؤخرة الثلاجة؟».

قلت: «أحشاء؟ كل أعضائه وخلافه؟».

قال: «نعم، يُخرج الطبيب الشرعي الأعضاء ويضعها فوق بعضها بعضًا في أكياس المواد الخطرة الحمراء تلك، ويأتي الكيس إلى دار الجنائز مع الجثمان».

- هل تأتي محشورة إلى جوارها أو شيء من هذا القبيل؟

ابتسم مايك وقال: «لا، يُلقيها كريس على كتفه مثل سانتا كلوز».

- أحقًا؟

- لا، يا رجل! لا. ماذا دهاك! هذا مُقرف.

حاولت أن أُساير دعابته التي تحمل طابع عيد الميلاد: «آه، مايك في مزاج مرح».

- إذًا من هنا أتت أسطورة (كريس كرينجل[1])؟ مَن يحصل على الأعضاء الداخلية في عيد الميلاد؟ الأطفال الجيدون أم الأشقياء؟

قال: «أعتقد أنَّ ذلك يعتمد على مدى ولع الطفل بالموت».

سألت: «هل يعاد كل شيء للجسد؟».

قال: «في النهاية، عندما يأتي بروس بعد الظهر لتحنيطه. هناك صلاة غدًا، لذلك سوف ينقعها في طين التحنيط ويرجعها مرة أخرى». بعد رفع خوان على الطاولة بتنهيدة مسرحية، أحضر مايك مقياسًا. قال: «اشترت العائلة نعشًا كذلك سآخذ مقاساته، آمل أن يكون مناسبًا لأنني حقًا لا أريد الاتصال بهذه العائلة مرة أخرى لأخبرهم أنهم بحاجة إلى النعش الضخم، ربَّما أُكلفك أنت بهذه المهمة». وابتسم للفكرة.

تخبرنا منظَّمة الصِّحة العالمية (إلى جانب أي برنامج تلفزيوني من الخمسة والأربعين برنامجًا لفقدان الوزن) أنَّ الولايات المتحدة تملك عددًا من البالغين يعانون زيادة الوزن أكثر من أي دولة أخرى في العالم؛ ليس من المستغرب ازدهار سوق النعوش الضخمة.

(1) من أسماء سانتا كلوز الأخرى. – المترجم.

يعرض الموقع الإلكتروني لشركة Goliath Casket قصة نشأتها الجميلة:

«في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، كان من الصعب الحصول على نعوش ضخمة وكانت سيئة الصُنع. وفي عام 1985، استقال والد (كيث)، (فورست ديفيس) (بي وي)، من وظيفته كعامل لحام في مصنع للنعوش وقال: «يا شباب، سأذهب إلى المنزل وأصنع نعوشًا ضخمة الحجم ستفتخر بوضع والدتك فيه»، وبدأت الشركة في حظيرة خنازير قديمة كانت في مزرعته، ووفَّرت حجمين ولونًا واحدًا فقط.

قد نستفيد من براعة بي وي، لأن من المستحيل أن يدخل خوان في تابوت بحجم عادي. كان عرض الرجل، بوركت روحه الراحلة، تقريبًا مثل طوله. قال مايك: «هيا! اعقدي ذراعيه كما لو كان في النعش».

مددت نفسي على جسد خوان للوصول إلى كلا طرفيه، أصرَّ مايك على أنه «لا، أعقديهما بقوة أكبر، وأشد، وأقرب»، ومدَّ شريط القياس على كتفيه، حتى الآن كنت مستلقية بالكامل على الجسم.

- استمري، استمري! ها نحن أولاء! جميل، سيكون مناسبًا تمامًا.

قلت: «أوه، بربك! لن يدخل!».

- سنجعله يدخل؛ ستدفع هذه الأسرة بالفعل أكثر مما تستطيع تحمله مقابل هذه الخدمة، لن أفرض عليهم 300 دولارٍ إضافية للحصول على نعش كبير الحجم إذا كان بإمكاني المساعدة. مجرد إخبارهم أن ابنهم يحتاج إلى تابوت ضخم هو أمر صعب وحده.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، بينما يطحن خلَّاط العظام ما بداخله، وصل بروس لتحنيط خوان بعد أن رآه مستلقيًا، صرخ بروس الذي يُحافظ دائمًا على لباقته: «كيتلين! كيتلين! هذا مكسيكي بدين، ستنبعث منه رائحة كريهة، البدناء يُصدرون رائحة كريهة دائمًا».

رفعت صوتي فوق صوت الخلَّاط وقلت: «لماذا يناديه الجميع بالمكسيكي؟».

كان بروس مخطئًا بشأن بلد منشأ خوان، ومن المؤكد أنه كان مخطئًا أيضًا بشأن الرائحة الكريهة للبدينين، لكن جاءت من غرفة التحضير أقوى رائحة شمها أنفي، كنت أعتقد أنَّ مثل هذه الرائحة كانت ستصدني، لكن لسبب ما أثارت لدي رغبة في استكشاف كل ألوان طيف قوس قزح الروائح.

لقد رأيت بروس يُحنِّط جثثًا من قبل، لكنني لم أكن مستعدة عقليًّا أو عاطفيًّا بأيٍّ حال من الأحوال لرؤية 450 رطلًا نائمة أمامي، تتطلب الجثث التي خضعت للتشريح من المُحنط قطع الغرز من الشق الذي على شكل حرف Y، وكما قال مايك لمعالجة الأعضاء الداخلية الموجودة في حقيبة سانتا كريس الحمراء الخطرة بالمواد الكيميائية، كان بروس قد بدأ لتوه هذا الجزء من التحضير عندما دخلت عليه.

إن وصف المشهد بأنه «مستنقع قذارة» لن ينصفه، لقد رأيت أحشاءً ودمًا وأعضاءً ودهونًا أكثر مما أتخيله في أي جسم بشري. بدأ بروس الذي كان يسحب الأعضاء من الحقيبة في الكلام على الفور: «أخبرتك أن الرائحة الكريهة ستصدر يا كيتلين، الأشخاص الأكبر حجمًا يتحللون بشكل أسرع، هذا علم يا فتاة، إنَّها الدهون، البكتيريا تحب الدهون، وحتى يصلوا إلى هنا بعد التشريح، يكون ما كان كان». يُحسب لبروس أنَّ هذا كان صحيحًا. تعليقه: «البدناء يُصدرون رائحة كريهة» لم يكن قائمًا على التحيز، بل الحقيقة.

أضاف بروس: «كل تلك الأشياء تتحلل في ذلك الجسم، على الأقل هذا الرجل لم يمت في حوض الاستحمام، الأحواض هي أسوأ موضع للموت. الأسوأ أن تذهب لإخراج الجسم من الحوض فيسقط الجلد على الفور، ويتصاعد غاز النسيج، براحته الزيتية». يُصدر بروس صفيرًا لتأثير دراماتيكي ويقول: «نفسيًا، ستشتمين تلك الرائحة طوال يومك، وأحيانًا طوال حياتك».

تابع حديثه: «انظري إلى هذا الرجل! جرعة زائدة من الكوكايين؟ بل الأرجح أنه أصيب بنوبة قلبية، انظري إلى هذا».

ومد يده إلى تجويف صدر خوان والتقط قلبه ورفعه لأراه: «انظري إلى قلبه! كل هذه الدهون حولها. تعلمين أنه كان جالسًا برفقة أصدقائه في الحانة يأكلون الهامبرجر ويستنشقون خطوط الكوكايين وما إلى ذلك».

فرَّق بين أصابع يده ليكشف عن الرواسب المصفرة، ثم قال: «لهذا السبب لا يصبح المرء سمينًا!».

لا بدَّ أنني بدوت غاضبة من الإهانة، لأنه أضاف بسرعة: «لا! لا أعنيك على وجه التحديد، يا فتاة! مظهرك جيد. لكن لا بُدَّ أن لديك أصدقاء بدينين، أخبري أصدقاءك البدينين». لم أملك أيَّ رد.

من وجهة نظر بروس المدرس السابق، لم يُقدِّم هذا العرض التوضيحي لضربي بالصدمة، بل لتعليمي. فمَن يعانون السمنة المفرطة تُصبح رائحتهم كريهة بشكل خاص بعد تشريح الجثة بسبب سرعة تحللها، هذه حقيقة. لا يعني ذلك أننا سنُخبر هذه الحقيقة لأسرة المتوفى، لا يوجد مال في الدنيا سيُقنعني بشرح الحقيقة لوالدة خوان وشرح سبب الرائحة التي تجدها من ابنها، كانت هذه الحقائق حصرية لآذان دعاة الموت، الذين بدؤوا وراء الكواليس.

تُعدُّ ردود أفعالنا السلبية تجاه الجثث المتحللة، كجثة خوان من الغرائز البحتة. فقد تطورنا بحيث نشعر بالاشمئزاز من الأشياء التي قد تؤذينا إن تناولناها، واللحوم المتعفنة أحد أقوى المتنافسين في هذه الفئة، يمكن لبعض الحيوانات كالنسور أنْ تأكل اللحم المتعفن بأمان بسبب قوة أحماض معدتها، لكن البشر يفضِّلون تجنب الطعام الفاسد تمامًا بدلًا من الاضطرار إلى محاربة المرض بعد دخول اللحم في أجسامنا. أتذكرون شعب الواري! ذاك الشعب الذي يأكل بعضه بعضًا بعدما ينال التحلل من الجثث ويضطرون إلى ترك الطقوس مؤقتًا للتقيؤ قليلًا، ويعودون لتناول الطعام مرة أخرى.

قلت: «بروس! حقًا يا بروس، قد تكون هذه أسوأ رائحة شممتها في حياتي».

بالنسبة إلى من لم يحالفه الحظ منكم بتنشُّم «عبير التحلل»، فأول ما يلاقي أنفك من رائحة جسم الإنسان المتعفن رائحة العرق سوس ومعها سمة حمضية قوية، لكن ليست رائحة الحمضيات الصيفية المنعشة، بل أشبه بأن يُطلق أحدهم في أنفك مباشرة علبة رذاذ صناعي للحمامات برائحة البرتقال. أضف إلى ذلك كأسًا من النبيذ الأبيض تخمَّر ليوم واحد والتف حوله الذباب، ثم ضع عليهما دلوًا من الأسماك المتعفنة في الشمس، هذا يا أصدقائي، شبه رائحة التحلل البشري.

قال بروس معتذرًا: «نعم، أودُّ أن أقول لك لا تشمي الرائحة، ولكن هذا مثل أن أقول لطفل صغير: إياك والضغط على الزر الأحمر الكبير!».

باستثناء حالات الوفاة النادرة، مثل: خوان سانتوس الذي خالف المعتاد، فقد اختفى التحلل من مشاهد الموت في حياتنا. فأمام أي جثة جديدة خياران: الدفن بعد التحنيط، الذي يوقف التحلل إلى الأبد (أو على الأقل حتى يبدأ الجسم في الجفاف والذبول كالمومياء)، أو الحرق الذي يحول الجثة إلى رماد وغبار، وفي كلتا الحالتين، لن ترى أبدًا إنسانًا يتحلل.

هناك تصوُّر خاطئ بأنَّ «الدفن» هو وضع الجسد مباشرة في الأرض، ما يجعلنا في خطر في حالة حدوث كارثة زومبي، نتخيل أن ما سيحدث يشبه فيديو أغنية «Thriller» لمايكل جاكسون، حيث تخترق يد متحللة التربة ويقفز الجسم بسهولة من قبره. كان الدفن في الماضي بهذه الطريقة فعلًا، لكن في عالمنا المتقدم لم يعد هذا مناسبًا، وبدلًا من ذلك يُحنَّط الجسم كيميائيًا، ثم يوضع في تابوت مغلق، ثم يوضع التابوت في قبو متين من الخرسانة أو المعدن تحت الأرض، وبهذا تحيط بالجسم عدة طبقات من الاحتضان الاصطناعي، وتفصله عن العالم العلوي، وفوق كل هذا يُثبَّت شاهد القبر، مثل كرزة على مثلجات بطعم إنكار الموت.

لا يفرض القانون بناء القبو أو شراء النعش، بل لكل مقبرة سياستها. والغرض من القبو منع تراكم الأوساخ حول الجسم، ما يجعل الحدائق أكثر تناسقًا ويجعل تنسيقها أقل تكلفة. وثمة إضافة اختيارية، إذ يمكن إضفاء

طابع خاص على القبو وبيعه بسعر أعلى. ليختر الأهل ما يناسب ميِّتهم: الرخام الصناعي؟ البرونز؟

وهناك خيار مختلف اختاره أصدقاء «إدوارد آبي»، الكاتب وعالم البيئة. فبدلًا من تركه يُدفن في مقبرة تقليدية، سرق أصدقاؤه جسده ولفُّوه في كيس نوم ووضعوه في صندوق شاحنته الصغيرة وتوجَّهوا إلى صحراء «كابيزا برييتا» بأريزونا. ساروا في مَدقٍّ ترابيٍّ طويلٍ وحفروا حفرة عن آخرها، ثم كتبوا اسم آبي على حجر قريب وسكبوا الويسكي على قبره تكريمًا مناسبًا لآبي الذي قضى حياته المهنية في تحذير البشرية من ضرر الانفصال عن الطبيعة. فقد قال فيما قال: «إذا كانت جثتي المتحللة تساعد في تغذية جذور شجرة عرعر أو أجنحة نسر، فهذا الخلود كافٍ بالنسبة إلي، وأفضل ما يستحقه أيُّ إنسان منا».

تُترك الأجساد البشرية لنفسها، فتتعفن وتتحلل وتتفكك، وتعود للأرض التي خُلقت منها، والاستخدام المفرط للتحنيط والنعوش الواقية الثقيلة لإيقاف هذه العملية مجرد محاولة يائسة لمنع المحتوم، وهو ما يظهر خوفنا الواضح من التحلل. تُقدَّم صناعة الموت النعوش والتحنيط تحت عنوان: «مساعدة الأجساد» على أن تبدو «طبيعية»، لكن طبيعة عاداتنا الحالية في الموت تُشبه طبيعة تدريب الكائنات المهيبة كالدببة والفيلة على الرقص بملابس صغيرة جميلة، أو إقامة نسخ طبق الأصل من برج إيفل وقنوات مدينة البندقية في وسط الصحراء الأمريكية القاحلة.

لم تكن الثقافة الغربية دائمًا بهذا النفور من التحلل، بل كانت علاقتنا بالتعفن حميميَّة تمامًا. في الأيام الأولى للمسيحية، عندما كان الدين لا يزال طائفة يهودية صغيرة تكافح للبقاء، واجه أتباع المسيح الجديد اضطهادًا شديدًا، وماتوا أحيانًا في سبيل دينهم. وكانت نهاية هؤلاء مروعة: لقد قُطعت رؤوسهم، ورجموا، وسُلخوا، وصُلبوا، وشُنقوا، وسلقوا في الزيت، وألقوا للأسود، وغيرها. على سبيل المكافأة، ذهب الشهداء مباشرة إلى الجنة، دون المرور على المطهر، ولا وقفة يوم القيامة، بل ينطلقون مباشرة إلى الملكوت.

بالنسبة إلى المسيحيين في العصور الوسطى، كان هؤلاء الشهداء والقديسون من المشاهير، وعندما أعلن الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحية ديانة قانونية عام 324م، أصبحت جثث القديسين الشهداء عوامل جذب رئيسة، ومجرد وجود جثة شهيد شهير في كنيستك، أو حتى قلبه أو عظمة من عظامه أو قارورة دم، يجلب جحافل المصلين، إذ آمنوا أن أرواح القديسين تحوم قرب جثثهم، وتوزع المعجزات والقداسة العامة لمَن يأتون تقديرًا لها.

لقد شفيت الأمراض! وانتهى الجفاف! وهُزم الأعداء! لكن لماذا تقتصر على مجرد زيارة قديس ميِّت بينما يمكن أن تُدفن في كنيسته نفسها؟ فمن المنطقي أن دفنك إلى الأبد «عند القديسين» من شأنه أن يوصِّلك إلى القديس في الحياة الآخرة، ويضمن حماية روحك الخالدة.

مع نمو الإيمان المسيحي، أصرَّ المزيد والمزيد من شعب الكنيسة على الدفن في الكنيسة وحولها للاستفادة من القرب من القديسين، وانتشرت هذه الممارسة في جميع أنحاء الإمبراطورية، من روما إلى بيزنطة وما يعرف الآن باسم إنجلترا وفرنسا، ونشأت مدن كاملة حول كنائس الجثث هذه.

ارتفع الطلب ولبَّته الكنائس مقابل رسوم بالطبع، وأراد أغنى المتبرعين للكنيسة أفضل المواقع: الأقرب للقديسين. ولو وجدت ركنًا في الكنيسة يسع جثة، فلا شكَّ أنَّك ستجد جثةً فيه، كانت الجثث في كلِّ مكان دون مبالغة، وكانت المواقع المفضلة هي نصف الدائرة حول حنية الكنيسة[1] وممر الدخول. وبعيدًا عن تلك المواقع الرئيسة كان الأمر متاحًا للجميع: فقد وُضعت الجثث تحت ألواح الأرضية، وفي السطح، وتحت الحافة البارزة من السطح، وحتى مكدسة في الجدران نفسها، وأصبحت الجثث في جدران الكنيسة تتفوق على عدد الرعية الأحياء.

دون تبريد، وفي حرارة أشهر الصَّيف، لا بدَّ أنَّ الرائحة الكريهة للتحلل في هذه الكنائس فاقت التصوُّر، وقد اشتكى الطبيب الإيطالي «برناردينو

(1) تجويف نصف دائري عليه نصف قُبة يُشبه المحاريب. – المترجم.

رامازيني» من «وجود الكثير من القبور في الكنيسة، وأنها تفتح كثيرًا لدرجة أنَّ هذه الرائحة الكريهة كثيرًا ما تكون واضحة جلية، ومهما بخَّروا الصروح المقدسة بالعطور والمر والروائح العطرية الأخرى، تظل مؤذية جدًا للحاضرين».

إذا لم تكن غنيًّا أو نافذًا بما يكفي لتحصل على مكان داخل الكنيسة، فستذهب إلى أحد القبور العديدة في فناء الكنيسة، التي وصل عمق بعضها إلى ثلاثين قدمًا وتحتوي على ما يصل إلى 1.500 جثة. وقد عكست هذه الممارسة تحولًا هائلًا عن الاعتقاد الروماني واليهودي في العصور الوسطى بأن الجثث نجسة ومن الأفضل الاحتفاظ بها في الضواحي البعيدة في المدينة، فقد كانت ساحة كنائس العصور الوسطى التي تحوَّلت إلى مقبرة مكانًا يجتمع ويلتقي الناس فيه، لقد كانت مركز حياة المدينة ومكان التنشئة الاجتماعية والتجارة. فباع الباعة الجعة والنبيذ للجماهير وأقاموا أفرانًا جماعية لإعداد الخبز الطازج. بل تنزه فيها كذلك العُشاق اليافعون ليلًا، وألقيت الخُطب في الحشود المتجمعة. وقد حظر مجمع روان عام 1231 الرقص في المقبرة أو الكنيسة تحت تهديد الحرمان الكنسي. والتهديد بمثل هذا الحظر الحازم يعني أن الرقص هناك كان هواية شعبية. لقد كانت المقبرة مكان اختلاط الأحياء والأموات في وئام اجتماعي.

***

أعلن المؤرخ «فيليب آرييس»، مؤلف الدراسة الرائعة الشاملة لألف عام من الموت في الغرب بعنوان الإنسان في وجه الموت[1]، أنه «من الآن فصاعدًا ولوقت طويل قادم، لم يعد الموتى قادرين على إثارة الخوف». وربما كان آرييس مبالغًا في كلامه، ولكن حتى إن خشي الأوروبيون في العصور الوسطى من الموت، فقد تغلبوا على خوفهم بفضل الميزة العظيمة لوجودهم بالقرب من القديسين، التي فاقت في أعينهم مساوئ العيش بقرب مشاهد وروائح غير مريحة.

(1) L'Homme devant la mort.

كان الموت في العصور الوسطى هو أوَّل حبٍّ حقيقي (أكاديمي) لي. لقد خطفت قلبي الهياكل العظمية الراقصة، واليرقات التي تزين القبر، والمعاظم، والأجساد المتعفنة في جدران الكنيسة. يختلف القبول الوقح بالتحلل البشري في أواخر العصور الوسطى تمامًا عما نشأت عليه، فلم أحضر في طفولتي إلا جنازتين وحيدتين: جنازة بابا أكينو، وكان وجهه محنطًا بشدة ومُجمَّلًا بالمساحيق يُطل من نعشه، وطقوس تأبين أم أحد أصدقاء الطفولة، التي لم يكن جسدها موجودًا أثناء الصلاة، وبدلًا من التحدث مباشرة عن وفاتها، تحدث القسُّ فقط بعبارات ملطفة: «كانت روحها خيمة، ورياح الحياة القاسية هبَّت من بين النخيل ونزعت أختنا!».

كان التحلل نادرًا حتى خلف الكواليس في ويست ويند، ففي مستودعنا العلماني للموت الحديث مات غالبية عملائنا في بيئات طبية، مثل: دور رعاية المسنين أو المستشفيات، قبل نقلهم سريعًا إلى ثلاجة التخزين البارد، والتي لا تُجمِّد لكنها تحافظ على درجة حرارة ثابتة أقل من 40 درجة فهرنهايت. وحتى لو تحتَّم على الجثث البقاء هناك لبضعة أيام في أثناء إصدار تصاريح الدفن، فمعظم الجثث تُحرق قبل وقت طويل من وصولها إلى مراحل التحلل ذات الرائحة القوية. ذات صباح دخلت وفتحت باب الثلاجة، ونحيت الأشرطة البلاستيكية جانبًا، وصُدمت برائحة التحلل البشري الواضحة والتي لا تُنسى.

سألت: «كريس، يا إلهي! لماذا؟ من الذي تنبعث منه تلك الرائحة؟»

أجاب كريس وهو يهز رأسه بجدية أقدرها: «اسمه رويس على ما أعتقد، جلبته بالأمس. الوضع ليس جيدًا ثقي بي»، ولم تكن الرائحة الكريهة الحمضية في الواقع مسألة مضحكة.

إذًا أنت يا رويس مصدر الرائحة الكريهة الجهنَّمية المنبعثة من الثلاجة. أطلقت أصابعي الصغيرة للريح لتقديم شهادة وفاته إلى المدينة حتى أتمكن من حرق جثته في أسرع وقت ممكن، وعندما فتحت حاوية حرق الجثث وجدت رجلًا أفضل ما يصفه أنه «مستنقع»، فقد تلوَّن رويس بالأخضر الزاهي، مثل لون سيارة كاديلاك من الخمسينيات. لقد وجد «عائمًا»، وهو المصطلح المؤسف لدى العاملين في الجنائز للإشارة إلى الجثث التي عُثر

عليها ميتة في الماء، وهو خليج سان فرانسيسكو في حالة رويس أرسلته إلى ألسنة اللهب بسرعة، وكلِّي اقتناع بأن يومي بين التعفن قد انتهى.

لكن الرائحة لم تختفِ، لقد اختفى رويس لكن الرائحة لم تختفِ، يتطلب هذا الأمر تحقيقًا، تحقيقًا من أسوأ نوع ممكن: تفقُّد حاويات الجثث الكرتونيَّة وشمُّها حتى... أنت «إلين!» المرأة التي جاءت من مكتب الطبيب الشرعي، إنه أنت بالفعل التي أنتنت أكثر من أسوأ شيء بغيض الرائحة في العالم، أنت يا من يتقشر جلدك ويسقط ماذا حدث لك؟ لقد كنتِ في السادسة والخمسين وتقول شهادة الوفاة إنك عملت في «مبيعات الأزياء».

وعلى عكس رويس، الذي طفا على الخليج لعدة أيام، لم أعرف قط ما حدث لإلين، وعندما تمكنتُ أخيرًا من إدخال المسكينة إلى المحرقة، جلست وقرأت فصلًا من كتاب «أوكتاف ميربو» حديقة التعذيب[1]، وهو كتاب صادفته لأول مرة خلال مرحلة الأدب الفرنسي المنحلة، لم أقطع ثلاثة أسطر في الفصل على وصف إحدى الشخصيات بأنها «شغوفة داهية تنبعث منها رائحة التحلل النتنة». كان أول رد فعلٍ لي: «جميل، مثلي تمامًا!» لكن أحقًا؟ لا. ليست مثلي، وليست مثل أيٍّ شخص عمل في ويست ويند. ربَّما امتلكتُ اهتمامًا أكاديميًا، لكن هذا لا يعني أنني منحرفة تأخذها بهجة مهووسة بالتعفن، لم أدخل الثلاجة كل يوم لأستنشق الرائحة بعمق، وأقهقه بسرور، وأرقص عارية في الجو البارد بسرور فاحش، بل جعدت أنفي في كل مرة أدخل الثلاجة وارتجفت وغسلت يدي اثنتي عشرة مرة في ذلك اليوم، كان التحلل بالنسبة إلي مجرد حقيقة من حقائق الموت، وتذكرة بصرية (وعطرية) مهمة بأنَّ أجسادنا عرضة للانهيار، وأنها مجرد ومضات ضئيلة في الكون الشاسع.

هذا التذكير بقابليتنا للانهيار مفيد، وسنكسب الكثير من إعادة التعرض المنضبط للتحلل. تاريخيًا، كان الرهبان البوذيون الآملون في الانفصال عن الشهوات وكبح رغباتهم في الخلود يتأملون في شكل الجثة المتعفنة.

---

(1) The torture Garden.

يُعرف التأمل باسم «تأملات المقبرة التسعة»، ويُركِّز التأمل على مراحل مختلفة من التحلل: «(1) انتفاخ (تشوسو)، (2) التفسُّخ (كايسو)، (3) نضح الدم (كيتسوزوسو)، (4) التعفن (نورانسو)، (5) تغير اللون والجفاف (سيوسو)، (6) استهلاك الحيوانات والطيور (لانسو)، (7) تقطُّع الأوصال (سانسو)، (8) العظام (كوسُّو)، (9) العودة لتراب (شوسو)».

يمكن أن تمارِس التأمل في نفسك، لكن غالبًا ما استخدم الرهبان صورًا لمراحل التحلل أو ذهبوا إلى أراضي الدفن للتأمل في جثة متحللة حقيقية. لا شيء يضاهي التعرُّض المستمر للجثث لإزالة الخوف المرتبط بها.

ولو اختفت الجثث المتحللة من الثقافة (وهو ما حدث) مع الحاجة إلى تلك الجثث المتحللة نفسها للتخفيف من الخوف من الموت (وهذا هو الواقع)، فماذا يحدث لثقافة يُخفى فيها التحلل؟ لا نحتاج إلى افتراضات؛ نحن نعيش في مثل هذه الثقافة بالضبط: ثقافة إنكار الموت.

يتَّخذ هذا الإنكار عدة أشكال، هوسنا بالشباب والكريمات والمواد الكيميائية وأنظمة إزالة السموم التي يدفعها مَن يبيعون فكرة أنَّ الشيخوخة الطبيعية أمر بشع، وإنفاق أكثر من 100 مليار دولارٍ سنويًا على منتجات مكافحة الشيخوخة في نفس العالم الذي يموت فيه 3.1 ملايين طفل دون سن الخامسة بسبب الجوع. يتجلى إنكار الموت في تقنيتنا ومبانينا، التي توهمنا بأن المشترك الذي يجمعنا بجثث الحيوانات التي نراها على الطريق أقل مما يجمعنا بالخطوط الأنيقة على جهاز الماك بوك.

والطريق لكسر الحلقة المفرغة وتجنب التحنيط والنعش والقبو الثقيل، هو ما يُسمى الدفن الأخضر أو الطبيعي، وهي طريقة متاحة فقط في مقابر معينة، لكن شعبيتها تزداد مع تزايد طلب المجتمع له. والدفن الطبيعي هو ما فُعل ببقايا إدوارد آبي، دون سرقة الجثة والذهاب بها إلى الصحراء، حيث يذهب الجسم مباشرة إلى الأرض في كفن بسيط قابل للتحلل وتوضع عنده صخرة لتحديد موقعه، ينطلق الجسد بحرية في التحلل، ويُطلِق ذراته مرة أخرى في الكون لخلق حياة جديدة، ولا يعدُّ الدفن الطبيعي الطريقة الأكثر سلامة بيئيًا فحسب، بل يكافح كذلك الخوف من التفتت وفقدان السيطرة،

فاختيار الدفن بشكل طبيعي يقول بلسان الحال: «لست أعي أنني كتلة مجزَّأة وعاجزة من المواد العضوية وحسب، بل إنني أحتفي بذلك. يحيا التحلل!».

ومع حلول هذه المرحلة من عملي في ويست ويند، كنت قد قررت بالفعل اختيار الدفن الأخضر لجسدي، لقد فهمت أنني وُهبت ذراتي، تلك التي يتكون منها قلبي وأظافر قدمي وكُليتاي ودماغي، بموجب برنامج للإقراض الشامل، وسيحلُّ الوقت الذي أضطر فيه إلى إعادة الذرات، ولم أرغب في محاولة التمسك بها بالحفظ الكيميائي لجثتي المستقبلية.

كانت مقاطعة مارين تحتوي على مقبرة دفن طبيعية مماثلة، بعد الجسر الذي يفصلها عن ويست ويند مباشرة. وهناك كان بإمكاني الجلوس على تلال المقبرة المنحدرة، والإطلال على القبور المُتحاذية والتفكير في موعدي الغرامي مع التحلل، لقد وجد الرهبان حريتهم في إزعاج أنفسهم، وبطريقة ما كنت أفعل الشيء نفسه، فالتحديق مباشرة إلى عيني خوَّفني، وهو ما لم أستطع فعله وأنا طفلة، وبالتدريج بدأت في التحرر منه.

الغُسل

ولد بوذا، معروف من صلته بالبوذيَّة، باسم «سيدهارتا جوتاما» فيما يعرف الآن بنيبال. لم يولد الشاب سيدهارتا مستنيرًا، بل قضى أول تسعة وعشرين عامًا من حياته في ترف وبذخ، وقد حُذِّر والد سيدهارتا الملك، من أنَّ ابنه سيكتسب فكرًا روحيًّا عظيمًا إذا لامس الألم أو الموت. وبطبيعة الحال، فضَّل الوالد أن يُصبح سيدهارتا ملكًا مثله، وليس مفكرًا ضعيفًا، لذلك حظر أي نوع من أنواع الموت بين جدران القصر.

وعندما بلغ سيدهارتا التاسعة والعشرين أعلن رغبته في استكشاف المدينة القريبة، وافق والده لكنه رتَّب الأمور بحيث لا يرى ابنه سوى الشباب الأصحاء وهم يمارسون أنشطة الشباب الأصحاء، لكن الآلهة لم ترضَ بهذا: لقد أرسلوا رجلًا عجوزًا بشعر رمادي، وأسنان مفقودة، وعرج واضح لمفاجأة سيدهارتا، الذي لم ير الهِرم من قبل. ورأى سيدهارتا بعد ذلك رجلًا مصابًا بالطاعون، وأخيرًا رأى جثة تُحرَق على لوح خشبي، وبعد أن رأى الشيخوخة والمرض والموت والعدم في رحلة واحدة، تخلى سيدهارتا عن حياة القصر وأصبح راهبًا، والباقي كما يقولون تاريخ ديني.

في قصة سيدهارتا، لم تكن المظاهر الجسدية الفجَّة للجثة المحترقة قوة سلبية، بل قوة إيجابية، فقد حفَّزت تحوُّله، لقد أجبرت مواجهة الجثة الرجل الذي سيصبح بوذا على رؤية الحياة على أنَّها عملية تغيير غير متوقع ومستمر، وما حجبه عن الاستنارة قبلها هي الحياة دون جثث، الحياة المحاصرة خلف جدران القصر.

لقد غيَّرت ويست ويند لحرق الجثث ودفنها فهمي للموت، فبعد أقل من عام من العمل بين الجثث، انتقلت من الاستغراب من أننا لم نعد نرى جثثًا إلى الاعتقاد بأن غيابهم كان سببًا جذريًا لبعض المشكلات الرئيسة في العالم الحديث.

تحافظ الجثث على ارتباط الأحياء بالواقع، لقد ظلت حياتي حتى بدأت العمل في ويست ويند خالية تقريبًا من الجثث، والآن أملك الوصول إلى عشرات الجثث المكدسة في ثلاجة محرقة الجثث، لقد أجبرتني الجثث على مواجهة حقيقتي أنَّني ميتة وأنَّ مَن أحب ميتون. وبغض النظر عن مقدار التكنولوجيا التي بين أيدينا، لا نحتاج سوى جثة بشرية ليرسو هذا القارب ويسحبنا مرة أخرى إلى الحقيقة التي لا تتزحزح بأننا حيوانات مكرَّمة تأكل وتتغذى وتموت بلا ريبٍ، كلنا مجرد جثث مستقبلية.

كان جيريمي، الجثة الموجودة على طاولة غرفة التَّجهيز اليوم، رجلًا في الثالثة والخمسين مغطى بالوشوم، وقد قضى نصف حياته في السجن، وكثير من الوشوم التي لديه رسمها بنفسه وتلاشت إلى مجرد لون أخضرَ باهتٍ، وعلى ذراعيه وجذعه وظهره تناثرت الأرقام والحروف. وامتلك جيريمي أيضًا وشمًا جديدًا تمامًا رسمه بعد خروجه السجن، وكان صورة ملونة للطيور والأمواج وغيرها مما يرمز إلى الحرية، فقد خرج من السجن وسعى للتحرر بعيش حياة جديدة مختلفة، كانت الوشوم مذهلة وفكرة اعتبار الجسد قماشة رسام تصبح أقوى عند وفاة اللوحة.

ومع شروعي في تغسيل جيريمي رنَّ جرس بوابة ويست ويند الأمامية. خلعت قفازي وتوجهت للفناء، وقبل أن أتمكن حتى من إطلاق: «مرحبًا، تفضلي»، صرخت امرأة، قدَّمت نفسها لاحقًا بأنها أخت جيريمي: «مرحبًا، أيتها الفارعة!».

قلت: «آه نعم، أنا طويلة جدًا؛ أنت مُحقة».

صرخت: «الله الله الله! يا لك من فتاة ضخمة وجميلة!»، وضمتني بعناق قوي. شكرتها على الرغم من أن قولها «فتاة ضخمة وجميلة» ذكَّرني ببروس

وهو يقول إنني يجب أن أتجنب السمنة هروبًا من الرواسب التي تتراكم على القلب.

أريت أخت جيريمي الطريق نحو غرفة الترتيبات، فقعدت وأخرجت مصاصة وبدأت في طحنها بأسنانها وهي تنقر الأرض بقدمها بسرعة، لا أودُّ أن أفترض شيئًا، لكن إن ضغطتم عليَّ سأخمِّن أنَّها منتشية بسبب نوع من أنواع الأمفيتامين، ليست أول فرد من العائلة أتحدث معها وهي في مثل هذه الحالة، وهذا عبء بيع خدمات الجنائز الرَّخيصة في أوكلاند.

قالت: «عزيزتي، إليكِ ما سنفعل: أريد جنازة لطيفة لجيريمي في سان فرانسيسكو، ثم سيُدفن في مقبرة قدامى المحاربين في ساك فالي. سأتبعك بسيارتي طوال الطريق».

كان إيقاع حديثها متزامنًا مع النقر على قدمها.

قلت: «هل تعلمين أنَّ المقبرة على بُعد ساعتين؟»

قالت: «ستحرقون جثته إذا لم أراقبكم، بل لست متأكدة أنكم لم تحرقوها بالفعل».

شرحت لها: «سيدتي، مقبرة المحاربين القدامى تتوقع وصول الجثة في تابوتها جاهزة للدفن، سنسلمها هناك يوم الخميس».

- أنت لا تنصتين، ما أقوله إن جسده ليس في تابوتٍ، لقد حرقتموه دون إذني.

حاولت أن أشرح لها بألطف طريقة ممكنة أنه ليس من المنطقي عمليًا أو ماليًا أن تحرق ويست ويند جثة جيريمي ثم تُسلِّم تابوتًا فارغًا إلى مقبرة ساكرامنتو فالي الوطنية، لكنها لم تقتنع.

لم تكن أخت جيريمي الوحيدة التي افترضت أننا أهل صناعة الموت لا ننوي أيَّ خير، بل امتلك الناس نظريات جامحة عما نفعله بالجثث، كانت النساء المسنات يتصلن بالمحرقة، وأصواتهن خائفة ومشوشة بعض الشيء.

أجيب: «ويست ويند لحرق الجثث ودفنها، معك كيتلين».

فتجيب سيدة ما: «مرحبًا يا عزيزتي، أنا إستل، سوف تحرقون جثتي حين أموت. لديَّ ترتيبات رسمية مع شركتك ودفعت ثمن كلِّ شيء، لكنني رأيت شيئًا في الأخبار هذا الصباح عن أنكم تحرقون الجثث معًا يا عزيزتي، هل هذا صحيح؟»

أقول بحزم: «لا، لا يا سيدتي! كلٌّ واحد يُحرق بمفرده هنا».

تقول إستل: «قالوا إنكم تضعون كومة من الجثث في نار، وتُخرجون كومة كبيرة من الرماد بعد ذلك ثم تغرفون من تلك الكومة».

- سيدتي، لا أدري من الذين يقولون.
- أهل الأخبار.
- حسنًا، أقسم لك إنهم لا يتحدثون عنا هنا في ويست ويند، كل شخص يحصل على الرقم التسلسلي الخاص به ويُحرق بمفرده.

تنهدت السيدة وقالت: «حسنًا، حسنًا يا عزيزتي، لقد عشت طويلًا وأخاف حقًا من أن أموت وأُلقى بين كومة من الجثث».

لم تكن إستل الوحيدة التي تحمل هذه المخاوف، فقد اتصلت امرأة ذات مرة لتسأل عما إذا كانت الجثث تُعلق في الثَّلاجة على خطافات مثل: لحم البقر. وأخبرني رجل غاضب أنه لا ينبغي أن نفرض رسومًا مقابل نثر الرماد في البحر لأن كل ما نفعله حقًا هو «إلقاء الرماد في المرحاض من علبة ملح ودفق الماء».

فلقد فتت كبدي سماع ما يقولون، حتى إن قالوه بصراخ وغضب. قلت في نفسي: «يا للهول! هل كنت تظن هذا؟ هل ظننتِ أنكِ حين تموتين ستُعلقين على خطاف اللحم قبل أن تُلقي في محرقة جماعية للجثث ثم يرمى رمادك في المرحاض؟».

أعادني سماع هذه المخاوف للثامنة حين كنت أعتقد أنَّ البصق في قميصي يحمي أمي من الموت، وبدأت تجربة استخدام الصراحة الكاملة معهم، فكل من طرح هذا النوع من الأسئلة حصل على إجابات واضحة وحشية. فإن سأل كيف تُصبح العظام رمادًا؟ أقول: «هناك آلة تسمى مطحنة العظام»، وإذا

سألوا هل سيتعفن جسدهم قبل حرق الجثة؟ أقول: «اسمع! تبدأ البكتيريا في أكلك من الداخل بمجرد وفاتك، لكن تبريد الجسم يضع حدًا لذلك». والشيء الغريب هو أنني كلما التزمت بالصراحة أكثر، ازداد رضى الناس وامتنانهم أكثر.

لقد أدَّى وجود شاهد الحرق على رغم تسارع قلبي وتوتري إلى حل العديد من هذه المشكلات، إذ رأى الناس ما يحدث بالفعل: رأوا الجسد، ورأوه ينزلق في فرن الحرق وحده، بل شاركوا بشكل رمزي في العملية بالضغط على زر إشعال النيران، وربما يكون الفرن آلة ضخمة تفتح فمها لتلتهم والدتك الميتة، لكن الضغط على الزر مثَّل طقوسًا تشاركية.

شعرت في نفسي بدافع يشتد شيئًا فشيئًا للعمل أكثر على تغيير طريقة فهم الجمهور للموت وصناعة الموت، وكانت هناك مجموعة رائعة من النساء في منطقة خليج سان فرانسيسكو يعملن في سبيل هذا التغيير، حيث أقمن الجنائز في منزل المتوفى، وأطلقن على أنفسهن اسم «قابلات الموت». لم تحصل هاته النسوة على تدريب أو ترخيص من صناعة الجنائز، لكنهن اعتبرن أنفسهن شعلة جديدة من عصر قديم جدًا، من عصر كانت الأسرة تعتني بالجسد بنفسها.

كما ذكرنا سابقًا، قبل الحرب الأهلية كان الموت والاحتضار مرتبطين بشدة بالمنزل، كانوا يقولون: «المنزل هو مكان الجثة» (لم يقولوا هذا، لقد لفَّقته، لكن لعلهم قالوه). ولأن الجثث كانت شأنًا منزليًا، فقد وقع واجب العناية بها على عاتق النساء، النساء يخبزن فطائر اللحم، ويغسلن الملابس، ويحممن الجثث.

تعتبر النِّساء رفيقات الموت الطبيعيات على مناحٍ كثيرة، ففي كل مرة تلد فيها امرأة، فإنها لا تُنجب حياة فحسب، بل أنَّها تُنجب أيضًا موتًا. لذلك كتب «صمويل بيكيت» أنَّ النساء «يلدن قبرًا». فالطبيعة الأم بالفعل أم حقيقية، تخلق وتدمر طوال الوقت بلا توقُّف.

وإذا رفضت ربة المنزل تغسيل وتكفين الجسد بنفسها، يمكن للعائلة أن تستأجر «مُغسلات الموتى». وفي أوائل القرن التاسع عشر، كان معظم مَن يعمل في هذه المهنة من النساء، وهو تقليد نُقل إلى المستعمرات الأمريكية من إنجلترا، حيث ظلت لفترة طويلة وظيفة مقبولة. فكانت هناك قابلات للرضع ومُغسِّلات للجثث: نساء يُحضرنك إلى العالم ونساء يُخرجنك منه.

لم يدرك معظم عملاء ويست ويند أنَّ الجثة ملك لهم وأنَّ طريقة العناية بها تعود لهم، لم يكن عليهم تسليم والدهم إلى دار الجنائز ولا حتى استئجار قابلة الموت. فهذا الجسد، لحسن الحظ ولسوئه ملك لهم، وليست العناية بأمواتك قانونية في ولاية كاليفورنيا فحسب، بل إن الجثث بعيدة كل البعد عن الصورة الشَّائنة التي ترسمها صناعة الموت الحديثة. في المجتمعات الإسلامية يعتبر تغسيل الموتى وتكفينهم في طقوس الغسل المعروفة باسم الغُسل، «عملًا محترمًا»، وربما أوصى الميت أو الميتة بمن يقوم على الغُسل، ويُغسَّل الرجالُ الرجالَ، والنساءُ يغسلن النساءَ، والاختيار تشريف والتزام مقدَّس يجب الوفاء به.

في القرون الماضية قبل أن يفهم المجتمع البكتيريا والجراثيم بأيٍّ درجة، اعتقد الناس أنَّ تفشِّي الأمراض، من الكوليرا إلى الطاعون الأسود، يحدث من «الهواء السيئ» الذي يصعد كالضباب من الجثث. لذلك عمدت المدن الكبيرة إلى دفن موتاها بعيدًا عن حدود المدينة، وعلى الرغم من المناظر والروائح السيئة التي ترسمها الجثث، فإن جسم الإنسان الميت لا يُشكِّل تهديدًا كبيرًا للحي، فالبكتيريا الموجودة في عملية التحلل ليست البكتيريا نفسها التي تسبب الأمراض.

قبل أسابيع قليلة من لقائي «بجيريمي» صاحب الوشوم وشقيقته، حظيت ويست ويند بزيارة من الآنسة «ناكازاوا»، وهي شابة توفيت والدتها في المنزل، أرادت الاحتفاظ بجثة والدتها في المنزل لبضع ساعات أخرى لتوديعها، لكنها قالت: «أخبرني محقق الشرطة أنني يجب أن أتَّصل بكم على الفور لأنها كانت مصابة بالسُكري والاحتفاظ بالجسد أكثر من هذا قد يضر عائلتي».

أجبتها بذهول: «معذرة سيدتي! ماذا قال لك؟»

- أخبرني أنَّ علينا أنْ نُحضر حانوتيًا لأخذها على الفور وإلا فسوف نمرض بسبب الجسد.

باختصار: اعتقد أحد محققي الشرطة أنَّ هذه العائلة ستمرض بمرض السُكري بعدوى من الجثة، وربما أخبرها أيضًا أنَّها قد تُصاب بالإيدز من مقعد المرحاض. وبغض النظر عن الفكرة المضللة بأن الإنسان يمكن أن «يُعدى» بمرض السُكري من شخص آخر، ناهيك بجثة، فإن معظم الفيروسات والبكتيريا، حتى التي تسبب الأمراض منها، تعيش فقط لبضع ساعات إضافية في جثة. والفيروسات النادرة التي تعيش لفترة أطول (مثل: فيروس نقص المناعة البشرية، الذي يعيش حتى ستة عشر يومًا) لا تُشكل خطرًا في الجثة أكثر من خطره في أي جسم حي. بل يُعتبر الطيران على متن طائرة أكثر خطورة على صحتك من الوجود في غرفة فيها جثة.

اتصلت الآنسة ناكازاوا بدار أخرى قبل ويست ويند، ولكن قيل لها إن عليهم قطعًا تحنيط أمها إذا أرادت العائلة رؤيتها مرة أخرى. قالت: «لا نريد تحنيط أمي». وفسَّرت قائلة: «إنها بوذيَّة ولم ترغب في ذلك، لكن مدير الجنائز أخبرني أنه يتعيَّن علينا تحنيط الجسد لأسباب صحية».

رائعة! إذًا في يوم واحد قال اثنان من «المحترفين» لهذه المرأة إن والدتها المتوفاة قنبلة موقوتة لموت شديد الخطورة سيُصيب عائلتها بأكملها. يقوم المحنطون بالتحنيط لأنهم يعتقدون أنه يجعل الجثة تبدو أفضل، ولأنهم لُقِّنوا أن هذا هو «الصحيح» و«اللائق»، ولأنه يجعل التحكم في المشهد أسهل. أيضًا لأنه مصدر رزقهم، وليس لأن الكائنات الحية الدقيقة الموجودة في الجسم غير المحنَّط تشكِّل أيَّ تهديد للعائلة. والآن بعد أن أصبح لدينا فهم متقدم لنظرية الجراثيم وعلم الموت، لم يعد لدى محققي الشرطة ومحترف الجنائز أي عذر للقول إن القرب من الموتى يضر بالأحياء.

بسبب الخرافات، التي لا يُشكك فيها حتى مَن يُفترض بهم أن يعرفوا الحقيقة، لم تُمنح هذه المرأة فرصة الجلوس مع والدتها حتى شعرت بأن أساها، كما قال أحد أصدقائي، «قد انتهى بطريقة ما». لقد فاتتها فرصة استيعاب ما حدث، فالجثة لا تحتاج منك أن تتذكرها. وفي الواقع، لم تعد

بحاجة إلى أيٍّ شيء، ومن دواعي سرورها أن تظلَّ مستلقية وتتعفن وتندثر، أنت من يحتاج إلى الجثة، فبالنظر إلى الجثة تفهم أن الشخص قد رحل، وأنه لم يعد حيًا نشطًا في لعبة الحياة. بالنظر إلى الجثة ترى نفسك وتعلم أنك ستموت كذلك. إن الصورة التي تراها تعتبر دعوة للوعي الذاتي، إنَّها بداية الحكمة.

***

حين تحدث حالة وفاة في جزيرة جاوة الإندونيسية، فيجب أن تجتمع القرية بأكملها في الجنازة. يُجرَّد الميت من ملابسه، ويُغلق فكاه بقطعة قماش تُلفُّ حول رأسه، وتوضع ذراعاه معقودتين على صدره. يغسِّل أقارب المتوفى المقربين الجثة، فيضعون الجثة في حجورهم، في وضع يسمح بابتلال الأحياء تمامًا بالماء معها، ووفقًا لعالم الأنثروبولوجيا «كليفورد جيرتز»، فإن فكرة احتضان الموتى بهذه الطريقة معناها أن تكون قادرًا على فعل شيء كريه وبغيض ومروِّع دون أن تجفل[1] رغم الخوف والاشمئزاز في نفسك.

يؤدي المُعزُّون هذه الطقوس ليصبحوا منفصلين عن الألم، ويسمح لهم احتضان الجثة وغسلها بمواجهة انزعاجهم وجهًا لوجه والانتقال إلى حالة تكون فيها «قلوبهم مرتاحة بالفعل».

حتى لو لم تدرك ذلك، فهذا هو الاستيعاب الذي تريده شقيقة «جيريمي» أيضًا، فبعد أن غادرت ويست ويند، مقتنعة أخيرًا أن جثة جيريمي لم تُحرق سرًّا. وقفت فوق جثته في غرفة التجهيز، قرأت القصة التي تحكيها وشومُه وتغلبت على الصوت المُقلق الذي يدور في رأسي في خلفية أشهري الأولى في ويست ويند مقترحة أنَّ الجثة ربَّما ترتفع يدها الآن وتمسك بي، مبقيةً إياي متوترة إلى الأبد، كما أنني لم أشعر بالقلق من أنني بطريقة ما سوف أسيء التعامل مع جسده أو كسره، وفكرت بدلًا من ذلك كله في معنى وشومه،

(1) جفل أي انزعج. – المترجم.

وكيف أنَّ بعض الناس سينظرون إلى هذا الرجل ويحكمون عليه بأنه مجرم قذر.

لقد كان مجرمًا فعلًا، لكنه كان أيضًا جميلًا. لست هناك للحكم عليه، بل لأجعله نظيفًا وألبسه بدلته المصنوعة من البوليستر ذات اللون الأزرق الفاتح والقميص المكشكش وحسب. رفعت ذراعه لغسلها، وأدركت أنني مرتاحة، أردت أن يعرف الآخرون أن بإمكانهم هذا أيضًا: التغسيل والارتياح. إن هذا الشعور الواثق والمستقر متاح لأي شخص إن تمكن المجتمع من التخلص من عبء الخرافات.

بعد عشرة أشهر من عملي في ويست ويند، علمت أنَّ الموت سيكون حياتي، أردت تعليم الناس رعاية موتاهم كما اعتاد أسلافنا على ذلك. أردت تعليمهم غسل الجثة بأنفسهم، والسيطرة بحزم على خوفهم، ظهرت أمامي عدة خيارات. الأول أن أحزم حقائبي وأهرب ليلًا، تاركة المحرقة للانضمام إلى قابلات الموت، وهذا يعني هجر صناعة الجنائز والأمان والشرعية (المُستحقة أو غير المستحقة) التي توفرها.

لم يكن لدي مانع أن أترك جزئية المتاجرة والرسوم الزائدة في الصناعة، كانت مشكلتي بوجه عام أن القابلات كن أكثر روحانية مني، لم يكن لدي أيُّ اعتراض أخلاقي على الزيوت المقدسة، والبخور، وشاكرات الموت، ولكن بقدر ما أحترم هؤلاء النساء لم أكن أرغب في التظاهر بأنَّ الموت كان «انتقالًا» في حين أراه حقًا مجرد موت وانتهينا، أنا علمانية حتى النخاع.

أما خياري الثاني هو الالتحاق بكلية الحانوتية، لكن هذا يعني التعمق أكثر في الصناعة وجميع ممارساتها المروِّعة.

قال لي مايك: «أتعلمين أنك لست بحاجة إلى الالتحاق بكلية الحانوتية يا كيتلين، لماذا ستفعلين بنفسك هذا؟».

لم يلتحق مايك نفسه بمدرسة الحانوتية، وهو المستفيد المحظوظ من قانون ولاية كاليفورنيا الذي لا يشترط الدراسة ليحصل الإنسان على رخصة

مدير جنائز، بل اشترط شهادة في أي شيء (انتظريني يا كلية نسج السلال)، وعدم وجود سجل بجنايات، والنجاح في اختبار واحد وحسب.

ولكن بعد أن اكتشفت شغفي في عمل الحانوتي أردت معرفة كل شيء وفهم كل شيء، يمكنني الهروب مع المتطرفين أو العودة للكلية للحصول على شهادة أخرى، وتعلُّم كيفية التحنيط وأرى من كثب ما كانوا يدرِّسونه، وبقدر ما جذبتني ممارسات قابلات الموت، لم أرد أن أحفر في البحر، أردت أن أكون داخل الصناعة، قررت أن أتقدم إلى مدرسة حفظ الجثث، تحسبًا وحسب.

الشاهد الوحيد

كنا في شهر نوفمبر حين أخذ مايك إجازة صيد لمدة أسبوعين مع زوجته وطفله، تاركًا إياي عدوة الأضواء، مسؤولة عن المحرقة. الأسوأ أنَّ مايك كان قد حدد موعدًا لحرق جثة مع الشاهد في بداية صباح الإثنين، وبرحيله سأضطر أنا إلى إجراء الحرق أثناء وجود شاهد مخيف.

توسَّلتُ: «عزيزي مايك، كرر كل الإجراءات ووزع تعزيزات إيجابية على الفور!»

استخدم مايك أسلوبًا مختلفًا، قال: «لا تقلق يا رجل! إنَّها عائلة لطيفة حقًّا، من نيوزيلندا أو أستراليا؟ أيًّا يكن، الابن رائع، وأعتقد أنه أعزب. إنه يحب مسلسل Six Feet Under، لذا أمامك فرصة حاولي أن تبدي جميلة يوم الإثنين، لقد ورث نحو عشرين عقارًا، أنا أحاول الجمع بينكما».

إنني في بداية رواية «لجين أوستن» لو تخيلنا السيد «دارسي» ابنًا حزينًا ومن متابعي HBO المتحمسين و«إليزابيث» عاملة حرق جثث مبتدئة.

تتربص الكوارث بكلِّ حركة في حرق جثمان عند وجود شاهد، فقبل أسابيع قليلة فقط تعطَّل النظام الكهربائي للحزام الناقل الذي نستخدمه لنقل الجسم إلى الفرن، وتسبب هذا في توقُّف الحزام لبعض الوقت، لن يكون التأخير مشكلة كبيرة إذا كنت وحدي، فيمكنني حلُّ المشكلة عن طريق الركض ودفع الصندوق الورقي إلى الفرن، ولكن إذا توقف الحزام النَّاقل أثناء وجود شاهد، فإن هذا الخيار يبدو أقلَّ قابلية للتطبيق.

ظللت أتدرَّب على ما سأقوله إذا حدث ما لا تحمد عقباه: أوه، نعم، هذا الناقل يتوقَّف هنا دائمًا. ومن هنا أركض من أول المحرقة وأصدم نفسي بالصندوق الذي يحتوي على والدتك وأطلق نحو النيران. إجراء معتاد يا سيدي؛ لا تقلق!

في ليلة حضور شاهد الحرق أزعجتني كوابيس انكسار حزام النقل، أو انطفاء الماكينة وأنا أدخل الجثة، لم يحدث ذلك من قبل ولكنه ممكن من الناحية النظرية، وممكن في ظل سوء حظي الدائم.

لم يكتفِ مايك بهذا، بل قدَّم لكوابيسي مادة أخرى (إلى جانب إخباري أنه يريد أن يجمعني مع ابن المتوفاة)، بل نبهني أيضًا قائلًا: «احذري، لا تبدو بحالة جيدة».

ستسافر العائلة بأكملها من نيوزيلندا (أو ربَّما أستراليا) إلى هناك والمتوفاة «لا تبدو بحالة جيدة». وماذا يعني هذا من الأساس؟

معناه كما اكتشفت صباح يوم الإثنين، هو أن بقعًا غريبة من العفن البرتقالي اللامع قد ظهرت على خدَّي الأم وأنَّ أنفها يُغطَّى بقشرة بنية صلبة، كان وجهها منتفخًا وناعمًا مثل خوخة مفطرة النُّضج وقاربت على التعفن، يكتسي جلد الإنسان بمجموعة ألوان باهتة من الكريمي والبيج والرمادي الداكن والبني في حياة صاحبه، ولكن تُرفع كل القيود حين يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويسمح التحلل للجلد بالازدهار بجميع ألوان الباستيل والنيون الزاهية، وتصادف أن تحولت هذه المرأة إلى اللون البرتقالي.

بمجرد وصولي إلى العمل بدأت في وضع مساحيق التجميل على وجهها، فاستخدمت كل المتاح في مجموعة مستحضرات التجميل الخاصَّة في ويست ويند، نصفه من مساحيق التَّجميل المخصصة للجثث والنصف الآخر من عبوات مساحيق تجميل من الصيدلية القريبة، حاولت تصفيف شعرها بدقة ليجذب الأنظار بعيدًا عن آثار التحلل، ووضعت ملاءات بيضاء حول وجهها، الذي أصبح بحجم (ولون) كرة السلة، في محاولة لجعلها تبدو كالملاك، وبعد أن أصبحت تحت ضوء المصباح الوردي في غرفة الرؤية، لم يبدُ بها خطب.

طمأنني كريس: «ليست رثَّة جدًا، عملك ليس سيئًا يا كيت، كانت تبدو بحالة غير جيدة في السابق».

- شكرا يا كريس.

- اسمعي! يجب أن أحضر السيد كليمونز من دار المسنين في شاتوك، إنهم لا يحتفظون بالجثث تحت أي ظرف، لقد اتصلت الممرِّضة وصرخت في أذني ثلاث مرات.

قلت: «كريس، سيأتي شاهد الآن، ليس هناك غيري!».

قال: «أعلم، أعلم. أختلف معه أيضًا، ما كان يجب أن يتركك مايك هكذا، إنه يرى كلَّ شيء سهلًا، أنت بحاجة إلى دعم».

بغض النظر عن درجة صحة هذا، فقد انطلق ردُّ فعلي المعتاد وقلت: «لا، سأتولى الأمر».

إنه الخوف من أن أبدو ضعيفة أو غير كفؤ أسوأ من أيِّ كارثة أتخيلها من تعطُّل حزام النقل أو الجلد البرتقالي.

- انطلق يا كريس، لا تقلق.. سأتولى الأمر.

بمجرد رحيل كريس، ظهر ابن المرأة (عريس أحلام خالتي مايك لمؤلفتكم العزيزة) وفي ذيله عشرة من أفراد العائلة، اصطحبتهم إلى غرفة الرؤية وأريتهم الجسد، وقلت: «سأترككم معها على انفراد، خذوا راحتكم».

وانسحبت باحترام من الغرفة.

حالما أُغلقت الأبواب، وضعت أذني على الخشب متلهفةً لسماع ردِّ فعلهم، كان أول شيء قاله الابن بشكل قاطع: «كانت تبدو أفضل من قبل، شكل أمي أفضل بكثير قبل كل هذه المساحيق».

أردت بشدة أن أفتح الباب وأصرخ: «هل تقصد حين كان التحلل يغطي وجهها؟».

لولا أني أدرك أنَّها ليست أفضل فكرة لخدمة العملاء. بعد أن هدأت وتجاوزت الإهانة الموجهة لأعمالي اليدوية، أردت التحدُّث مع الابن مرة

أخرى لأخبره أنني لا أتفق مع سياسة وضع مساحيق التجميل للجثث أيضًا؛ الطبيعي أفضل، لكن لو أنَّه رآها لربما وافق على أن مساحيق التجميل مبررة في هذه الحالة.

ثم سأطلب منه توضيح ما كان يقصده بعبارة: «كانت تبدو أفضل من قبل». هل يعني بـ «قبل» عندما كانت لا تزال على قيد الحياة؟ هذا منطقي، أم يعني حين رأى والدته آخر مرة ولم تكن بعد لون قمع المرور؟ وأكثر ما أثار قلقي على الإطلاق هو احتمال أنه ربَّما إحدى الشخصيات النادرة التي لا يزعجها وجود جثة بدأت بالفعل في مراحل التحلل. في هذه الحالة سيكون مايك محقًا، لعله هذا هو فتى أحلامي، لكن على أيٍّ حال، لم تحدث هذه المحادثة على الإطلاق وأنا متأكدة تمامًا من أنَّ علاقتنا الرومانتك-كوميدي محكوم عليها بالفشل، رغم طريقة اللقاء الجميلة.

أخذت الأسرة وقتها في رؤية أمهم قبل استدعائي لبدء حرق الجثة. حين عدت للكنيسة شعرت بالذُّعر حين وجدت دخانًا يتصاعد من جانبي الجثة، كانت الأسرة قد وضعت عدة حزم سميكة من نبات المريمية المشتعلة في ثنايا ملاءاتها البيضاء، ولا نسمح في الدار عادة بإشعال النيران في غرفة الرؤية، ولكن بما أن مايك غير موجود تركت الأمر يمر.

إلى جانب البخور، وضعت الأسرة بين يديها لوح مثلجات مصنوعًا من القهوة واللوز من علامة HäagenDazs كأنَّه سلاح بين يدي أحد محاربي الفايكنج، هذه هي أحب المثلجات إلى قلبي، لذلك صِحتُ لا إراديًا: «هذه مثلجاتي المفضَّلة!».

لقد نجحت في إبقاء فمي مغلقًا حتى تلك اللحظة (حتى بعد إهانة مهاراتي كمتخصصة في تجميل الجثث)، لكن المثلجات أمر لا يمكن السكوت عنه.

لحسن الحظِّ ضحكوا وحسب، كان لوح المثلجات بالقهوة المفضلة لأمهم أيضًا.

مع خروج كريس لجلب السيد كليمونز، ترك لي نقل الأم إلى المحرقة، كان أوَّل عمل لي هو صدم النقَّالة بشدة بإطار الباب، ما أدى إلى إطلاق دخان

المريمية إلى الأمام، لا أتذكر بالضبط ما قلته، عمل الحانوتية يشوِّش الذاكرة، لكنها كانت عبارة على غرار «أووب!» أو «الباب الأول غريب دائمًا!».

وضعت الأم على حزام النقل دون حوادث، وبعد ذلك تحرَّك الحزام بأزيزه المهدئ نحو الفرن. تركت ابنها يضغط على زرِّ إشعال النيران، ومثل كثيرين من قبله تأثر بشدة بطقس الضَّغط على الزِّرِّ، أظهر البخور والمثلجات أنَّ هذه العائلة اعتادت الطقوس، وللحظة بدا لي أنه نسي الباب الذي صدمته والمساحيق المسرحية (رغم أنه لم يُفتن بي لدرجة طلب موعد غرامي معي).

بينما كان مايك في إجازة، أحرقت سبعة وعشرين بالغًا وستة أطفال وجذعين تشريحيين، وكانت مع ثلاث من تلك الجثث شهود، وجرى كل شيء على ما يرام.

في صباح عودته الأولى، رفع مايك عينه من الأوراق وقال: «أنا فخور جدًا بكِ».

كدت أنفجر في البكاء حينئذ، شعرت وأنني فتحتُ عكا، ولم أعد فتاة تلعب مع الجثث لعبة التلبيس، لم أعد هاوية، أصبحت عاملة حرق جثث، هذا شيء أعرف كيف أفعله، وأصبحت أملك هذه المهارة، إنني ماهرة فيها.

لو أنَّ مايك عمل على إرضاء غروري بالطريقة كما كنت أتمنى، أو هنَّأني على كنس الفناء جيدًا أو حرق خمسة أطفال قبل حلول الساعة الخامسة، لكنت قد أصبحت عاملة أقل كفاءة بكثير، لقد نجحت لأنني كنت بحاجة إلى إثبات نفسي أمامه.

تابع مايك: «لقد تفوقتِ على أكثر من 95% ممن وظفناهم، يا رجل!»

ضيقت عيني وقلت: «مهلًا، من هم 5% الذين تفوقوا عليَّ؟ من الأفضل أن يكون هذا مجرد تعبير».

أجاب: «عادة ما يتعين علينا توظيف أشخاص بلا خبرة، أو إن كانوا ذوي خبرة، يكونون حمقى من شركات نقل الجثث، إنه عمل مقزز نوعًا ما».

أضفت: «وضعيف الأجر».

قال ضاحكًا: «لا، وقد خدعناك لتفعليه».

لم تدم حماستي باقتناص المديح المستحق من مايك طويلًا، وتحوَّلت على الفور إلى شعور بالذنب، كنت قد تقدمت إلى مدرسة حفظ الجثث، وقُبلت فيها.

قبولي لا يعني أني ملزمةٌ بالحضور، كان هذا نهاية عام 2008 وبداية الأزمة الاقتصادية، وقت أحمق لترك وظيفة مستقرة حتى لو كانت وظيفة غريبة كحرق الجثث، لكن حياتي في سان فرانسيسكو كانت لا تزال مملة ووحيدة، وكانت كلية «سايبريس للعلوم الجنائزية» (إحدى كليتين للتحنيط في كاليفورنيا) في مقاطعة أورانج، وهي أرض العجائب في الضواحي جنوب لوس أنجلوس وموطن تصوير «Real Housewives» وديزني لاند. لم أرغب في أن أكون اختصاصيَّة تحنيط، وهو ما تدرسه الكليات المماثلة لكلية سايبريس، لكنني أردت أن أكتشف بنفسي كيف يدربون أعضاءهم المستقبليين. أين بالضبط موضع الخلل: في أهل الصناعة، أم الذين علموهم، أم الصناعة نفسها؟

ثم هناك لوك الذي أفكر فيه أكثر مما أعترف به أمام نفسي، كان يعيش في جنوب كاليفورنيا لعدة سنوات. في السنة الأخيرة من الكلية خططنا للانتقال إلى لوس أنجلوس معًا، واستئجار شقة، والعيش كفنانين مفلسين ولكن يشعران بالرضا. لكنني انطلقت شمالًا إلى سان فرانسيسكو وطاردت أرنبي البري من الهوس بالموت، لقد كان قرارًا أنانيًا في ذلك الوقت، لكن الأمور مختلفة الآن، أصبحت أعرف من أنا، وأصبح لحياتي هدف، وأصبحت على استعداد لأن أكون معه.

سأل لوك متشككًا: «إذًا، ستنتقلين إلى لوس أنجلوس يا دوتي؟ أحقًا هذه المرة؟»

- لا تغتر بنفسك يا صديقي، فلست أريد الانتقال إلى لوس أنجلوس على وجه الخصوص، بل أحتاج إلى الابتعاد عن كل هذه الجثث. هل قرأت رواية «انفجار في كاتدرائية»[1]؟ (لقد سئمت السكن بين الموتى، كل

(1) Explosion in a Cathedral من تأليف "أليخو كاربنتر". - المترجم.

شيء تفوح منه رائحة الجثث هنا، أريد أن أعود إلى عالم الأحياء، حيث يؤمن الناس بشيء ما).

ضحك لوك: «كل شيء تفوح منه رائحة الجثث؟ ما مجازك من ذلك؟ هل المحرقة مبنية بالجثث؟».

- نعم، ولكن من الصَّعب للغاية البناء بها.

- ظننت أنَّها قاسية جدًا.

- صحيح، إنَّها جيدة جدًا في البداية، لكن تحللها المستمر يضر بسلامة الأساسات. لا يمكن الاعتماد عليها، أتفهمني؟

- كيتلين، أعتقد أن عليك الخروج من هناك قبل أن تنهار كل تلك الجثث من حولك.

رجَّح لوك كفَّة الميزان، فقلتُ: «سأرحل جنوبًا في الشتاء».

أخبرت مايك أخيرًا بعد أسبوع، لم تظهر على وجهه أي تعبيرات وقال: «حسنًا، إذا كان هذا قرارك».

بدا على كريس أكثر أنه لا يريدني أن أرحل، لدينا ذكريات مشتركة مثل المرة التي نقلنا فيها مسنًا مولعًا بالتكديس، وجدناه وسط بركة من دمه على أرضية المطبخ، وامتلأت الطاولة بعلب زبدة الفول السوداني وحاويات النوتيلا التي تزحف الصراصير إلى داخلها وخارجها، كانت العديد من ذكرياتنا مقززة، لكنها كانت ذكرياتنا.

مع اقتراب رحيلي، نشرنا إعلانًا لوظيفتي على الإنترنت، وتقدَّم الناس بأعداد كبيرة، لا بدَّ أن سوق العمل صعبة هذه الأيام، لأن الناس بدوا متحمسين للعمل في مشرحة.

تقدم العديد من الأشخاص إلى الوظيفة، لكن هذا لا يعني أن العديد من الأشخاص الجيدين تقدَّموا. من بين رسالة التقديم: «يمكنك الوثوق بي لأنني مسلم، أنا لا أغش أبدًا. ولو وجدت 100 دولار على الأرض فلن ألتقطها، الشيء الوحيد الذي يحركني هو الحافز: إذا ركضت 3 أميال في اليوم، ما الذي سأحصل عليه؟».

ثم كان هناك عدد لا يحصى من طلبات التقديم التي تحوي أخطاءً إملائية نحوية ومصطلحات غير صحيحة: «الهدف: اكتساب الخبرة والحصول على فرصة للعمل في مجال المشرحة».

وظهرت الجواهر الحقيقية حين اصطفينا عدة أشخاص لملء استبيان إضافي، اعتقدت أنَّ الاستبيان كان بالغًا قليلًا حين قال: «لو كنت شجرة، فما نوع الشجرة التي تحب أن تكون؟» ولكن علينا أن نفصل الغثَّ من السمين.

س: فيما يقرب من 300 كلمة اشرح سبب اهتمامك بالعمل في مشرحة.

ج: أحب الموت.

س: هل أنت على علم أو هل شاركت في أي طقوس دينية أو روحية متعلقة بالموت؟ يرجى وصف هذه الأحداث.

ج: ألعب بلوح «الويجا» ذات مرة.

س: هل أنت قادر على التعاطف مع الناس دون أن تتورَّط عاطفيًا بشكل شخصي؟ صِف الموقف الذي تمكَّنت فيه من ذلك.

ج: أقتل مجموعة من الناس ذات مرة.

س: هل أنت قادرٌ على التَّحلي بالمرونة فيما يتعلق بواجبات وظيفتك ووصفها؟

ج: نعم، بكل تأكيد.

وبغض النظر عن مؤهلات هؤلاء المرشحين، عيَّن مايك في النهاية جيري وهو رجل أمريكي من أصل إفريقي طويل وجذَّاب. المفارقة أنَّ جيري كان

يعمل سابقًا في خدمة نقل الجثث. لقد كان أحد الحمقى الذين أقسم مايك مئة يمين قبل أسابيع قليلة فقط إنه لن يعيِّن أحدهم، أعتقد أنه عندما وجد أن خبرة المرشح الآخر هي لعب «بلوحة ويجا ذات مرة»، تغيرت وجهة نظره.

قبل أسبوع من مغادرتي، كانت سيارة كريس البيضاء المتداعية في الصيانة، وقد أخطأت ووصفت شاحنته المحبوبة بهذه الكلمة فرد: «متداعية؟ سيدتي الشابة لا تنتقصي من قدرها، إنَّها معي منذ عشرين عامًا، إنَّها حوتي الأبيض العظيم، والوحش الذي يلتهم الطائشين».

أوصلت كريس إلى منزل والديه، كان المنزل مرتفعًا على تلال بيركلي، حيث عاشت عائلته منذ الخمسينيات. دلني إلى قاعدة شجرة في وسط الفناء الأمامي وقال: «يا كات، أريد أن أريكِ شيئًا».

كانت شجرة ماموت ساحلية بارتفاع يبلغ نحو خمسين قدمًا ومُحيط عشرين قدمًا.

- ماتت أمي وأنا صغير جدًا، لذلك قضيت الكثير من الوقت مع جدتي. بعد وفاة أمي، أعطتني جدتي إحدى أوراق هذه الشجرة وأخبرتني أنني إذا زرعتها في الأرض ستنمو منها شجرة. بدا الأمر سخيفًا، لكنني زرعت الورقة في وعاء قهوة ماكسويل هاوس وسقيتها ثلاثة أكواب من الماء كل صباح. وها هي.

رَبَت بلطف على قاعدة الشجرة واستكمل: «هذه شجرتى، إذا سألتني ما هو أعظم إنجازاتي في هذا العالم، ها هو ذا».

وتابع: «بالطبع، إنَّها كبيرة جدًا الآن لدرجة أنَّ الجذور بدأت تتوغل في ممر جارتي. ويومًا ما ستتصل بالمدينة وتجعلهم يأتون ويمزقون كل ما وصل إلى ممتلكاتها وتموت الشجرة بأكملها. ستتعفن وتنهار، تراودني كوابيس حول هذا».

الكثير من العاطفة.

اندهشت حين أقام موظفو ويست ويند حفلة لتوديعي، كان الجميع هناك. كريس الذي لم يكن يهتم كثيرًا بالحفلات، لكنه غادر مبكرًا بعد إهدائي حقيبة

حفلات بلاستيكية مغطاة ببالونات زاهية، وما حوته كان شيئًا واحدًا: جوز الهند المجفف.

قلت: «إنه... جوز الهند؟ شكرا كريس».

قال: «في عام 1974، في أثناء إقامتي بهاواي، ألقى صديقي هذه الجوزة في المقعد الخلفي لسيارتي البرتقاليَّة من نوع فورد بينتو وقال: (جوزة الهند هذه مهمة جدًا. احتفظ بها، وخذها معك أينما ذهبت). فعلت، والآن أعطيها لكِ».

يمكنك الاعتماد على كريس دائمًا في جعل ثمرة جوز هند معه منذ خمسة وثلاثين عامًا في حقيبة فسفورية شيئًا عميقًا. تأثرت وقد عانقته عناقًا غريبًا.

قال: «وداعًا، كات»، وخرج.

في وقت لاحق من ذلك المساء وأنا ثملة جدًا، فتح مايك وبروس نقاشًا حول العمل (لم يكن لدى أي منا مواضيع أخرى نتحدث عنها غير العمل)، ولكن لم يكن هذا هو الحديث المعتاد حول الأحمق الذي يعمل في محرقة منافسة أو الحالة الصعبة التي جاءت الأسبوع الماضي، بل حول الجوانب الوجودية التي أردت التحدث عنها منذ زمن طويل.

حكى بروس قصة ترتيبات كان يعقدها قبل عشر سنوات مع امرأة حامل، أخبرته المرأة أنَّها لطفلها. عندما دخلت، قلت لها: «من المؤسف ما حدث لطفلك، لكنك محظوظة بحملك؛ ستنجبين طفلًا آخر». لكن الطفل الذي كانت تجري الترتيبات بشأنه كان الطفل الذي في بطنها، لقد مات ولم يتمكنوا من إخراجه بعد. كانت في الشهر الثامن، صدمني هذا؛ إنَّها تجلس أمامي وبداخلها طفل ميت. هذا محيِّر؛ أتذكرها بعد كل هذه السنوات وحتى يومنا هذا يا رجل، لمثل هذا يُدمن الكثير من العاملين في هذا المجال الكحول والمخدرات، ليمكنك أن تنسى ما رأيت».

أسند مايك رأسه على الحائط، ولم ينظر إليَّ مباشرة، ثم سألني كأنَّه يريد بصدق إجابة: «أليست هناك أوقات يهزمك فيها الحزن؟»

- حسنًا، أنا...

قاطعني: «عندما تكون الأسرة حزينة وتائهة جدًا، ولا أملك ما أساعدهم به؟».

أظنني رأيت الدموع في عينيه، كانت الغرفة مظلمة لست متأكدة، كان مايك إنسانًا رغم كل شيء: روح أخرى تحاول التكيُّف مع عالم الموت الغريب الخفي، وتحاول العمل واستيعاب ما يحدث.

بقدر ما كنت متشوِّقة إلى الحديث مع شخص ما عن هذه الأشياء بالذات، لم يمكنني سوى أن أغمغم بـ: «أتفق معك، لكن ما باليد حيلة، أليس كذلك؟»

قال : «هذه حقيقة.. حظًا سعيدًا في لوس أنجلوس».

وبهذا، انتهت مسيرتي المهنية في دار ويست ويند لحرق الجثث ودفنها.

ريد وودز

في الليلة الأخيرة التي قضيتها في رونديل بليس اتصل مالك المنزل -الناشط النباتي الفلبيني الكاثوليكي (وجامع تماثيل الملائكة) الذي عاش في الشقة التي فوقنا- بالشرطة للإبلاغ عن اثنين من المحترمين الذين خرجا من إيستا نوتشي في الساعات الأولى من الصباح، وبعد التبوُّل على الجدران، جلسا على درجنا للتدخين والمداعبة والهمس بأشياء إسبانية حارة.

تحوَّل الهمس إلى صراخ: «Por qué no me amas؟»، ثم تحول إلى ضربات قاسية. كان على القانون أن يتدخل.

في وقت مبكِّر من صباح اليوم التَّالي، بعد ليلتي مع العرض التلفزيوني الحي، هجرت رونديل بليس في شاحنة مستأجرة من شركة يو هول للنقل، تحمل كل ممتلكاتي الدنيوية مع قطتي وثعباني، قطع طاقمنا المتنوع الرحلة التي استغرقت ست ساعات من سان فرانسيسكو إلى لوس أنجلوس جنوبًا.

طلب مني لوك الإقامة في منزله فيما أبحث عن شقة، لكن مجرد حضوره كان مؤلمًا لرغبتي الساحقة في الإفصاح عن مشاعري تجاهه. وخوفًا من أن تخل هذه المشاعر بالتوازن الدَّقيق لعلاقتنا، رفضت عرضه واخترت بسرعة الاستقرار في «البلدة الكورية». حذَّرني العديدون من أنَّها «حي سيئ»، ولكن بعد العيش في رونديل بليس بدا جنَّة، كان بإمكاني السير في الشارع دون أن أصادف إطلاقًا رجلًا عاريًا يتغوط خلف سيارتي أو امرأة ترتدي زيًّ مهرج فضائي تدخن الهروين من أنبوب زجاجي، وربما شهدت بعض صفقات

المخدرات الصغيرة أو عنف العصابات في شارع كاتالينا، ولكن بالمقارنة مع روندیل بلیس کان واحة غناء[1].

في لوس أنجلوس، انغمستُ بشدَّة في البحث عن الموت والثقافة: ليس فقط كيف أثَّرا على سلوكنا بل ولماذا أيضًا؟ كان العمل مع الموت مثل دعوة لي، وقد تبعتها بجدية لم تسمح بها طبيعتي الساخرة من قبل، فامتلاك هدف بهجة كاملة.

ولكني تأرجحت بين الشعور بالابتهاج وشعور آخر مناقض تمامًا، لقد آمنت بشدة بأهمية طقوس الموت لدرجة أنني قلقت من أن أكتشف لاحقًا أنه اهتمام مرضي. الأسوأ من ذلك هو خوفي من العزلة، لقد كنت قائدة لطائفة دينية غريبة، لكن حتى الآن لم يكن معي أيُّ شخص آخر في المعبد، وزعيم طائفة بلا أتباع هو مجرد رجل مجنون بلحية.

لكن لدي لوك، إنَّه المكان المريح الذي أهرب إليه من قيود الموت وألجأ إلى إلهاء الحب السَّعيد، أو هذا ما ظننته.

لقد عشت أخيرًا في المدينة نفسها التي يعيش فيها لوك، لكنني ما زلت غير قادرة على التَّحدث إليه وجهًا لوجه، كلماتي خطيرة جدًا. وحين ثقل السرُّ على صدري كتبت له رسالة أخبره بمدى احتياجي إليه، وكيف أن دعمه هو الشيء الوحيد الذي حماني من الانهيار في عالم يسهل فيه جدًا أن تترك نفسك لليأس. انقسمت الرسالة بالسوية بين العاطفة الشديدة والعدمية الثقيلة. أمر مناسب في ظني، لأنها تمثلني تمامًا أنا ولوك، تركت الرسالة له في صندوق بريده في منتصف الليل، شعرت أنه كان يتوقع ذلك بكل تأكد، وأن رده سيكون بنفس حماسة تصريحي.

وبعد ذلك، عمَّ الصمت.

بعد عدة أيام، تلقيت بريدًا إلكترونيًا من سطر واحد من لوك:

«لا تطلبي مني هذا، لا أستطيع رؤيتك بعد الآن».

---

(1) الأرض الغناء أي كثيرة الشجر. – المترجم.

في مكان ما في العالم كان لوك على قيد الحياة، لكن العلاقة التي عرفتها والصداقة التي عزَّت على قلبي انهارت إلى غبار أمام عيني. كان نوعًا من الموت، وكان الألم قاسيًا، لم يحتج عقلي إلى وقت طويل كي يعود للوضع القديم: المونولوج الداخلي المعتاد. كانت بعض المقاطع مشابهة للنص الذي رافق طفولتي: «ثمَّة مَن لا يجدون لقمة تسدُّ رمقهم ويموتون حقًا لا مجازًا. هذا رجل واحد لا يريدك أيتها المتذمِّرة الغبية». وأضيفت مادة جديدة إلى النص: «أظننتِ أنَّ بإمكانك الهروب؟ حسنًا، لا يمكنك. أنت ملك للموت الآن، ولا يمكن لأحد أن يحب شخصًا مثلك، كلُّ شيء تفوح منه رائحة الجثث هنا».

دامت وظيفتي في ويست ويند حتى نهاية نوفمبر، ولم تبدأ كلية العلوم الجنائزية حتى يناير، وفي الفترة الفاصلة شعرت أنني تائهة بلا هدف، قدت سيارتي إلى أقصى شمال كاليفورنيا للتنزه بين أشجار «ريد وودز» العملاقة، عازمة على صرف ذهني عما حدث مع لوك، وكتبت لأصدقائي ووالدتي بريدًا إلكترونيًا مرحًا يوضح بالتفصيل ما أردت فعله بجثتي (وجثة قطتي) إن هلكت بين الطرق الجبلية الملتوية.

نزلت بنُزل ريد وود، وهو منزل قديم على ساحل شمال كاليفورنيا المتعرِّج، انطلقت في اليوم التالي للعثور على مسار أشجار الكاتدرائية، الذي مشيت فيه منذ عدة سنوات قبل ذلك، لكن لسبب ما لم أجده. قدت السيارة صعودًا وهبوطًا على الطريق السَّريع غير قادرة على تحديد موقع المدخل، فجأة أفلت غضبي من لجامه، وضربت بقدمي على دوَّاسة الوقود حتى آخرها ووجهت السيارة بأقصى سرعة نحو حافة منحدر، ثم أدرت العجلات في اللحظة الأخيرة لتجنُّب الوقوع، أوقفت السيارة على جانب الطريق لالتقاط أنفاسي. تعجبت من غضبي، لم آلِف الانفجارات الغاضبة، وبالتأكيد لم أحاول مطلقًا القفز من منحدر صخري قط.

بعد أن لملمت شتات نفسي، توقفت لأسأل حارس المتنزه عن الاتجاهات، فقادني للمنعطف الموصل للمسار. لم أجد أحدًا على الدرب معي عندما نزلت إلى مظلة من الأشجار المقدَّسة الشاهقة، التي يزيد عمر بعضها على ألف عام، استطعت أن أشعر بحكمتها القديمة وأنا أنزل التل، وعندما وصلت إلى

نهايته أدركت أنني ذهبت إلى هناك لأموت، لم أخطط بوعي للموت لكنني كتبت رسائلي الأخيرة وأوصيت بما أريد فعله بجسدي، وحملت معي في حقيبتي سبب الوفاة، وقبل عشرين دقيقة انطلقت مباشرة نحو حافة منحدر مدفوعة بالغضب من نفسي التي تاهت، ما دمَّر قدسية يومي الأخير.

شعرت أن حقي مهضوم، لقد وجدت الثَّقافة للإجابة عن أسئلة الإنسان الكبيرة: الحب والموت. عندما كنت لا أزال فتاة صغيرة، أعطتني ثقافتي وعدين: الأول أنَّ المجتمع يعرف الأفضل لنا، والأفضل بالنسبة إلينا هو إخفاء الموت.

تحطَّم هذا الوعد في ويست ويند حين اكتشفت أنَّها تلعب دورًا في مسرحية تغطية الموت الضخمة، وبعد أن رأيت إنكارَ مجتمعنا للموت بشكل هيكلي، أصبح صعبًا عليَّ أن أتوقَّف عن التفكير في الموت، كنت أرغب في تهدئة عقلي، وإيقاف سيل الأفكار المتواصل عن أسباب وطرائق الموت، شعرت مثل «موتشوكوندا»، الملك الهندوسي الأسطوري الذي سأله الإله عن المكافأة التي يريدها على سنواته في قتال الشياطين (حرفيًا)، لم يتمنَ شيئًا سوى النوم السرمدي، كان الموت بالنسبة إليَّ مثل نوم سرمدي، واشتقت إليه.

الوعد الثاني وعدت به الثقافة الشعبية، التي حكت لنا أنَّ كلَّ فتاة تستحق جائزة الحبِّ الحقيقي، لم أرَ أنَّ روايات الثقافة الشعبية قد شكَّلتني (حرق أحداث: كنت كذلك). وبدلًا من ذلك، اعتقدت أنَّ ما جمعني بلوك كان علاقة عقلانية وعاطفية مع إنسان آخر، لكن بطريقة ما كنت مخطئة بشأن كل شيء، انكسرت كل الوعود التي قطعتها ثقافتي لي، وانقطعت شبكات القيمة، لم يعد من الممكن الاعتماد على أيِّ امتيازات افترضتها لنفسي في هذا العالم.

لم يمر أحد بالمسار لساعات في تقديري، إنه مسار عامر بمحبي المشي لمسافات طويلة، ولكنه خلا اليوم من أيِّ إنسان على الإطلاق. لذلك جلست أجادل نفسي في قرار الدخول إلى الغابة أم لا، إذا فعلت ذلك فسأحذو حذو الرَّسام «بول جوجان»، الذي حاول الانتحار بابتلاع الزرنيخ في أعماق جبال تاهيتي. فبعد أن أنهى واحدة من أعظم لوحاته مباشرة، بعنوان: «من أين أتينا؟ ماذا نحن؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ آمل جوجان ألا يجد أحد جثته حتى

يأكلها النمل، ومن الحماس ابتلع الكثير من الزرنيخ، رفض جسده السَّم وتقيأه، استيقظ وخرج من الجبال وعاش ست سنوات أخرى.

مثل جوجان أردت أن تلتهم الحيوانات جسدي، ففي النهاية هناك خط رفيع بين الجثة والجيفة، كنت مجرد حيوان مثل بقية الكائنات التي تسكن غابة الخشب الأحمر. لا يحتاج الغزال إلى التحنيط أو الصناديق المغلقة أو شواهد القبور، إنه حرٌّ في الاستلقاء في الموضع الذي سيموت فيه، لقد أكلت طوال حياتي حيوانات أخرى، والآن سأقدِّم نفسي لها. أخيرًا، ستتمكن الطبيعة من الانتقام.

يمكن للذباب أن يشمَّ رائحة الجيفة من على بعد عشرة أميال، وعلى الأرجح أنهم سيقيمون وليمة أولًا، ثم يضعون بيضهم على الجزء الخارجي من جثتي، والبيض يحتاج إلى يوم واحد حتى يفقس الديدان. ستتوغَّلُ الديدان الجديدة في جسدي غير مكترثة لبداية تعفُّنها، إنَّها أعجوبة الهندسة، أفواهها تسمح لها بالتَّنفس وتناول الطعام في الوقت نفسه.

إذا كنتم مهتمين بالمدعوين الآخرين للوليمة والأكثر شرفًا، فهل لي أن أقدِّم لكم النِّسر الأصلع، رمز أمريكا! إنَّها آكلة جيف بطبيعتها، ولا تفوت فرصة الاستفادة من اللحوم الميتة، ستمزق مناقيرها الحادَّة شرائط من لحمي وتحملها إلى السماء.

وربَّما يجذب جسدي في الغابة دبًّا أسود بسبب نهم الدببة، يمكنها اصطياد الأسماك وحتى الأيائل الصغيرة، لكنها لا تمانع إطلاقًا البحث عن الجيف الميتة ومن بينها أنا.

بعد أن تلتهم الحيوانات لحمي، ستكون الخنفساء هي آخر الواصلين، تأكل هذه الخنافس البسيطة غير الواضحة الصُّوف والرِّيش والفراء، وفي حالتي الجلد والشعر الجافين، إنَّها تأكل كلَّ شيءٍ ما عدا عظامي، تاركة هيكلي العظمي الأبيض العاري ملقى على أرض الغابة بلا هوية أو علامة.

بهذه الطريقة يمثِّل تحلل جسدي أيضًا وليمة، لن تكون جثتي كتلة فساد مثيرة للاشمئزاز، بل مصدرًا للحياة، فسيوزِّع الجزيئات ويخلق مخلوقات

جديدة، وهذا أفضل اعتراف بأنني مجرد ترس صغير في عجلة النظام البيئي، وومضة بين الأعمال العظيمة للعالم الطبيعي.

نعلم جميعًا كيف انتهت هذه القصة، فعلى الرغم من خوفي من الحياة اخترت ألا أموت.

لقد أصبحت مخلوقًا وحيدًا في الفترة التي قضيتها في ويست ويند، ولكن فيما تمسَّك كريس بجوزة الهند لخمسة وثلاثين عامًا، تمسَّكت بأصدقائي. لم يعِش هؤلاء الأصدقاء في سان فرانسيسكو أو لوس أنجلوس، لكنهم كانوا موجودين إلى جانب والديَّ اللذين أحباني بشدة. لم أمنح قيمة كبيرة لحياتي في تلك اللحظة، لكنني أردت ألَّا يشعروا بالغموض اليائس الذي شعرت به قبل سنوات وحبسني بين التخمينات لما حدث للفتاة الصغيرة في مركز التسوق.

خرجت من الغابة، وانعطفت نحو حقل رائع من الزهور البرية، كانت الألوان أكثر زهوًا مما ظننته ممكنًا للألوان.

أثناء خروجي من الخشب الأحمر نحو ساحة انتظار السيارات وأنا مصعوقة بعض الشيء صادفت امرأة، وهي أول شخص أراه قبل ساعات. سألتني عن الاتجاهات، واعتذرت قائلة: «كان زوجي يتعامل دائمًا مع هذا الجانب. لقد مات العام الماضي، وأحيانًا لا أعرف ماذا أفعل».

تحدثنا بعض الوقت عن الموت، وعملية حرق الجثث، وعلاقة ثقافتنا السلبية بالفناء. وبناء على طلبها وصفت لها ما حدث لجسده في المحرقة، قالت مبتسمة: «معرفة هذه الأشياء جعلتني أشعر بتحسن، لا أعرف لماذا، لكنه ما حدث. أنا سعيدة لأنني التقيت بك».

في ساحة الانتظار، لم توجد سوى سيارة أخرى وحيدة عبارة عن شاحنة قديمة متهالكة، ملأى بالأطعمة المعلبة والمستلزمات. تنزَّهت مالكتها، وهي امرأة مستديرة مع كلب صغير طويل الشعر أسود على رقعة قريبة من العشب.

قلت وأنا أدخل سيارتي: «هذا كلب جميل».

-أتظنين هذا جميلًا؟



ثم سارت إلى جانب شاحنتها وعادت بجروين صغيرين، أحدهما ذهبي والآخر أسود، يشبهان كرتين مثاليتين من الزغب، ودفعتهما إليَّ.

عدت لنزل ريد وودز، مصابة بالذهول والاستنزاف طوال اليوم، ولعاب جرو صغير طويل الشعر على خدي بعد أن لعق وجهي. على الشُّرفة وقف رجل طويل وسيم يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا يُدعى «كيسي»، وهو شاب في رحلة من كندا وإلى جنوب الساحل الغربي للولايات المتحدة ويسافر بالركوب مع المسافرين.

بعد يومين، كان في شقتي في «البلدة الكورية»، مستلقيًا بجانبي في سريري، وكان صغيرًا وغير معقد بما يكفي لتخفيف الاضطرابات في ذهني.

قال متأملًا: «يا صاح، يمكنني حقًا تناول بعض المعكرونة أو شيء ما الآن».

أجبته: «نعم، يمكن تدبُّر ذلك».

قال: «لكن حقًا، هذا جنون، أليس كذلك؟ لم أتوقّع قط أنني سألتقي قدرًا بفتاة جميلة ورائعة مثلك».

توقع أي شيء يا كيسي، الشيء الوحيد المضمون هو أنَّ كلَّ شيء غير مضمون.

كلية الموت

قبل أسبوع من بدء الدراسة في كلية «سايبرس للعلوم الجنائزية»، تعرَّضت لوخزات لقاحات التِّيتانوس والسُل، وهو جزء من التَّوجيه الجسدي. شعرت أنِّي مريضة، وهو ما لم يبهر الطبيب في العيادة بأيٍّ درجة. قال: «لم تتورَّم عقدك اللمفاوية». حسنًا، شكرًا على رأيك يا دكتور! لست أنت من يلتقط صورة بطاقة هوية الكلية الجنائزية وهو يبدو كوحش قبيح.

لقد فاجأتني كمية التحليلات والتطعيمات الكبيرة، فلم تكن ويست ويند لحرق الجثث ودفنها مهتمة على الإطلاق باحتمالية أن تعديني جثة بمرض الزهري أو العكس. المرة الوحيدة التي طلب فيها مايك أن أرتدي أيَّ وسيلة حماية من المخاطر البيولوجية بخلاف زوجين من القفازات المطاطية كانت حينما رأى أنني سأتلف فستانًا جميلًا، وهي لحظة حساسية نادرة منه.

في صباح أوَّل يوم لي في الكلية، غادرت شقتي مبكرًا وقدت سيارتي لمدة 45 دقيقة جنوبًا نحو مقاطعة أورانج. لم أحسب حسابًا لحركة المرور المزدحمة في ساحة انتظار الكلية، لذلك تأخرت خمس دقائق بالطبع، اقتحمت القاعة في اللحظة التي كان رئيس البرنامج يشرح فيها أنَّ التأخير من أيٍّ نوع يعتبر غيابًا.

سألني وأنا أمشي بخُطى متعثِّرة: «أين تريدين الذهاب بالضبط؟»

أجبته وأنا أنسل إلى مقعد في الخلف: «أنا متأكدة من أنني أريد هذا المكان».

كانت هناك جلسة توجيهية لمجموعة الكلية الجنائزية قبل بضعة أسابيع، لكنني فوَّتها من أجل الانغماس في يأسي بين الغابات الحمراء، وهذه هي أول مرة تتاح لي فرصة رؤية الأشخاص الذين سأقضي معهم الثمانية عشر شهرًا القادمة. وعندما نظرت حولي في الغرفة فوجئت باكتشاف أنَّ معظم زملائي في الفصل كانوا من النساء، والنساء الملونات، ليس أقل من ذلك. هذا المكان ليس حصن الرجال البيض المخيفين الذين يرتدون البدلات التي تشتهر بها صناعة الجنائز الأمريكية.

في نهاية يومنا الأوَّل، حشرونا في غرفة كبيرة مع طلاب الفصل الدراسي الثاني والثالث وأمرونا بتقديم أنفسنا وإخبار المجموعة عن سبب قدومنا إلى القاعات الخرسانية اللامعة لكلية الموت، كنت آمل أن يساعدني تمرين المشاركة على اكتشاف زملائي من ثوار الموت. من المؤكد أنهم سينفرون بشدة من الإجابات اللزجة مثل: «أريد حقًا مساعدة الناس وحسب».

لم ألقَ مثل هذا الحظ، حتى الطلاب الذين يملكون أعينًا يسكنها الجنون، أولئك الذين يستمتعون بلا شكٍّ من مجرد الاقتراب الاستثنائي من الجثث، تحدثوا عن رغبتهم في مساعدة الناس. أخيرًا وصل دور المشاركة إليَّ، تخيَّلت نفسي أصرخ: «هذا فجر جديد يطلع عليكم، انضموا قبل أن تفوتكم الفرصة أيُّها الحمقى!»، بدلًا من ذلك، قلت شيئًا عن عملي في محارق جثث، وأنني أسعى نحو «مستقبل جيد لصناعة الموت». ثم انتهى الأمر، أمسك الجميع بحقائبهم وغادروا في حالة من التأمل.

كنا نحو 50 طالبًا في بداية البرنامج، وسريعًا ما صادقت «باولا»، وهي أمريكية كولومبية من الجيل الأول. وهناك «ميشيل ماكجي» إحدى النساء اللاتي لا يسعدني صداقتهن. لُقِّبت بـ «القنبلة»، ونُشرت صورتها لاحقًا في جميع وسائل الإعلام لدورها في فضِّ زواج الأسرة المحببة إلى أمريكا: «ساندرا بولوك» وزوجها الموشوم «جيسي جيمس»، وهذا حلم لكلِّ صحيفة صفراء تبحث عن فضيحة خيانة. انسحبت ميشيل من البرنامج بعد أسبوعين، وربَّما كان السَّبب حقيقة أنَّ جسدها مغطى كاملًا بالوشم، بما في ذلك وجهها (ليس

المظهر التقليدي الذي ستأتمنه أيُّ أسرة تختار مَن يرعى والدتهم المتوفاة)، كانت ميشيل أول من رحل، لكن تبعها آخرون بمعدل ينذر بالخطر.

الشيء الوحيد الذي ظهر على الفور على أساتذة كلية سايبرس هو أنَّهم يؤمنون بما يفعلونه، كانت البروفيسور دياز وهي شقراء قصيرة أشدُّ شخص بهجةً قابلته في حياتي على الإطلاق. وكاد حماسها تجاه التَّحنيط والتَّوابيت وكلِّ المنتجات المتاحة في صناعة الجنازات الحديثة يصل إلى مستوى التهديد، وصفت في محاضراتها التحنيط بأنه فنٌّ قديم وقالت أشياء مثل: «هل علينا تحنيط أجسادنا؟ لا، لكننا نفعل. إنَّها هُويتنا».

في إحدى المحاضرات، عرضت لنا البروفيسورة دياز صورًا متتالية عن النُّعوش المختلفة، وافتخرت بشرائها نعشًا ذهبيًا من بيتسفيل بقيمة 25 ألف دولار مع تصميم داخلي من الغابات الخضراء، وهو النَّعش نفسه الذي دُفن فيه المغني جيمس براون. وحين تموت سيُدخل في قبو اشترته مقدمًا فوق الأرض.

يبدو أنَّ خطابها المتحمِّس يشير إلى شيء مختلف تمامًا عن النُّعوش التي رأيتها في ويست ويند، حيث وضعت فيه وسائد قماشية لينة وأسرَّة وثيرة حُشيت بأوراق المكاتب الممزقة كالتي تستخدمها قطتي في صندوق قضاء الحاجة.

في نهاية عرض النُّعوش، عرضت لنا البروفيسورة دياز لفترة وجيزة صورة لأقذر فرن حرق جثث رأيته على الإطلاق. انحنت باولا ناحيتي وهمست: «لماذا يبدو فرن حرق الجثث هذا كأنه من إرث الهولوكوست أو شيء من هذا القبيل؟».

همست: «أعتقد أنه تحذيرٌ غير مباشر».

- نعم.

كأنها تقول: «إذا كان هناك من يريد أن تُحرق جثته بدلًا من دفنها، فهذا ما ستواجهه جثتك»، مع ضحكة شريرة.

في الفصل الدِّراسي الثاني، دخلنا مختبر التَّحنيط وهو الفصل الذي أخافه أكثر من غيره، لقد رأيت التحنيط أثناء العمل مرات عديدة، لكن لم يكن لدي اهتمام كبير بأدائه بنفسي، كان مدرب التحنيط يرتدي ربطة عنق مغطاة بأسماء أسفار الكتاب المقدس، وحين يُنهي الفصل ويصرفنا يباركنا جميعًا بعلامة الصَّليب، كان مؤمنًا بأننا بصفتنا محنِّطين نعمل عمل الرب.

كان من الواضح أنه لا مكان لي في خدمات الجنازة «التقليدية»، فقد كرهت مختبر التحنيط والعتاد الواقي المقاوم للأخطار البيولوجية الذي اضطررنا إلى ارتدائه من الرأس إلى القدمين.

لم تكن معدات الحماية الشخصية أو معدات الوقاية الشخصية متوفرة إلا بدرجة غامضة من اللون الأزرق الفاتح، ما يجعل الطلاب يبدون كأنهم خليط بين نجوم فيلم عن وباء مميت والسنافر الذين يعانون السمنة، أكثر من الملابس (أعترف أنه مصدر قلق تافه)، كرهت أيضًا أنَّ الجثث المستخدمة في المختبرات كانت للموتى المعوزين والمشردين في مقاطعة لوس أنجلوس.

يوجد داخل حدود مقاطعة لوس أنجلوس، ما يزيد على 80 ألف رجل وامرأة بلا مأوى، يعيش عدد أكبر من المواطنين في شوارع لوس أنجلوس أكثر من نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو مجتمعين، فعلى بُعد عشر دقائق فقط من العرض الأول لفيلم بميزانية ضخمة، يوجد قسم في وسط المدينة يُعرف باسم «سكيد رو»، وهي مدينة من الخيام للرجال والنساء المشردين، وكثير منهم يعاني من اضطرابات عقلية ومدمن للمخدرات. في لوس أنجلوس، الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون أشبه بوادٍ فسيح.

عندما يموت أحد المشاهير في لوس أنجلوس، تسبب الأخبار ضجة هائلة. احتاج جثمان «مايكل جاكسون» إلى مرافقة مروحية خاصة إلى مكتب الطبيب الشرعي بمقاطعة لوس أنجلوس، وحضر مئات الآلاف من المعزين جنازته شخصيًا وعلى الإنترنت. كان جسده، كجسد القديسين في العصور الوسطى، رفاتًا مباركًا ومحل توقير من العامة.

وليس كذلك الحال مع جثث المشردين، إنَّها عبءٌ متعفن يجب التخلص منه بأموال الحكومة، أنا أعرف هذه الجثث جيدًا، لأننا تدربنا بها على التَّحنيط.

يذهب متطوع من الكلية كل أسبوع لأخذ الجثث من مشرحة مقاطعة لوس أنجلوس، لقد جلبنا ضحايانا من ثلاجة خاصة (أو هي حقًا قبو) ملأى بمَن لم يطالب بهم أحد. يفتح عامل المشرحة وحدة التَّبريد ليكشف عن مئات من أكياس الجثث البيضاء المتطابقة مكدسة فوق بعضها بعضًا على خمسة أرفف عالية، إنَّها ما يسميه عالم الموتى «توماس لينش» «أكبر من الحيوانات المنوية بالحجم الطبيعي» بسبب الطريقة التي تربط بها المستشفيات ومكاتب الطب الشرعي الأكياس بإحكام حول قدمَي المتوفى، إنَّها مدينة كاملة من الجثث، مقبرة مجمدة للحيوانات المنوية.

في هذه الثَّلاجة التي ينتظر فيها الموتى تحاول المقاطعة العثور على شخص ما للمطالبة بالجثَّة على مدى أسابيع وأشهر، وعندما ينتهي هذا المسار توفِّر المقاطعة عملية حرق للجثة. وفي الصباح الباكر بينما يتعثَّر الممثلون الناشؤون المخمورون في طريقهم لمغادرة نادي هوليوود، تكون الجثث وسط عملية الاحتراق بالفعل، وبعد تحويلها إلى رماد توضع في حاوية وتلصق على الحاوية علامة، ثم تستقر على الرَّف. يمثل هذا الرَّف مقبرة مزدهرة بحد ذاته، وعليه ستنتظر البقايا لفترة أطول، سينتظرون حتى تجف قنوات البيروقراطية، وتقتنع الحكومة أخيرًا بأنَّ لا أحد سيأتي لاستعادة علبة الرماد المجهولة.

في الأحوال الاقتصادية السيئة، تشهد المدن الكبرى زيادة هائلة في عدد الجثث التي لا يطالب بها أحد، وليست جميعًا لمشردين أو أشخاص بلا أهل. قد يكون الابن قد أحب والدته، ولكن إذا كان منزله في حبس الرَّهن وأُخذت منه سيارته، فقد يتحول جسد والدته من شيء عزيز إلى عبء بسرعة كبيرة.

في مقبرة «إيفرجرين»، التي تأسست عام 1877 وتعتبر أقدم مقبرة في لوس أنجلوس، دُفن رؤساء بلديات لوس أنجلوس وممثلوها السَّابقون في الكونجرس وحتى نجوم السينما. لكن لمرة واحدة في السنة، وفي قسم صغير مهمل والعشب فيه بني والعلامات غير ملحوظة تقريبًا، يحفر عمَّال

مقاطعة لوس أنجلوس حفرة كبيرة، وفي الحفرة يلقون ما يقرب من ألفي مجموعة من البقايا المحترقة التي لم يطالب بها أحد، فترتفع سحابة كثيفة رمادية من فوق الجرافة، بعدها يعيدون طبقة رقيقة من التُّربة على السطح، ويميزون المنطقة بلوحة تشير إلى العام الذي حفرت فيه الحفرة.

بعض الجثث «محظوظة» بما يكفي لزيارة كلية «سايبرس» قبل هذا الحفل المجهول، وهناك توضع على طاولات التحنيط وتحيط بها من جميع الجوانب سرية من السنافر المختبئين خلف الملابس الواقية. قضينا الفصل الدِّراسي الأول في مختبر التَّحنيط نتعلم أين هي الشرايين والأوردة، غالبًا من خلال التَّجربة والخطأ، كان الواحد منا يقطع أعلى الفخذ في المكان غير الصحيح، فيقول ببساطة: «أوه! الشريان الفخذي موجود في الأسفل في الواقع». إذا لم تنجح في البداية، فأعد المحاولة حتى تنجح.

عند باب معمل التَّحنيط توجد كومة من المجلات التجارية لشركة «دودج» (لا علاقة لها بالسيارات)، التي تبيع كيماويات التحنيط والترميم، ومجلة ثرية بالنصائح والحيل التي قد تحتاج إليها عند استخدام منتجاتهم.

«يملأ! ينفخ! يُثبت!».

كانت لديهم منتجات لعزل البشرة وترطيبها وتجفيفها وشد البشرة وتبييضها، منتجات لمنع الجسم من التسريب وإطلاق الروائح وإظهار درجات غريبة من اللون البرتقالي (سأُبقي هذا في ذهني)، منتجات لتجعيد الشعر وتحمير الخدين وترطيب الشفاه.

لكن المقالة المفضلة لي شخصيًا هي مقالة «تيم كوليسون» «الاعتبارات التَّجميلية لموت الرُّضَّع»، وهي طريقة منمَّقة لقول: «مساحيق تجميل لجثث الرضَّع». كانت الصُّور الثلاث المُصاحبة للمقال لطفل رضيع حيٍّ، والسيد كوليسون نفسه، ولقطة متقنة لـ «مجموعة أدوات التجميل الفاخرة بالبَخ» الحاصلة على براءة اختراع باسم «دودج»، ويُفترض أنَّها مثالية للاستخدام على الأطفال.

إذا كنت مثلي، فردُّ فعلك الأول هو: «يا إلهي، لا أعتقد أنَّ الأطفال المتوفين يحتاجون حقًا إلى مساحيق تجميل». السيد كوليسون لا يتفق معك، إنه يريد التَّأكد من أنَّ المتخصصين في الجنازات يضعون «الجسد الصغير في النعش بحيث يبدو طبيعيًا قدر الإمكان».

لم تعد الكليات الجنائزية تعلِّم الطلاب أن يستخدموا التحنيط لجعل الجثث تبدو «كأنها حيَّةٌ». «كأنَّها حيَّةٌ» يجعل الناس يظنون أنَّ الموتى قد يعودون للحياة بالفعل، وأصبحت كلمة المختارة الآن في الصناعة هي «طبيعية»، المحنطون «يعيدون الجثة لمظهرها الطبيعي».

وفقًا للسيد كوليسون، فإن الخطوة الأولى لوضع مساحيق التجميل «الطبيعي» للأطفال هي ضخُّ الكيماويات الحافظة في الطفل: «استخدام مادة كيميائية لتجميل الشرايين ذات قاعدة مرطَّبة (كالبلاسدوباك) أو (الكروماتيك)، إلى جانب الكميَّات الكافية من المواد الكيميائية المُلحقة، وسوف تقدِّم الحفظ اللازم».

قد يوفر (البلاسدوباك) أو (الكروماتيك) أساسًا ممتازًا لمستحضرات التجميل، ولكن الشعر الناعم على وجه حديثي الولادة قد يكون عائقًا، الأفضل أن تمضي قدمًا وتحلق للطفل، لكن كن حذرًا «يتطلب حلق الرضيع مزيدًا من العناية».

أخيرًا، اعلم أنَّ مسام وجه الطفل أصغر بكثير من مسام وجه البالغ. قد تعتقد أنَّ بإمكانك استخدام نفس الزيت القديم أو مستحضرات التَّجميل التي تحتوي على البرافين والتي تستخدمها للبالغين، ولكن لا، ستجعل الطفل يبدو كدمية شمعية ولا «ينتج مظهرًا طبيعيًا»، مرة أخرى، كلمة: «طبيعي».

غالبًا ما تطلبت الأوراق البحثية المخصصة لنا استشارة «متخصصين في صناعة الجنائز»، وإجراء مقابلات معهم. وملأ مايك وبروس هذا الدور، جعلتني المكالمات الهاتفية معهما أعتقد أنني ربَّما غادرت ويست ويند قبل الأوان، فبعد عام من العمل هناك كنت لا أزال أتعلَّم الكثير، ولم يكن من الحكمة بالنسبة إليَّ أن أخرج من هناك دون تفكير.

الأهم من ذلك كله أنني فقدت حديثهما الصريح، عندما سألت بروس عما إذا كانت الجثة «ستفسد» إذا لم تُحنَّط على الفور ضحك بسخرية، وهو متخصص التَّحنيط وعمل في تدريسه لفترة طويلة. «لقد أخذ أمر فساد الجثَّة أكثر من حقه. صحيح، إذا كانت درجة الحرارة 50 درجة وليس عندك مكيف هواء، لو كنت وسط غابة الأمازون المطيرة مثلًا، فعليك الحذر. بخلاف ذلك، هذا الجسد لن يفسد في الساعة القادمة. من الجنون كيف تعتقد دور الجنائز ذلك حقًا».

جعلتني كلية العلوم الجنائزية متوترة لدرجة الإصابة بمرض جسدي، فكلَّما قضيت وقتًا أطول في فعل شيء لا تؤمن به، تمرَّدت أجهزة جسمك. مرت الأشهر وعانيت من التهاب الحلق والتشنُّجات العضلية والقرح الفمية، وكما قال دكتور «فرانكشتاين» بحكمة أثناء عمله على تكوين وحشه: «غالبًا ما كان قلبي مريضًا بسبب عمل يدي». لقد كانت بيئة مُرهقة وقرارًا غبيًا من الناحية المالية، لكنني مستعدة أن أمنح مدخرات حياتي كلها لمَن يخلصني من مختبر التحنيط دون الرسوب في ذلك الفصل الدِّراسي.

من المؤكد أنني لم أكن الطالبة الوحيدة التي أصابتها كلية الجثث بالتوتر بأيٍّ حالٍ، فهناك امرأة في البرنامج كانت تقف خارج المبنى وتدخن كالحريق ويداها ترتجفان. وغالبًا ما تنهار بالبكاء أثناء الاختبارات ومرتين على وجه الخصوص أثناء المعامل: مرة وهي تطعن قدم رجل ميت بأنبوب شفط معدني، ومرة أثناء التدرب على صنع تجاعيد الشعر على رأس بلاستيكي. كنت قد سميت رأسي البلاستيكي «مود»، ولم تكن زميلتي في الفصل تتبع قاعدة تسمية أشيائها قبل استخدامها.

زاد اعتزازي أكثر وأكثر بفكرة الجنائز المنزليَّة، لم أنسَ قط حلمي الأصلي بامتلاك دار جنائز، تحوَّل حلم «لا بيل مورت» إلى حلم «حانوتية لوس أنجلوس». في هذا المكان يمكن للعائلات العودة لعملية الموت والتغسيل وتلبيس الملابس والاعتناء بالجسد كما فعل البشر لآلاف السنين، وسيبقى أفراد الأسرة مع الجسد في الحداد أحرارًا ويعملون على العناية بأحبائهم في بيئة داعمة وواقعية. كانت هذه الفكرة من المُحرَّمات في كلية الجثث، حيث

قالت الحكمة إن التحنيط يُبقي الجثة «صحية». لا عجب أن قال بروس إنَّ مديري الجنائز يقولون للعائلات إن الجثث تشكل تهديدًا للصحة العامة: كانوا يتعلمون أنَّ الجثث تشكِّل تهديدًا للصحة العامة.

تزحزحت نحو التَّخرج، واجتزت الاختبارات لأصبح مديرة جنائز مُرخَّصة في ولاية كاليفورنيا، تأثرت أحلامي بركوب الخيل نحو الغروب لبدء دار «حانوتية لوس أنجلوس» بسبب الواقع المالي. كنت قد أغرقت نفسي بالديون للالتحاق بكلية الموت، لذا كنت أفتقر إلى رأس المال، وربما الخبرة لفتح دار جنائز لي، تحتم عليَّ الحصول على وظيفة أخرى في قطاع الموت.

ومن الخيارات التي أُتيحت لي كانت الانتقال إلى اليابان، حيث كانوا متعطشين لتوظيف محنَّطين مدربين من الولايات المتحدة وكندا. والتحنيط شيءٌ حديث على اليابان، حيث يسمونه «طب الموت». وقد وصف أحد المحنطين الكنديين الذين انتقلوا إلى اليابان للعمل، وضع الضمادات على الجثة المُحنَّطة لجعلها تبدو كأنَّها في إجراء طبي، ورغم الإغراء في العيش في الخارج، لم أكن أنوي العمل كاستعماري يحمل نصائح خبيثة حول الموت.

أخبرتني البروفيسورة دياز أنه سيكون من الصعب الحصول على وظيفة في محرقة جثث في جنوب كاليفورنيا. فلهذا النوع من العمل الجسدي «يمكنهم فقط جلب المهاجرين للقيام به». ورغم غلظة الكلام فقد كانت أمينة، فهذا ما قاله لها أصحاب المحارق.

على الطرف الآخر ثمَّة أماكن مثل «فورست لون ميموريال بارك»، العدو اللدود «لجيسيكا ميتفورد»، و«ديزني لاند الموت». توسعت فورست لون إلى مواقع متعددة في جنوب كاليفورنيا. عرف الجميع فورست لون، إذ أطلت لوحاتهم الإعلانية من الأعلى على لوس أنجلوس بصورة لزوجين مسنين يبلغ طولهما أربعين قدمًا، يرتديان الكتَّان الأبيض في الصورة، رأساهما مرفوعان إلى الخلف بسبب الضحك، وأيديهما متشابكة ويمشيان على الشاطئ وخلفهما غروب الشمس، إنَّهما يستمتعان بسنواتهما الذهبية ويتأملان بعضهما بعضًا بحب، وهما هنا فقط لتذكيرك بلطف (بخط صغير في الجزء السفلي من

لوحة الإعلانات) بأنَّ هناك حديقة تذكارية متاحة إذا كنت ترغب في تصميم جنازتك مقدمًا.

انتشرت مجموعة من ممثلي فورست لون في ردهة كلية سايبرس، اعتُبر هذا معرضًا للتوظيف، على الرغم من أن العنصر «العادل» غاب بعض الشيء، إذ لم يُدع ممثلون إلا لفورست لون فقط، ألقى أحد الممثلين كلمة في الخريجين.

صاحت: «كان مؤسسنا هوبرت إيتون ثوريًا! لا بدَّ أنَّك تعلمت عن الأشياء الرائعة التي حققها لقطاع الموت. ومؤسستنا مكان رائع للعمل، ونقدم الكثير من المزايا الجيدة، لذلك يعمل الموظفون في شركتنا حتى سنِّ التقاعد».

في سايبرس، بدا جيش الممثلين المكوَّن بالكامل من النِّساء تمامًا كما وصفهن «إيفلين»: «ذلك العرق الجديد من السيدات الشابات الرائعات واللطيفات والفعَّالات» اللواتي التقاهن في كل مكان في الولايات المتحدة. كن يرتدين بدلات رمادية متطابقة ونظرات باهتة تذكرنا «بعائلة مانسون»[1]. و«عائلة إيتون»، إذا صح التشبيه هنا لجذب المجندين إلى فرقة الموت الجميلة.

ملأت طلب التَّوظيف الضخم وأجبرت نفسي على تسليمه، اضطررت إلى انتظار دوري فيما يجرين مقابلات مع العديد من الطلاب الذكور في برنامج المشرحة، ولم يبذلن أي جهد لإخفاء تفضيلهن لهم.

بدأت قائلة: «أنا أبحث عن وظيفة مستشار الترتيبات، لدي خبرة في هذا المجال».

قالت الممثلة: «نسمي هؤلاء الآن (مستشاري الذكريات)، وليس لدينا وظيفة متاحة من هذا القبيل».

ثم سألت: «أنت لا تريدين أن تكوني محنطة؟»

أجبت: «لا».

(1) عصابة وطائفة دينية غريبة الأطوار نشأت في كاليفورنيا. – المترجم.

- حسنًا، ربَّما تكونين مهتمة ببرنامج الطلاب، حيث نسمح للطلاب المختارين بالعمل بدوام جزئي في الصلوات، وإعطاء التوجيهات للعائلات، وما إلى ذلك. أوه! لكن أرى هنا أنك ستتخرجين هذا العام، لا بدَّ أنك لن تحبي هذا.

أخرجت كل الحماس الذي استطعت إجبار نفسي عليه وقلت: «بالتَّأكيد سأحب ذلك، أريد حقًا العمل في شركتكم!»، وأمسكت نفسي عن التقيؤ بعدها، وشعرت بالاشمئزاز من نفسي بقية يومي.

خلال الشهر التَّالي، تقدَّمتُ للوظائف في كلِّ مكان وأنا أعلم الآن أنَّ مكاني الصحيح في الخنادق، مع جثث الموتى.. مع الحزن الحقيقي والموت الحقيقي، تلقيت إجابة من مكانين: مزيج رائع جدًا من مشرحة أو مقبرة ومحرقة جثث، قررت الذهاب إلى المقابلتين بأفضل مظهر وأقوى تنظيم، وترك القرار للقدر.

***

شاحنة الجثث

كانت المقبرة برّاقة كهوليوود القديمة، لم تكن فورست لون لكنها قريبة منها، حين تدخل عبر البوابات المزخرفة تشعر أنَّك دخلت جبل الأوليمب، ففوق تلة مرتفعة يوجد قصر ذو أعمدة بيضاء، وأمامه نافورة مياه من اثنتي عشرة طبقة، هذه أرض العجائب، حيث تصل تكلفة القبر الواحد إلى عشرات الآلاف من الدولارات.

ذهبت هناك لأقابل المدير العام لإجراء مقابلة لأعمل كمديرة جنائز. بعد بضع دقائق جاء يقطع الرَّدهة بثقة وفي يده طبق بسكويت الشوكولاتة، قال وهو يوجهني إلى المصعد: «هاك بسكويتًا. خذي واحدة!». شعرت أن قول «لا» وقاحة، وخوفًا من استكمال المقابلة والشوكولاتة على أسناني، حملت العبء اللطيف في يدي على مدار المقابلة.

نزلنا من المصعد وقادني إلى مكتبه ذي النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف المُطلة على المدينة الفاضلة. ألقى مونولوجًا لثلاثين دقيقة حول إيجابيات وسلبيات مؤسسته. فسأعين لإنهاء ترتيبات الجنازة، لكنه حذرني: «لا تتفاجئي إن عاملتك الأسر كأنك خادمة شخصية، هذه طبيعتهم. هنا، حسنًا، أنت مساعِدة».

سأتعامل مع ترتيبات الجميع باستثناء المشاهير، فقد تولَّى هو جميع مهمَّات المشاهير، قال على سبيل التوضيح: «في الشهر الماضي عندما توفي (منقح للخصوصية)، تسرب موعد جنازته إلى وسائل الإعلام. بالطبع كان

المصورون يحومون حول البوابات، أحتاج إلى هذا النُّوع من الدَّعاية، أنا أتعامل مع المشاهير الآن».

لم تكن هذه الوظيفة الأنسب لي، ولكن على الأقل لم تكن المقبرة تديرها إحدى شركات الجنائز الكبرى. والأفضل أنَّه أقسم إنني لن أضطر إلى إقناع العائلات بشراء أي شيء: لا الصناديق الأغلى، ولا الخدمات الأوسع، ولا الجِرار الذهبية الفاخرة. ولن أضطر لأكسب مكافأتي الشهرية إلى استخدام عبارات مثل: «هل أنت متأكد من أن أمك لم تكن لتريد النعش المصنوع من خشب الورد؟ ألا تستحق وداعًا كريمًا؟»، بدا كأنَّه مكان جيد بما يكفي للتعافي لفترة، لألعق جراحي من مدرسة الجثث.

بعد إبلاغي بقبولي للوظيفة، وملء استمارتي الضريبية، وتعريفي بمكتبي الجديد، لم تصلني منه أيُّ أخبار لشهر كامل. من الواضح أنَّ هناك درجات أكثر حميمية في سلم خدمة الجنائز، لأنني تلقيت في النهاية بريدًا إلكترونيًا مقتضبًا من سكرتيرته يخبرني أنَّهم قرروا «التوظيف من الداخل».

كانت مقابلتي الثَّانية مع محرقة جثث، ويست ويند لكن بحجم أكبر بكثير ومصنع تخلص كامل، لقد أُحرقت آلاف الجثث سنويًا في هذا المستودع الضَّخم بمقاطعة أورانج. أما مدير المكان فهو كليف، الرجل الذي تحدَّث بنفس نغمة الصَّوت الثَّابتة التي تحدث بها مايك، حتى ظننت أنَّها من شروط تولِّي هذه الوظيفة. كما أنَّه تعامل مع المكان بجدية، فقد بنى الشركة بحجم يكفي للإنفاق على شغفه الحقيقي: منافسات الخيول الأندلسية الإسبانية، لقد حصلت على هذه الوظيفة.

عملي لن يكون عاملة تشغيل المحرقة، بل سائقة نقل أجساد، تتسلم معظم المحارق الجثث في طلبيات بها جثة إلى أربع جثث في المرَّة بحسب مصدرها الأصلي. وشاحنة الجثث، هي سيارة من نوع «دودج سبرينتر» الطويلة التي تعمل بالديزل وبها أرفف مدمجة، وتستطيع نقل 11 جثة معًا، أو اثنتي عشرة جثة إذا ضغطتها، حيث أضع جثة مائلة قليلًا.

مع 11 جثة في مؤخرة الشَّاحنة، تنقلت بين زوايا جنوب كاليفورنيا: سان دييجو، بالم سبرينجز، سانتا باربرا، لتسلُّم الموتى وإعادتهم للمحرقة، وقد ملأت عمليات النقل والرفع والقيادة جدولي اليومي.

في وظيفتي الجديدة لم أعد ملكةً في قلعتي الصغيرة كما كنت في ويست ويند، كنت مجرد قطعة شطرنج: عامل متخصص. كانت وظيفتي نتاجًا لتأثير «جيسيكا ميتفورد»، نتيجة لرؤيتها في نشر حرق الجثث في كل مكان، كانت كاليفورنيا مرة أخرى رائدة في هذه الطريقة الجديدة للموت، وكذلك كانت فورست لون، وكذلك كانت ميتفورد، وكذلك كانت باي سايد لحرق الجثث.

أدار المحرقة ثلاثة شبَّان لاتينيين من شرق لوس أنجلوس، يعملون في نوبات على مدار الليل والنَّهار (وفي عطلة نهاية الأسبوع) على حرق الجثث في آلات ضخمة لا تُطفأ نيرانها أبدًا. كان هناك الطيب: مانويل اللطيف للغاية، الذي ساعدني دائمًا على تفريغ الجثث من الشَّاحنة في نهاية اليوم، والشرير: إميليانو ذو الوشم، الذي حرص على إخباري بأنه كان يتطلع إلى أن تحبل فتاة بيضاء منه، والكريه: ريكي، الذي حاصرني ذات مرة في إحدى الثلاجات وهددني لأنني كدَّست الجثث بطريقة لا تعجبه.

ثمَّة تيار لا ينتهي من الموتى الذين احتاجوا إلى نقل، ففي عشية عيد الميلاد تلقيت مكالمة من المرأة التي كانت تدير إحدى المنشآت في سان دييجو، قالت: «كيتلين، لدينا عدد ضخم من الجثث هنا، نحتاج إليك الليلة». وفي منتصف الليل، بينما كان الآخرون ينغمسون في أسرتهم ويحلمون بأحلام السكر، انطلقت سيارتي من لوس أنجلوس إلى سان دييجو وعادت كأنها سيارة سانتا كلوز الكئيب بشحناته الأكثر إحباطًا. «تبقى الجثث في الثلاجة بعناية، على أمل أن تأتي عربة الجثث إليها قريبًا».

إذا كانت هناك رفاهية واحدة في كوني قبطان هذه الشاحنة، فهو أنَّها وفَّرت لي وقتًا للتفكير، فقطع أكثر من 350 ميلًا يوميًا في شاحنة الجثة وقت طويل يقضيه السَّائق في التأمل. في بعض الأيام استمعت إلى كتب صوتية (موبي ديك على ثمانية عشر قرصًا مضغوطًا، شكرًا جزيلاً لك)، وفي أخرى

استمتعت للراديو الحواري المسيحي الذي يبدأ في الظهور بوضوح بمجرد مغادرة العاصمة لوس أنجلوس، لكن في الغالب كنت أفكر في الموت.

تملك كل ثقافة قيمًا حول الموت، وتُنقل هذه القيم في شكل قصص وأساطير تُحكى للأطفال قبل أن يبلغوا سنَّ تكوين الذكريات. والمعتقدات التي يكبر عليها الأطفال هي ما تمنحهم إطارًا لفهم حياتهم والسيطرة عليها، وهذه الحاجة إلى المعنى هي السبب الذي يجعل البعض يؤمن بنظام معقد للحياة الأخرى المحتملة، ويجعل غيرهم يظن أنَّ التضحية بحيوان معين في يوم معين تمنحه محاصيل جيدة، وما زال البعض الآخر يعتقد أنَّ العالم سينتهي عندما تُبنى سفينة بأظافر غير مقصوصة، وتصل حاملة جيشًا من الجثث لخوض معركة مع الآلهة في نهاية الأيام (آسفة، ستظل الميثولوجيا الإسكندنافية دائمًا الأقوى).

ولكن هناك شيء مقلق للغاية، أو مثير للغاية حسب نظرتك إليه، حول ما يحدث لقيمنا المتعلقة بالموت، فلم يشهد التاريخ وقت انفصلت الثقافة فيه تمامًا عن الأساليب التقليدية للتصرف في الجثث والمعتقدات في الموت.

نعم، مرَّت أوقات دُفع فيها البشر إلى كسر التَّقاليد بحكم الضرورة، كما في حالات الموت في ساحة معركة بعيدة عن الوطن، لكن السائد أنه عندما يموت شخص ما يسلك الطريق نفسه الذي سلكه أبواه، اللذين سلكا طريق والديهما نفسه.

فالهندوس يحرقون جثثهم، والمصريون يدفنون نخبتهم مع فصل أعضائهم في جرار مستقلة، والفايكنج يدفنون محاربيهم في سفن. والآن، القاعدة الثقافية هي أنَّ الأمريكيين إما يحنطون جثثهم وإما يدفنونها وإما يحرقونها، لكن هذه أشياء لا تمليها الثقافة من منطلق الإيمان أو الالتزام.

تاريخيًا، ارتبطت طقوس الموت بلا شك بالمعتقدات الدينية، لكن عالمنا أصبح علمانيًا بشكل متزايد. فأسرع الأديان نموًا في أمريكا هو «اللادين»، ومعتنقوه أصبحوا نحو 20% من السكان في الولايات المتحدة، وحتى مَن يعتبرون أنفسهم أصحاب معتقدات دينية قوية غالبًا ما يشعرون أنَّ طقوس

الموت التي كانت قوية في السابق تحولت إلى سلعة ولم تعد تحمل معنى بالنسبة إليهم. وفي مثل هذه الأوقات لا يُحدُّ إبداعنا حدًّا في خلق طقوس ذات صلة بحياتنا الحديثة، الحرية مثيرة لكنها أيضًا عبء. ولا يمكننا العيش دون علاقة بالموت، وسيكتسب إبداع الأساليب العلمانية للتعامل مع الموت أهمية أكثر عامًا بعد عام.

بدأت في نشر مقالات ومانيفستو على الإنترنت تحت اسم «ترتيبات الموت الصالح»، بحثًا عن أشخاص يشاركونني رغبتي في التغيير. وكانت «جاي ريم لي» أحد هؤلاء الأشخاص، وهي مصممة وفنانة تدرَّبت في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وابتكرت بدلة لكامل الجسم يرتديها الإنسان عند دفنه.

تتميز «بدلة الخلود»، والتي قد توصف بأنَّها من أزياء نينجا عليها أشكال شجرية من الخيط الأبيض المنتشر على القماش الأسود. صنعت لي الخيط من جراثيم الفطر، التي صممتها خصيصى لاستهلاك أجزاء من جسم الإنسان باستخدام بشرتها وشعرها وأظافرها. قد يبدو هذا كأنَّه مستقبلٌ من فيلم الخيال العلمي «Soylent Green»، لكن «لي» تعمل فعلًا على تدريب الفطر على إزالة السموم من أجسادنا فيما تتحلل الجثة.

بعد مشاهدة عرض لعملها في مركز «MAK» للفنون والهندسة المعمارية في لوس أنجلوس، التقينا في شاحنة تاكو وتحدثنا لساعات على مقعد الباصات في تقاطع «أوليمبيك» و«لا بريا». كنت ممتنة للتحدُّث مع شخص مهتمٍّ بالخروج عن المألوف في التخلص من الجسد، وكانت ممتنة لأنها وجدت شخصًا في صناعة الجنائز التقليديَّة على استعداد للاستماع إلى أفكارها. اتفقت كلتانا على أنَّ إلهام الناس للتعامل مع حقيقة تحللهم الحتمي يعتبر هدفًا نبيلًا، وأعطتني دلوًا من النموذج الأولي للفطر الآكل للحم، وحاولت إبقاءه على قيد الحياة في مرآبي وفشلت، أظنني لم أطعمها ما يكفي من اللحم.

في أثناء سنوات عملي في ويست ويند والتحاقي بمدرسة العلوم الجنائزيَّة، كنت أخشى مناقشة موضوع إنكار الموت الثَّقافي على الملأ. إذ لا يعتبر الإنترنت دائمًا أفضل المنتديات، خاصة بالنسبة إلى الشابات. فبعيدًا

في قسم التعليقات في سلسلتي الإلكترونية «Ask a Mortician»، هناك ما يكفي من التعليقات المُعادية للنساء التي تكفيني مدى الحياة.

نعم أيُّها السَّادة، أعلم أنني أجعل عضوك يابسًا كالميت، ولم يكن سكان القبو المجهولون فقط هم من انزعجوا مني، فلم يكن العاملون في صناعة الجنائز سعداء دائمًا بالبوح بما خلف الكواليس. «أنا متأكد من أنَّها تفعل هذا من أجل المرح وحسب، ولكن بما أنَّه لا مكان للمرح في الجنائز، فلن أختارها للتعامل مع أحبائي». وحتى يومنا هذا، ترفض الرابطة الوطنية لمديري الجنائز، وهي أكبر اتحاد مهني في الصناعة، التَّعليق على ما أفعله.

لكن عندما أصبحت أكثر جرأة، خرج الناس من الخزانات الخشبية، أو زحفوا من التوابيت إن صحَّ التعبير. أراد الجميع استكشاف حركة الموت في حياتنا من جميع التخصصات: مديرو الجنائز وعُمال دور رعية المصابين بأمراض عضال والأكاديميون وصانعو الأفلام والفنانون.

لقد كتبت الكثير من الرسائل التي كانت أحيانًا مفاجئة، ومن بين هذه الرسائل توجَّهت واحدة إلى د. «جون تروير»، الأستاذ في مركز الموت والمجتمع بجامعة باث. يدرس د. «تروي»، الذي كانت أطروحته لنيل درجة الدكتوراه بعنوان «تقنيات الجثث البشرية»، محارق الجثث التي تلتقط الحرارة الفائضة من عملية حرق الجثث وتستخدمها في شيء آخر مثل: تسخين المباني الأخرى، أو حتى كما فعلت إحدى محارق الجثث في «ورشيسترشاير» في تدفئة مسبح محلي، ما وفَّر على دافعي الضرائب 14.500 جنيه استرليني سنويًا. إنَّها طريقة لجعل عملية حرق الجثث التي تستخدم قدرًا كبيرًا من الطاقة يساوي رحلة بالسيارة لمسافة 500 ميلٍ لحرق جسم واحد، أكثر كفاءة في استخدام الطاقة. لحسن الحظ، كان د. تروي على استعداد للتحدث معي، حتى مع طريقتي الطفولية في صياغة عنوان الرسالة.

لقد جلب العثور على أشخاص مثلي شعورًا بالراحة، إذ أزال وصمة العار والشُّعور بالاغتراب، وكان متلقو رسائلي ممارسين يعملون على تغيير علاقتنا بالموت، وينزعون الغطاء عن ممرات الموت لدينا ويتحملون العبء الأكبر بمواجهة المحتوم.

قادني هذا العمل إلى التركيز على نفسي، وكنت ظاهريًا مجرد سائقة شاحنة، تقود شاحنتها المُعبَّأة بالجثث ثلاث مرات أسبوعيًا على طريق آي5- من سان دييجو وتعبر نقطة تفتيش الهجرة. تحرَّكت شاحنتي البيضاء الكبيرة التي لا تحمل أيَّ علامات ببطء نحو مقدمة خط التفتيش، وكانت تبدو مشبوهة أكثر بكثير من سيارات البريوس والفولفو الواقفة في الممرات الأخرى، وأحيانًا تمنَّت نفسي أن يوقفوني في النقطة، ولو كان لأخذ استراحة من رتابة الرحلة، في رأيي سيجري المشهد بهذه الطريقة:

- لا تنقلين أيَّ مهاجرين في الخلف، أليس كذلك يا سيدتي؟

- لا يوجد مهاجرون، سيِّدي الضابط، فقط أحد عشر شخصًا.

ثم أخلع نظارتي الشمسية بحركة خاطفة وأتابع: «فقط مواطنون أمريكيون سابقون».

- سابقون؟

- أوه، لقد ماتوا، أيها الضابط. إنهم موتى حقيقيون.

لسوء الحظ، في كلِّ مرة ظهرت الشَّاحنة ورأى الضَّابط شابة بيضاء على عجلة القيادة، كان يلوِّح لي بالمرور مباشرة، كان بإمكاني تهريب مئات المكسيكيين إلى البلاد في حاويات حرق من الورق المقوَّى، كان من الممكن أن أكون مُهرِّبة مخدرات، كان يمكنني أن أكون امرأة غنية الآن.

مع قضائي وقتًا على الطريق، كانت أكبر مخاوفي الوقوع في حادث بالاصطدام مع سيارة أخرى على الطريق السريع. تخيَّلت الأبواب الخلفية لسيارتي وهي تُفتَح بقوة، ويطير منها جميع الرُّكاب الأحد عشر. وتظهر الشرطة وسط الفوضى والاضطراب: 11 حالة وفاة، ولكن لماذا هم باردون للغاية ولا تظهر عليهم أيُّ رضوض؟

بمجرد أن ينقشع الدخان ويكتشفوا أن كلَّ هؤلاء القتلى كانوا ميتين أصلًا، سأصبح ميمًا على الإنترنت، ورأسي الصغير يتجهَّم وأنا أرتدي ملابس من فيلم «ساحر أوز» وخلفي إعصار ساحري من الجثث.

لكنني عُدت كل يوم بسلام للمحرقة ومع جميع الجثث، كل يوم حين أصل إلى البوابة الخلفية للمستودع، أجد إميليانو يعزف على الأكورديون الخاص به في ساحة انتظار السيارات وتعمل إلى جانبه موسيقى Norteño من سماعات سيارته «الكاديلاك»، كانت هذه هي الموسيقى التَّصويرية لتفريغ الجثث.

لكن في الحادثة التي كادت تودي بحياتي لم أكن في شاحنة الجثث، كنت أقود سيارتي «الفولكس فاجن» القديمة في منطقة سالتون سي بكاليفورنيا. وسالتون سي عبارة عن بحيرة مياه مالحة من صنع الإنسان في وسط صحراء جنوب كاليفورنيا، كانت إحدى الأفكار في الستينيات هي إعادة تصميمها لتكون منطقة منتجعات بديلة عن بالم سبرينجز.

والآن، بدلًا من المارتيني وقمصان هاواي والتزلُّج على الماء، تتكدس المنازل المتنقلة المهجورة حول مستنقع من المياه البنية برائحة كريهة لا تُصدق، وتناثرت أعداد كبيرة من الأسماك الميتة على الساحل المُغطى بجثث الأسماك والبجع والقرمشة المزعجة التي تصدر من الرِّمال تحت قدميك ما هي إلا آلاف العظام المُجففة.

لقد حججت مسافة أربع ساعات من لوس أنجلوس لزيارة هذا النَّصب التذكاري المصنوع للتحلل، يعتبر البعض أنَّه من غير المألوف زيارة ما يسمى «إباحية الخراب»، لكني أحب أن أشهد مباشرة حرب الطبيعة على غطرستنا وبنائنا في أماكن غير مُعدة لسُكنى الإنسان.

وبينما كنت أقود سيارتي نحو الشاطئ الشمالي لسالتون سي البالغ طوله 35 ميلًا، صادفت ذئبًا قيوطًا ميِّتًا على جانب الطريق. ولم يكن ذئبًا صغيرًا بحجم الكلاب الموجودة أحيانًا في المناطق الحضرية في لوس أنجلوس، بل كان هذا وحشًا بلسان أسود وبطن منتفخ. استدرت للخلف وعدت لتفقده ولم يثنني الخوف من السكان المحليين المشبوهين في شاحناتهم وسياراتهم رباعية الدفع.

ربَّما كان هذا الذئب نذير شؤم، الذئب أو مقبرة الأسماك الضخمة في سالتون سي. أو ربَّما المسنات اللاتي يركبن عربات الغولف بملابس رياضية وردية اللون من Juicy Couture، لعلهم جميعًا نذير شؤم.

حلَّ الظلام قبل انطلاقي نحو لوس أنجلوس، مرَّت الحارات الأربعة المتَّجهة غربًا نحو الطريق السريع آي 10- عبر بالم سبرينجز، وامتلأت بالمحتفلين بعطلة الأسبوع العائدين لمنازلهم. كنت أقود سيارتي في أقصى اليسار بسرعة ثابتة تبلغ 75 ميلًا في الساعة، بدأ الجانب الأيسر الخلفي من السيارة يهتز، وشعرت بصوت خافت لانفجار إطار، أشعلتُ إشارة الانعطاف للانتقال إلى الوسط، منزعجة من سوء حظي.

لكن اتضح أنَّ الإطارات المثقوبة لم تكن هي المشكلة، فقد انفصل رمان العجلة وبدأت العجلة بأكملها في الدوران خارج المحور، وبعدها انفصلت البراغي وخرجت، تاركة حفرة كبيرة في المكان الأصلي للعجلة.

مع سير السيارة على ثلاث عجلات فقط، خرجت عن السيطرة بشكل كبير، والتفَّت بين الحارات الأربع، وأطلقت ذيلًا من الشرر بسبب احتكاك المعدن بالأسفلت. وأثناء هذه الرقصة المميتة على الطريق السريع بدا الوقت بطيئًا، حلَّ صمت تام داخل السيارة، رأيت أضواء السيارات القادمة تلتفُّ من حولي وتجنَّبتني السيارات وكأن حاجزًا سحريًا سدَّ عليها الطَّريق.

أكثر من فقدان السيطرة، وأكثر كم ألم الوحدة في الحياة المعاصرة، كانت هذه أسوأ مخاوفي، ما يشير إليه البوذيون والمسيحيون في العصور الوسطى بـ «الموت السيئ»: موت الفجأة. في العصر الحديث تأخذ شكل أجساد ممزقة وسط أزيز معدني شديد، أجساد لم يبح أصحابها لأحبائهم كم يحبونهم، وتركوا الأمور دون ترتيب، ولم يعلنوا حتى رغباتهم شكل الجنازة التي يريدون.

ومع ذلك، وفيما كانت السيارة تدور بي، سحبت يدي العجلة في محاولة لاستعادة السيطرة، لكن ذهني كان على بُعد أميال. في البداية قال صوت: «آه، ها نحن أولاء»، وغمرني سلام لطيف. انطلقت سمفونية «Moonlight

Sonata» وأصبحت الحركة بطيئة، لم أشعر بأي خوف، فقد أدركت في أثناء دوران السيارة أنَّ هذه ليست ميتة سيئة، فخلال السنوات الأربع التي قضيتها في العمل مع الجثث وذويها جعلت هذه اللحظة تجربة فائقة. استرخى جسدي، منتظرًا الصدمة العنيفة، لكنها لم تأتِ.

اصطدمت بتلٍّ ترابيٍّ على كتف الطَّريق السَّريع في مواجهة حركة مرور قادمة وجهًا لوجه، سليمة وحيَّة. مرَّت السيارات والشاحنات من جانبي بسرعة مذهلة، وكان من الممكن أن يسحقني أيٌّ منها (أو العديد منها أثناء رحلتي في الدوامة وسط الطريق السريع)، لكنها لم تفعل.

ذات مرة شعرت بالرُّعب من فكرة أن تُقطع أوصالي ويتفرق جسدي. لم أعد خائفةً، لقد ولد هذا الخوف من الخوف من فقدان السيطرة. وها أنا ذي فقدت السيطرة تمامًا، وتقاذفتني جوانب الطريق السريع، وأجلس على جنب الطريق في هدوء تام.

فنُّ الموت

ثمَّة حفرية خشبية ألمانية من منتصف القرن الخامس عشر بعنوان: «انتصار على الغواية». تصوُّر المنحوتة رجلًا مستلقيًا على فراش الموت، ويحيط به سكان الجنة عن يمينه وسكان الجحيم عن شماله يتقاتلون على روحه الفانية. تمدُّ الشياطين المُركَّبة من وجوه الخنازير الشريرة والمخالب والحوافر أيديها نحو السرير لتجره إلى عالم الجحيم، وتحتشد فوقه الملائكة ويسوع المصلوب العائم في الجو وتسحب نسخة مصغَّرة من الرجل (روحه على الأرجح) إلى السماء. ووسط هذه الفوضى يبدو المحتضر سعيدًا بشكل إيجابي، مليء بالسلام الداخلي، فالابتسامة الصغيرة على وجهه تخبر المشاهد بما يفكر فيه: «آه نعم، الموت. لقد حصلت عليه».

السؤال هو: «كيف نصبح مثل ذلك الرجل؟ الشخص الذي يواجه موته بهدوء تام واستعداد كامل للمضي قدمًا».

تعرِض الحفرية الخشبية موضوعًا شائعًا في فترة أواخر العصور الوسطى: Ars Moriendi أو فن الموت، وهي كتيِّبات إرشادية علمت المسيحيين كيف يموتون ميتة سوية، والتوبة عن الخطايا المهلكة وتمكين الرُّوح من الصعود إلى الجنة. هذه النظرة إلى الموت بوصفه «فنًا» أو «ممارسةً»، وليس عملية بيولوجية خالية من العاطفة، قد تكون مصدر قوة كبيرة.

لا يوجد في مجتمعنا دليل لفنِّ الموت، لذلك قررتُ أن أكتب بنفسي دليلًا على أن يكون غير مخصص للمتدينين وحدهم، بل ولمن بيننا من الملحدين واللاأدريين و«الروحانيين» الغامضين الذين يتزايد عددهم يومًا بعد اليوم.

بالنسبة إليَّ تشمل الميتة السَّوية الاستعداد للموت، وتسوية أموري، وإيصال الرسائل الجيدة والسيِّئة التي تحتاج إلى إيصال. الميتة السوية تعني الموت بينما لا يزال ذهني حادًا وواعيًا، وتعني ألا يجبر موتي أحدًا على تحمل قدر كبير من المعاناة والألم، والميتة السوية هي قبول حتمية الموت، وعدم محاربته عندما يحين وقته. هذه ميتتي السوية، لكن كما قال المعالج النَّفسي الأسطوري كارل يونج: «لن يساعدك سماع ما أفكر فيه عن الموت»، فعلاقتك بالفناء خاصة بك وحدك.

جلست مؤخرًا بجوار رجل ياباني في منتصف العمر في رحلة بين لوس أنجلوس ورينو، كان يقرأ مجلة مهنية تُسمى موضوعات حول داء البواسير مع مقطع عرضي فوتوجرافي كامل وواسع النطاق للقناة الشرجية على الغلاف. يبدو أن مجلات أطباء الجهاز الهضمي لا تتهاون وتضع صور غلاف مجازيَّة لغروب الشمس أو مناظر الجبال. من ناحيتي كنت أقرأ مجلة مهنية كتبت على الغلاف: «مشكلة التحلل!»، نظرنا إلى بعضنا بعضًا وابتسمنا، واشتركنا في فهم ضمني أن منشورات كلٍ منا ليست للاستهلاك الشعبي.

قدَّم نفسه على أنه طبيب وأستاذ في كلية الطِّب، وقدَّمت نفسي على أنني حانوتية أحاول تشجيع الجمهور الأوسع على التَّحدث عن الموت، وعندما اكتشف مساعيَّ، قال: «هذا جيد، أنا سعيد لأنكِ تتحدثين عن هذا. بحلول عام 2020 سيكون هناك نقص كبير في الأطباء ومقدمي الرعاية، لكن لا أحد يريد التحدث عن ذلك».

نعرف جميعًا شعارَ: «في خضم الحياة نكون في الموت». ففي النهاية، نبدأ في الموت منذ لحظة ولادتنا، ولكن بسبب التقدُّم في العلوم الطبيَّة فإن غالبية الأمريكيين سيقضون السَّنوات الأخيرة من حياتهم في الاحتضار. تعتبر الشريحة الأسرع نموًا من سكان الولايات المتَّحدة تلك التي تخطت 85 عامًا، وهو ما يمكن أن أسميه المسنون بشدة. فإذا بلغت الخامسة والثمانين، فلا تزيد فرصك في العيش مع شكل من أشكال الخرف أو أحد الأمراض العضال فحسب، بل تُظهر الإحصائيات أنَّك ستدخل دارًا لرعاية المسنين بنسبة 50%، ما يثير التساؤل عما إذا كانت الحياة الطيبة تُقاس بجودتها أم طولها.

يختلف هذا الانخفاض البطيء اختلافًا حادًا عن الأزمنة الماضية، عندما كان الناس يموتون على الأرجح بسرعة، وغالبًا في يوم واحد. لقد سَجَّلت الصُّور الدَّاجِيرِيَّة للجثث من القرن التاسع عشر جثثًا جديدة وشابة وشبه واقعية، وكثير منها من ضحايا الحمى القرمزية أو الدفتيريا.

في عام 1899 كان 4% فقط من سكان الولايات المتحدة فوق سنِّ الخامسة والستين، وانسَ تمكينهم من الوصول إلى خمسة وثمانين عامًا. الآن، سيعرف الكثيرون أنَّ الموت قادم عبر شهور أو سنوات من التَّدهور الصحيِّ. لقد منحنا الطبُّ «الفرصة» -إن اعتبرنا هذه فرصة- بأن نحضر حفلات يقظتنا.

لكن هذا التَّدهور التَّدريجي يأتي بتكلفة باهظة، فهناك أشكال كثيرة لبشاعة الجثث، الجثث مقطوعة الرأس مروعة إلى حدٍّ ما، وكذلك تلك التي انتُشلت من الماء بعد عدة أيام من الغرق وقد أصبح جلدها أخضرَ وانقطع إلى شرائط منفصلة، لكن قرح الفراش رعب نفسي فريد. كقاعدة عامة، يجب تحريك المريض طريح الفراش كلَّ بضع ساعات، وتقليبه كالفطيرة للتأكد من أنَّ وزن جسمه لا يضغط عظامه على الأنسجة والجلد، ما يقطع الدورة الدموية، ودون تدفق الدم تبدأ الأنسجة في التحلُّل، تحدث القرحة عندما يُترَك المريض في الفراش لفترة طويلة، كما يحدث غالبًا في دور رعاية المسنين التي تعاني من نقص الموظفين.

دون بعض الحركة سيبدأ المريض حرفيًا في التحلل وهو لا يزال على قيد الحياة، وستأكله أنسجته الميتة حيًّا. ثمَّة جثَّة معينة دخلت غرفة التجهيز في ويست ويند وسأتذكرها بقيَّة حياتي.

كانت جثة امرأة أمريكية من أصل إفريقي تبلغ من العمر تسعين عامًا جاءت من دار للمسنين سيئة التجهيز، حيث وُضع المرضى غير الملازمين للفراش في غرف احتجاز غير مبهجة، ولا يفعلون سوى التحديق إلى الحيطان بهدوء. عندما أدرتها لغسل ظهرها، ضربتي مفاجأة مروعة لجرح فجٍّ متفاقم بحجم كرة القدم متقيح في أسفل ظهرها، أشبهه بفم الجحيم المفتوح. يمكنك تقريبًا التَّحديق من خلال هذا الجرح إلى مستقبلنا البائس.

لا نمتلك (ولن نمتلك) الموارد اللازمة لتقديم الرِّعاية المناسبة لسكاننا المسنين المتزايدين، ومع ذلك نصرٌّ على التدخل الطبي لإبقائهم على قيد الحياة، فالسماح لهم بالموت قد يتَّهم نظامنا الطِّبي الحديث بالفشل وهو الذي يُفترض أن يكون معصومًا من الخطأ.

كتب الجرَّاح أتول جواندي في مقال مؤلم في صحيفة «نيويوركر» عن الشيخوخة: «هناك عشرات من الكتب الأكثر مبيعًا التي تتناول الشيخوخة، ولكنها تميل إلى رفع شعارات مثل: (أصغر في السنة القادمة) و(نافورة العمر) و(شباب دائم) و(السنوات المثيرة). لكن تكلفة إغماض أعيننا عن الحقائق لن تختفي. إننا نؤجل التغييرات التي نحتاج إلى إجرائها كمجتمع، ففي غضون ثلاثين عامًا، سيتخطى عدد مَن تخطوا الثمانين عددَ الأطفال تحت خمس سنوات».

عامًا بعد عام، واجه زميلي في المقعد، اختصاصيٌّ أمراض الجهاز الهضمي والأستاذ الجامعي، مجموعة جديدة من الطلاب الخائفين من موتهم. فعلى الرغم من استمرار ارتفاع أعداد المسنين فإنه قد كافح لسنوات لإقامة المزيد من الفصول حول أمراض الشيخوخة (دراسة أمراض كبار السن وعلاجها)، لكنه قوبل بالرفض مرارًا وتكرارًا. يرفض طلبة الطب رعاية المسنين، الدَّخل منخفض للغاية، والعمل فظيع للغاية، وليس من المستغرب أن يتخرج في كليات الطبِّ كلَّ عام أفواجٌ ضخمة من جراحي التَّجميل اختصاصيي الأشعة.

أضاف جواندي: «سألت تشاد بولت، أستاذ طب الشيخوخة الآن في جامعة جونز هوبكنز، ما الذي يمكن فعله لضمان وجود عدد كافٍ من أطباء الشيخوخة لعدد السكان المسنين المتزايد في بلادنا. قال: (لا شيء، لقد فات الأوان)».

لقد تأثرت أنَّ زميلي الطبيب (وصاحب الروح الودودة حقًا) استخدم نهجًا منفتحًا. قال: «أقول للمرضى المحتضرين إنني أستطيع إطالة حياتهم، لكن لا يمكنني دائمًا شفاؤهم، إذا اختاروا إطالة حياتهم، فهذا يعني الألم والمعاناة، لا أريد أن أكون قاسيًا على الإطلاق، لكنهم بحاجة إلى فهم التَّشخيص».

قلت بتفاؤل: «على الأقل يتعلم طلابك ذلك منك».

- حسنًا حسنًا، ولكن إليك المشكلة. الشيء: يتهرَّب طلابي دائمًا من إبلاغ المريض بتشخيصه بمرض عضال. ويجب أن أسأل: هل شرحت لهم المرض بالكامل؟

سألت مصدومة: «حتى إن كان الشخص يحتضر... لا يخبرونه وحسب؟»

أومأ برأسه: «إنهم لا يريدون مواجهة فنائهم، إنهم يفضِّلون دخول امتحان التَّشريح للمرة الثَّامنة على مواجهة شخص يحتضر. والأطباء الرجال الكبار الذين هم في مثل عمري، حالتهم أسوأ منهم».

كانت جدتي «لوسيل كابلي» في الثامنة والثمانين من عمرها عندما فقدت عقلها، على الرغم من أنَّ جسدها من الناحية الفنية عاش حتى سن الثانية والتسعين. كانت ذاهبة إلى الحمام في منتصف الليل وسقطت، فاصطدم رأسها بطاولة القهوة وأُصيبت بورمٍ دمويٍّ تحت الجافية: أي نزيف حول الدماغ. بعد بضعة أشهر في مركز إعادة التأهيل، ومشاركة غرفة مع امرأة تدعى «إديلتراوت تشانج» (التي أذكرها فقط لأن اسمها كان أعظم اسم ألَّفه إنسان على الإطلاق)، عادت جدتي للمنزل لكنها لم تعد لطبيعتها قط، فقد تحوَّلت بسبب تلف دماغها إلى شخصية كارتونية.

دون تدخل طبي، لماتت توتو (كلمة هاوايية تعني الجدة) بعد فترة وجيزة من إصابة دماغها المؤلمة. لكن هذا لم يحدث، وقد أصرَّت قبل أن يضعف عقلها: «بحق السماء، لا تدعوني أصبح هكذا أبدًا»، ومع ذلك أصبحت هناك عالقة في ذلك المكان المُحزن بين الحياة والموت.

بعد الورم الدَّموي تحت الجافية، كانت توتو تحكي قصصًا طويلة وخيالية تشرح كيف سقطت وتأذت، والقصة المفضلة لدي هي أنَّ مدينة هونولولو كلفتها برسم جدارية عند مدخل مجلس المدينة. وفي أثناء قيادتها فريق الرَّسامين المبتهجين في مهمة فنية فوق شجرة منغروف، انكسر فرع الشجرة وسقطت على الأرض.

في إحدى الأمسيات التي لا تُنسى، ظنت توتو والدي الذي تعرفه منذ أربعين عامًا عامل صيانة يحاول سرقة مجوهراتها، وكان جدي الذي توفي قبل عدة سنوات بعد الإصابة بمرض الزهايمر، يزورها رغم موته ليخبرها معلومات سرية من الآخرة. ووفقًا لتوتو اغتالت الحكومة الجد دايتون للتستر على حقيقة أنه كان وحده يعلم السبب البنيوي لفشل السدود بعد إعصار كاترينا.

كانت توتو هو ما نسميه «عجوز قوية»، فقد شربت المارتيني ودخَّنت السجائر حتى آخر يوم من عمرها، ومع ذلك ظلت رئتاها ورديتين كخدَّي طفل (هذه النتائج ليست نموذجية). لقد نشأت في الغرب الأوسط الأمريكي خلال فترة الكساد، وأُجبرت على ارتداء نفس التنورة والبلوزة كل يوم لمدة عام كامل، وبعد أن تزوجت من جدي، عاشا في جميع بلاد العالم، من اليابان إلى إيران، واستقرا في هاواي في السبعينيات، كان منزلهما على بعد مجمَّع سكني واحد من منزلي.

بعد الحادث أمضت توتو سنواتها المتبقية تعيش مثل ملكة سبأ في عمارات تقاعدها في وسط المدينة. حصلت على رعاية على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع من امرأة من سامو تُدعى «فاليري» أقرب ما تكون للقداسة. فحتَّى قرب نهاية حياة توتو عندما ضعف عقل جدتي أكثر فأكثر، كانت فاليري تُخرج توتو من الفراش كل صباح، وتحممها، وتُلبِسها (ولا تنسى عقد اللؤلؤ أبدًا)، وتأخذها في نزهات حول المدينة، وحين لم تسمح صحة توتو بمغادرتها المنزل، كانت تناولها سجائرها بمحبة وتركت سي إن إن على التلفزيون.

الحقيقة المؤسفة وأحد الأسباب التي تجعل الاعتراف صراحةً بالموت أمرًا بالغ الأهمية، أنَّ حظ معظم الأشخاص الذين يبلغون سنًا متقدمة للغاية ليس قريبًا من حظ توتو، بخطة تقاعدها الجيدة وممرضتها المتفرغة، وسرير الفوم القابل للتعديل. توتو استثناء يثبت القاعدة المأسوية، فلأن جيش الشيوخ المتنامي هذا يذكرنا بفنائنا، ندفعهم إلى الظلال. وتُترك معظم

النساء المسنات (يمثل جنسنا غالبية كبار السن) في دور رعاية المسنين المكتظة، لينتظرن في ركود مؤلم.

حين نتجنب الحديث عن الموت مع أحبائنا، ولا نشرح باستخدام وثائق التَّوجيهات المتقدمة ووثائق عدم الإنعاش، وخطط الجنازة، فإننا نساهم مباشرة في بناء هذا المستقبل والحاضر القاتم إلى حد ما.

بدلًا من الانخراط في نقاشات مجتمعية أكبر حول توفير طرق إنهاء الحياة بصورة كريمة للمرضى الميؤوس من شفائهم، نقبل الحالات التي لا تطاق مثل حالة «أنجيليتا»، أرملة من ولاية أوكلاند غطت رأسها بكيس بلاستيكي لأن الألم النَّاتج عن التهاب مفاصلها كان فوق طاقتها على التَّحمل، أو حالة «فيكتور» في لوس أنجلوس، الذي شنق نفسه من عوارض شقته بعد جولته الثالثة غير الناجحة مع العلاج الكيميائي، تاركًا لابنه اكتشاف جثته، أو الجثث التي لا حصر لها المصابة بقرح الفراش، وهذه جثث تؤلمني العناية بها أكثر من الأطفال أو حالات الانتحار.

فعندما تأتي هذه الجثث إلى دار الجنائز، لا يسعني إلا أن أقدِّم تعاطفي لأقاربهم الأحياء، وأعد بالعمل على ضمان عدم حرمان المزيد من الناس من الموت بكرامة بسبب ثقافة الصمت.

حتى مع العلم بأنهم قد يموتون موتًا بطيئًا ومضنيًا، يتمسَّك الكثير من الناس بالبقاء على قيد الحياة بأيِّ ثمن. وبالفعل، أنفق لاري إليسون ثالث أغنى رجل في أمريكا ملايين الدولارات على أبحاث تهدف إلى إطالة العمر، لأنه بحسب كلامه: «يغضبني الموت بشدة، إنه غير منطقي بالنسبة إلي». لقد جعل إليسون الموت عدوه ورأى أن علينا توسيع ترسانتنا من التكنولوجيا الطبية لوضع حد له تمامًا.

وليس من المستغرب أنَّ أصحاب المحاولات المحمومة لإطالة أعمارنا هم رجال بيض أثرياء، إنَّهم الرجال الذين عاشوا حياة حصلوا فيها امتيازات ممنهجة، ويعتقدون أنَّ الامتيازات يجب أن تمتدَّ إلى أجل غير مسمى.

لقد خرجت في موعد غرامي مع أحدهم، وهو طالب دكتوراه في علم الأحياء المحوسب في جامعة جنوب كاليفورنيا. بدأ «آيزك» مسيرته الجامعية في الفيزياء، لكنه انتقل عنها بمجرد أن اكتشف أنَّ الإنسان، من الناحية البيولوجية، ليس مضطرًا إلى التقدُّم في السن. ولعل كلمة «اكتشف» أقوى من الحقيقة. قال لي آيزك وهو يتناول شطيرة دجاج عضوي ولا تبدو عليه أي أمارات السخرية: «خطر لي أنه باستخدام مبادئ الفيزياء والأحياء، يمكننا هندسة والحفاظ على حالة من الشباب اللانهائي. لكن عندما أدركت أن هناك أشخاصًا آخرين يعملون بالفعل على ذلك، قلت: اللعنة».

على الرغم من أنَّه سعى بجدِّية نحو النُّجومية في موسيقى الروك وفكَّر في كتابة رواية عظيمة، فإنه قد أسهب آيزك بشاعرية في الحديث عن الميتوكوندريا وموت الخلايا وفكرة إبطاء عملية الشيخوخة إلى سرعة الحلزون. لكنني كنت مستعدة له، قلت: «هناك بالفعل تضخُّم سكَّاني، والكثير من الفقر والدمار، ليس لدينا الموارد الكافية لرعاية الموجودين بالفعل على الأرض، ناهيك بمن سيعيشون إلى الأبد! وسيظل الموت موجودًا بسبب الحوادث، سيكون موت شخص من المفترض أن يعيش إلى الثلاثمئة أكثر مأسوية حين يموت في الثانية والعشرين».

كان آيزك غير متأثر تمامًا، وأوضح: «هذا ليس للآخرين هذا لي، أنا مرعوب من فكرة أن يتحلل جسدي، لا أريد أن أموت، أريد أن أعيش إلى الأبد».

قد يبدو الموت مدمرًا لكل معنى في الحياة، لكنه في الحقيقة مصدر إبداعنا، فكما قال كافكا: «معنى الحياة أنَّها تنتهي». الموت هو المحرِّك الذي يجعلنا نركض، ويمنحنا الدافع للإنجاز والتعلُّم والحب والإبداع. لقد أعلن الفلاسفة هذا منذ آلاف السنين بنفس القدر من الحزم الذي نتجاهله به الآن جيلًا بعد جيل. كان آيزك طالب دكتوراه ويستكشف حدود العلم ويؤلِّف الموسيقى بسبب الإلهام الذي حصل عليه من الموت. ولو عاش إلى الأبد، فمن المحتمل أنه سيصبح مملًا، وباردًا، ومتهاونًا، ومحرومًا من ثراء الحياة بسبب الروتين المُضجر.

لقد ولدت الإنجازات العظيمة التي حققتها الإنسانية بسبب مواعيد التسليم التي فرضها الموت، ولا يبدو أنه يدرك أنَّ الحماسة التي في صدره هي بسبب الفناء: الشيء الذي يحاول هزيمته.

في الصَّباح الذي تلقيت فيه خبر وفاة توتو، كنت في لوس أنجلوس في محرقة جثث، أضع علامات تمييز على صناديق الرماد، فبعد قرابة عام من قيادة شاحنة الجثث، انتقلت مؤخرًا إلى وظيفة في مشرحة وأدير مكتبهم المحلي، أصبحت الآن أعمل مع العائلات وأقوم بتنسيق الجنازات وعمليات الحرق مع الأطباء، ومكتب الطبيب الشرعي، ومكتب شهادات الوفاة بالمقاطعة.

رنَّ جرس الهاتف، وكان صوت والدتي على الطرف الآخر: «اتصلت فاليري للتو، إنَّها مفزوعة. قالت إن توتو لا تتنفس، أعتقد أنَّها ماتت، أعرف دائمًا ما عليَّ فعله، لكنني الآن لا أعرف، أنا لا أعرف ما يجب فعله».

قضيت ما تبقى من صباحي على الهاتف مع أفراد الأسرة ودار الجنائز، هذا الشيء نفسه الذي كنت أفعله في العمل كل يوم، باستثناء أنه الآن يتعلق بجدتي، المرأة التي عاشت على بُعد مجمع سكني واحد خلال نشأتي، والتي أدخلتني كليَّة العلوم الجنائزية والتي نادتني بـ «كاتي الحلوة».

وفيما انتظروا وصول الحانوتي، وضعت فاليري جثة توتو على سريرها وألبستها سترة من الكشمير الأخضر ووشاح ملون. أرسلت إليَّ أمي صورة وعلقَّت: «ها هي توتو». وحتى من خلال الهاتف، استطعت أن أجزم بأن توتو بدت مطمئنة أكثر مما كانت عليه لسنوات، فلم يعُد الارتباك باديًا على وجهها، ولم تعد تكافح لفهم قواعد العالم المحيط بها. ظلَّ فم توتو مفتوحًا ووجهها أصبح بهتًا، لكنها كانت جميلة، إنَّها بقايا نفسها التي كانت موجودة من قبل، ما زلت أعتز بهذه الصورة.

خلال رحلتي إلى هاواي بعد ظهر ذلك اليوم، راودني أحد تلك الأحلام السعيدة التي تكون شيئًا بين الحلم والكابوس. كنت في دار الجنائز لرؤية توتو، وأخذوني إلى غرفة يرقد فيها جسدها الهزيل في تابوت زجاجي مغلق. كان وجهها متحللًا ومنتفخًا وأسودَ. إنَّها محنَّطة، لكن وقع خطأ فادح، سأل

مدير الجنازة: «هل تعجبك؟» بكيت: «يا إلهي، لا! لا تعجبني!»، وتناولت ملاءة لتغطيتها. أخبرتهم ألا يحنطوها، لكنهم فعلوا رغم ذلك.

أمَّا في الواقع، فقد أوكلتني عائلتي بالتَّعامل مع ترتيبات الجنازة، فأنا أهل الذِّكر هنا. قررنا أن نقيم حفل رؤية بسيطًا لعائلتنا ثم شهود حرق الجثمان، عندما وصلنا إلى غرفة الرؤية، فهمت ما قصده الرجل القادم من نيوزيلندا (أم كانت أستراليا؟ ربَّما لن أعرف أبدًا) في ويست ويند بعبارة: «كانت تبدو أفضل من قبل»، فلم تبد توتو كما كانت في الصورة التي أرسلتها إليَّ والدتي. لقد أُغلق فمها بالأسلاك والصمغ الفائق، أعرف الحيل التي استخدموها، وكان على شفتيها صبغة شفاه بلون أحمرَ لم تضعه في حياتها قط. لم أصدق أنني تركت جسد جدتي يقع ضحية لتعذيب ما بعد الموت الذي كنت أحارب ضده، لكن هذا يُظهر مدى قوة سيطرة صناعة الموت على موتنا.

حدقت أنا وعائلتي إلى جثة توتو النَّائمة في التابوت، لمس أحد أبناء عمومتي يدها بطريقة خرقاء، اقتربت فاليري ممرضتها من النَّعش حاملةً ابنة أختها البالغة من العمر أربع سنوات، التي كانت تأتي كثيرًا لزيارة توتو، تركت فاليري ابنة أختها تقبِّل توتو مرارًا وتكرارًا، وبدأت هي نفسها في النَّحيب، وهي تلمس وجه توتو وتبكي: «لوسي! لوسي! سيدتي الجميلة» بلهجتها الساموية الفاتنة. لقد أخجلتني رؤيتها وهي تلمس الجثة بكل حرية لأنني كنت غريبة الأطوار للغاية، أشعر بالخجل من نفسي لأنني لم أضغط بشدة لإبقاء جثة توتو في المنزل، حتى عندما أخبر مدير الجنازة والدتي أنَّ الاحتفاظ بالجثة لمدة تزيد على ساعتين مخالف لقانون ولاية هاواي (ليس صحيحًا).

ليس من السابق لأوانه أبدًا أن تبدأ في التفكير في موتك وموت من تحب، لا أقصد التفكير في الموت بهوس لا يتوقف، أو القلق من أن يُسحق زوجك في حادث سيارة مروِّع، أو أن طائرتك ستشتعل فيها النيران وتهبط من السماء، بل التَّفاعل العقلاني الذي ينتهي بإدراكك أنك ستنجو من الأسوأ، مهما كان الأسوأ، وقبول الموت لا يعني أنَّك لن تحزن بشدة حين يموت شخص تحبه، إنَّما يعني أنَّك ستكون قادرًا على التركيز على حزنك، دون أعباء أسئلة وجودية

أكبر مثل: «لماذا يموت الناس؟»، و«لماذا يحدث هذا لي؟»، الموت لا يحدث لك، الموت يحدث لنا جميعًا.

تقف ثقافة إنكار الموت عائقًا أمام تحقيق الميتة السَّوية، لن يكون التَّغلب على مخاوفنا والمفاهيم الخاطئة الجامحة المتعلِّقة بالموت مهمة سهلة، ولكن ينبغي ألا ننسى كيف انهارت التحيُّزات الثقافية الأخرى بسرعة: العنصريَّة والتَّمييز على أساس الجنس، خلال السنوات الماضية. وحان وقت الوقوف مع الموت وقفة مصارحة.

يقول البوذيُّون إنَّ الأفكار كقطرات الماء المتساقطة على الدماغ، فعندما تعزز الفكرة نفسها، فإنَّها ستحفر مسارًا جديدًا في وعيك، كالماء الذي يأكل جانب الجبل. يؤكد العلماء هذا الجزء من الحكمة الشعبية: خلايانا العصبية تقطع روابطها وتشكِّل مسارات جديدة طوال الوقت، وحتى إن دُربت على الخوف من الموت، فهذا المسار لم يُحفر في حجر، كلٌّ منا مسؤول عن البحث عن معرفة جديدة وإنشاء دوائر عصبية جديدة.

لم يُحكم عليَّ أن أكون الطفلة التي يطاردها مشهد قتل فتاة مركز تسوق في هاواي لنفسها، ولم يُحكم عليَّ إلى الأبد أن أكون المرأة التي أوشكت على الانتحار في غابة ريد وودز بدلًا من الاستسلام لحياة استهلكها الموت. وعبر تفاعلي مع الفن والأدب، ومن خلال مواجهاتي مع حقيقة موتي، أعدت تشكيل دوائر دماغي لأحصل على ما أسماه «جوزيف كامبل»: «حياة إنسانية كاملة أكثر جرأة ونظافة واتساعًا».

في يوم رؤية توتو، انقطعت الكهرباء في الكنيسة الرئيسة لمنزل الجنائز، وقرروا استكشاف العطل وإصلاحه بعد نقل عائلة أخرى أكبر بكثير إلى غرفتنا. احتشد العشرات من الناس خارج غرفتنا واقفين خلف الزجاج في انتظاري أنا وأقاربي لإنهاء رؤيتنا، كان من الواضح أننا تسببنا في إزعاج لهذه العائلة وموظفي المنزل الجنائزي. فكرت للمرة الثلاثمئة في ذلك اليوم، فإنني لو لم أستسلم وأبقيت توتو في المنزل لكان الوضع مختلفًا تمامًا.

وعندما أصبح الحشد أثقل من أن نتجاهله قطعنا الجنازة، كان على عائلتنا عمليًّا الهرولة خروجًا من القاعة لمواكبة مدير الجنازة الذي ينقل تابوت توتو إلى المحرقة، وأشعل عامل حرق الجثث النيران قبل أن تجتمع عائلتي بأكملها. أفتقد ويست ويند التي تميَّزت ببعض الانفتاح والدِّفء، على الرغم من ديكورها الصناعي وسقوفها المقببة وفتحات السقف (وإلى كريس وهو يشعل الشمعة بعد إغلاق باب الفرن) شعرت وكأنني قد خذلت عائلتي.

في يوم من الأيام، أودُّ أن أفتح محرقة لنفسي ولن تكون مستودعًا صناعيًا، بل مساحة حميمية ومفتوحة، بنوافذ ممتدة من الأرض إلى السقف للسماح بدخول أشعة الشمس وخروج وصمة الموت الغريبة. ومن خلال انتشار منظمة Order of the Good Death تمكنت من العمل مع اثنين من المهندسين المعماريين الإيطاليين على تصميم مثل هذا المكان، حيث يمكن للعائلة مشاهدة ميتهم وهو يدخل آلة حرق الجثث تحت الضوء الطبيعي، ما يوهمهم بأنَّهم في الهواء الطلق في مكان من الصفاء والطبيعة، وليس من مكان صناعي.

أريد أيضًا قوانين أفضل على جميع المستويات في أمريكا الشمالية، تسمح بمزيد من المدافن الطبيعية وأيضًا بإقامة المحارق في الهواء الطلق وإتاحة أراضٍ مفتوحة يمكن وضع الجثث فيها في العراء لتأكلها الطبيعة.

لا نحتاج إلى التَّوقف عند الدَّفن الأخضر أو الطبيعي. فكلمة الدفن في الإنجليزية تأتي من الكلمة الأنجلوساكسونية «birgan»، أي «الإخفاء». لا يريد الجميع الإخفاء تحت الأرض، لا أريد أن أُخفَى، فمنذ ليلتي الروحية المظلمة في الغابة اقتنعت أنَّ الحيوانات التي أكلتها طوال حياتي يجب أن يأتي دورها في أكلي يومًا ما. كان الإثيوبيون القدماء يضعون موتاهم في البحيرة التي يصطادون منها لتتمكَّن الأسماك من استعادة العناصر الغذائيَّة، لقد صُممت الأرض بخبرة لاستعادة ما أنتجته، والجثث التي تُترك للحيوانات في أماكن مغلقة ومنظمة قد تكون الحلَّ للمشكلات البيئيَّة للدفن وحرق الجثث، لا يوجد حد لما يمكن أن نفعله حين نتفاعل بصورة طبيعية مع الموت.

يمكننا أن نهرب أكثر في ديستوبيا الموت، وننكر أننا سنموت ونخفي الجثث عن أعيننا. واتِّخاذ هذا القرار يعني أننا سنظل مرتعبين من الموت وجاهلين به، وبالدُّور الكبير الذي يلعبه في طريقتنا في العيش. دعونا بدلًا من ذلك نقبل فناءنا، ونكتب «فن الموت» الخاص بعالمنا الحديث بضربات جريئة لا تعرف الخوف.

عودة الابنة الضالة
(خاتمة نوعًا ما)

بعد أربع سنوات من ترك وظيفتي في ويست ويند لحرق الجثث ودفنها، وقفت مرة أخرى على بوابتها الأمامية، قرعت الجرس وعادت الابنة الضالة لمنزلها بموقد حرق الجثث، بعد لحظات قليلة جاء مايك ليُدخلني.

قال بابتسامة انتصار: «انظروا مَن جاء، إنك مثل القرش السيئ، كلما ألقيته عاد لك، تعالي معي إلى الداخل، أنا آخذ بصمات جثة».

قطعنا الردهة وعدنا للمحرقة، وما زلت أشعر ببعض الاحترام الذي شعرت به حين دخلت تلك الغرفة التي تشبه الكهف لأول مرة قبل خمس سنوات. في منتصف الغرفة وجدت سرير أطفال يحمل جثة امرأة مسنة، كانت محاطة بأربع أوراق بيضاء ممتلئة على طول الحواف ببصمات أصابع سوداء.

قلت: «حسنًا، فأنت حرفيًا تأخذ بصمات جثة، كنت أتساءل هل هذا استعارة أو شيء من هذا القبيل. هل تفعل هذا لصنع قلادة إبهام؟»

إذ تذكَّرت الشَّركة التي تقوم بحفر البصمات بالليزر على قلادات تذكارية، يبدو أنَّ حتى ويست ويند لم تستطع الهروب من موجة التخصيص التي اجتاحت صناعة الجنائز.

قال مايك وهو يرفع يد المرأة ويمسح بلطف الحبر الأسود عن إبهامها: «نعم، لقد أصبتِ». بعد ذلك وضع طبقة جديدة من الحبر وضغط إبهامها للمرة الألف على الورق. «هذه الأشياء تصيبني بالهوس يا رجل، ولا واحدة

من هؤلاء صالحة للاستخدام، وسأحرق الجثة اليوم، لا بدّ من الحصول على بصمة جيدة».

ذهب مايك للردِّ على الهاتف، وأخرجت دفتر ملاحظاتي، لقد جئت لأجري أبحاثًا لكتابة هذا الكتاب، جئت لطرح الأسئلة، وتأكيد القصص. حتى إنني حددت موعدًا رسميًا كالمحترفين. عاد مايك للغرفة وسأل مباشرة: «هل ستكونين هنا بعد الظهر؟ نريدك أن تذهبي لتسلُّم جثة من بيدمونت. لدي جنازة اليوم، ولا يمكنني الذهاب، وكريس بحاجة إلى شخص معه».

لقد عدت قبل خمس دقائق فقط، ويرسلونني لتسلُّم جثة، كأنني لم أغادر قط، جدول الموت الذي لا يُقهر يُعيدني للعمل مباشرة.

أجبته: «ماذا تقول! بالطبع سأذهب». في محاولة لأن أبدو غير مبالية، بصراحة كنت متحمسة جدًا للعودة للفريق.

- جيد، كريس عائد من عند الطبيب الشرعي الآن. بالمناسبة، لم أخبره أنَّك قادمة اليوم، إنَّها مفاجأة.

عندما دخل كريس من الباب، لمحت نظرة عدم التَّصديق على وجهه، ثم اختفت النظرة بسرعة وقال: «كنت أعلم أنَّك ستعودين يا كات».

في وقت لاحق، في أثناء قيادتنا للسيارة عبر التِّلال المتعرِّجة حتى بيدمونت، سألني كريس أين أقيم.

أجبته: «في أوكلاند، مع بعض الأصدقاء».

أجاب: «هذا جيد، هذا يعني أنَّك لست مضطرة للذهاب إلى تلك المدينة الشيطانية».

مشيرًا بخفاء إلى سان فرانسيسكو.

تابع: «سمعت أنَّك تكتبين كتابًا».

ورسم علامات اقتباس بأصابعه.

قلت: «إنه كتاب حقيقي يا كريس وليس افتراضيًا».

- لماذا تكتبين عنا؟ إننا مملون، يجب أن تجعلي فيه شخصيات خيالية، مثلنا ولكن أفضل.

- رأيي أنكم مثيرون للاهتمام يا رفاق.

- المكان هنا ممل كالمقابر، من الجيد أنَّك خرجت من هنا قبل أن يفوت الأوان، محزنٌ أنَّك لم تتركي المجال بأكمله.

توقفنا أمام منزل قديم كبير بسياج خشبي أبيض مغطى بالكروم.

قال كريس، وهو يخرج النقَّالة من مؤخرة الشاحنة: «حسنًا، هذا مكان جميل، لقد حالفك الحظ يا كات، الجثة التي تسلمتها بالأمس كانت متحللة، لقد لوثتني بالكامل، على الرغم من أنَّ هذا الرجل كان في شقة جميلة أيضًا، لا يعرف المرء أبدًا ما بالداخل.

عدنا لويست ويند بجثة السيدة «شيرمان»، وهي امرأة جميلة في منتصف الثمانينيات ولها شعر أبيض كثيف. غسلت أسرتها جسدها وغطتها بالزهور النضرة. قبل أن أزلقها على سرير التجهيز، أمسكت بيدها، وكانت أبرد من يد إنسان حي وأدفأ من مجرد مادة جامدة. كان ردُّ فعلي على رؤيتها وهي نائمة بهذه الطريقة تذكيرًا بمدى تغيري عما كنت عليه حين بدأت العمل في ويست ويند. لقد كانت الجثث تخيفني من قبل، أما الآن فلم يعد شيء أكثر أناقة في عيني من جثة في حالتها الطبيعية، جهَّزتها عائلتها بكرامة.

بعد توصيل السيِّدة شيرمان خرج كريس مرة أخرى لتسلُّم الدفعة الأخيرة من الأطفال، كان مايك في مكتب الاستقبال يُجري بعض ترتيبات جنازة مع إحدى الأسر، ومع عدم وجود أحد أتحدث معه، قررت إدخال السيدة شيرمان في وحدة التبريد، وفيما كنت أغلق الحاوية بشريط لاصق وأضع عليها علامة التعريف جرحتني حافة الورق المقوى بنفس الطريقة الحادة الدقيقة التي جرحتني بها مئات المرات من قبل مليون مرة، صرخت ولا أحد حولي: «أوه، أحقًا؟».

دخلت أحدث مشغلة لفرن الجثث لدى ويست ويند، شابة تدعى «شيريل»، وبدا واضحًا عليها الارتباك لوجودي هناك. بعد أن أوضحت من أكون،

صافحتني بفتور وخرجت مرة أخرى، وكان «جيري»، الرجل الذي عيَّنوه ليحلَّ مكاني، قد توفي بسرطان سريع الانتشار قبل بضعة أشهر عن 45 عامًا فقط.

وعندما هممت بالمغادرة في ذلك اليوم، توقف بروس عدة مرات لتسلُّم شيكات العديد من عمليات التحنيط التي أنجزها في الأسبوع السابق. قال: «كيتلين! كيف حالك؟». لقد رأيت المقاطع التي تنشرينها على الإنترنت. ما اسم موقعك الإلكتروني؟»

- The Order of Good Death.

- نعم، نعم، والمقاطع الأخرى، سؤال لحانوتية؟ نعم، إنَّها جيدة، جيدة.

- شكرًا يا بروس سعيدة أنك أحببتها.

- أتعرفين ما عليك فعله؟ لدي خطة لك. تحتاج إلى إقامة عرض في الليل، كما يحدث في أفلام الوحوش وما شابه. عرض مثل أجب حانوتية... أليس هذا هو اسمه؟ على أيٍّ حال، سيكون هكذا مع ميزات المخلوقات المشابهة. كان هناك عرض مشابه على التلفاز في السبعينيات، حاولت إقناع صديقي في KTVU بإعادته. كان الجميع يشاهدون أفلام الوحوش يوم السبت، مثل سيفنجولي أو من تلك المرأة... فامبيرا أشياء تدور حول طوائف سرية.

- أعتقد أنني سأكون بديلة سيئة جدًا لفامبيرا.

أجاب مؤكدًا: «لا! لا تقلق بشأن ذلك، أنت الوريث المناسب لها، سأتحدث مع صديقي عن الأمر».

وأنا أغادر سان فرانسيسكو، مررت بالسيارة على رونديل بليس. لقد أزيل الطلاء الوردي الباهت عن شقتي وجُددت على الطراز الفيكتوري وصولًا إلى الزركشة المذهبة، راودني شعور بأن غرفتي القديمة لم تعد تؤجر مقابل 500 دولار في الشهر. وافتُتح متجرٌ لصناعة حقائب الساعي يدويًا للدراجات الهوائيَّة في الجانب الآخر من الشارع، وهددت الكاميرات عالية التقنية في نهاية الزقاق بكشف الأوغاد المحتملين.

لقد أُعيد رصف الأرصفة في الشوارع المحيطة بمادة لامعة. لقد كان التغيير صادمًا مقارنة ببرونديل الذي أعرفه، ولكن كما تقول النكتة: «س: ما هو تعريف المُجدد؟ ج: شخص وصل بعدك بخمس دقائق».

في منتصف الطريق إلى لوس أنجلوس، توقَّفت لقضاء الليلة في منزل ضيافة صغير في بلدة كامبريا الساحلية، كان هذا أحد الأماكن المفضلة إليَّ في كاليفورنيا، لكنني امتلأت بالقلق الذي لم يمكنني تحديد مصدره.

في عام 1961، حددت ورقة بحثية في مجلة The Journal of abnormal and social Psychology الأسباب السبعة لخشية البشر من الموت:

1. قد يتسبب الموت في حزن أقاربي وأصدقائي.
2. كل خططي ومشاريعي ستنتهي.
3. قد تكون عملية الاحتضار مؤلمة.
4. قد أُحرم من خوض بعض الخبرات.
5. لن أكون قادرًا على رعاية من أعولهم.
6. أخشى ما قد يحدث لي إذا كانت هناك حياة بعد الموت.
7. أخشى ما قد يحدث لجسدي بعد الموت.

لم يعد القلق الذي أشعر به ناتجًا عن الخوف من الحياة الآخرة، أو الألم، أو من العدم، أو حتى الخوف من جثتي المتحللة. كل خططي ومشاريعي ستنتهي، هذه مفارقة.. فآخر ما منعني من قبول الموت هو رغبتي في مساعدة الناس على تقبُّل الموت.

تناولت العشاء في المطعم التايلاندي الوحيد في كامبريا وعدت لمنزل الاستضافة، كانت الشوارع هادئة وخالية، ومن خلال الضباب الكثيف استطعت بالكاد رؤية اللافتة المعلقة: مقبرة، بعد ميل واحد. حثثت السير إلى أعلى التل، مشيت مباشرة في منتصف الطريق بخطوات كبيرة وجريئة أكبر وأكثر جرأة مما تسمح به صحة قلبي، أطلَّ البدر من الغيوم وأضاء أشجار الصنوبر وتسبب الضباب في خلق توهج أبيض غريب.

انتهى الطريق بشكل مفاجئ عند مقبرة كامبريا، تأسست عام 1870. بعد أن خطوت فوق السلسلة المعدنية الصغيرة التي كانت رادعًا غير فعال إلى حد ما للمتسللين، مشيت بين صفوف القبور، ومن يساري جاء صوت تكسر الأوراق اليابسة، فكسر الصمت. التفت فوجدت على الطريق أمامي غزالًا هائلًا، قرونه محاطة بالضباب، وقفنا ننظر إلى بعضنا بعضًا لعدة لحظات.

تحدَّث الممثل الكوميدي لويس سي كيه عن مدى «روعة وجمال» الغزلان للإنسان حتى يعيش في الريف ويجد الغزلان تتبرز في حديقته وتتسبب في حوادث الطرق السريعة. لكن في هذه الليلة، مع وقوفه المهيب وسط الضباب، من الأفضل أن يؤمن المرء أنَّ الغزلان اللعينة تحمل رسائل روحية.

تراجع الظبي خلف شواهد القبور وعاد للأشجار، كنت مرهقة. وبغض النظر عن مدى جرأة خطواتي في الصعود إلى المقبرة، فقد كان السَّبب هو الأدرينالين الذي لا يمكن الحفاظ عليه طويلًا. كدت أسقط على الأرض مغطاة بإبر ناعمة من خشب الصنوبر، فاتكأت على شجرة بين «هوارد جاى فلانيري» (1903-1963) وقبر آخر مميز بلافتة معدنية صغيرة تقول: روح حرة وقلب هادئ.

جلست بجوار هوارد جاى فلانيري لفترة طويلة لدرجة أنَّ الضباب انقشع وأشرق البدر ناصعًا وأبيضَ وظهرت آلاف النجوم في السماء السوداء.

كان الصمت تامًا، لا صوت لصرصور الليل، ولا نسمة لريح، فقط القمر وشواهد القبور القديمة. فكرت في الأشياء التي تُعلِّمنا إياها الثقافة من الخوف من وجود كائن في مقبرة في الليل، سيظهر شبح محلق في الهواء بعينين شيطانيتين متوهجتين، سيخترق زومبي بيده المتحللة قبرًا قريبًا. ارتفاع موسيقى الأرجن، ونعيق البوم، وصرير البوابات. بدت جميعًا كأنها حيل رخيصة، فأيٌّ منها قادر على أن يُحطم سكون وكمال الموت، ولعلَّنا نُبدع الحيل خصيصى لهذا السبب، لأن تأمُّل السكون نفسه صعب للغاية.

في هذه اللحظة كنت على قيد الحياة والدَّم يسري في عروقي ويطفو فوق التَّعفن أدناه، وأمامي الكثير من الأيام المحتملة. نعم، قد أترك مشروعاتي

مشتتة وغير مكتملة بعد وفاتي، لكنني إن عجزت عن اختيار طريقة موتي جسديًا، فبإمكاني اختيار كيف سأموت عقليًا. سواء أكان موتي في الثامنة والعشرين أو الثالثة والتسعين فقد اخترت أن أموت راضية، وأنزلق في العدم، وتُصبح ذراتي هي الضباب الذي يغطي الأشجار، لم يكن سكون الموت أو سكون المقبرة عقابًا، بل مكافأة على حياة طيبة.



شكر وعرفان



نحتاج قرية إلى تأليف كتاب عن الموت[1]، أهذا هو المثل الجاري على لسان الناس؟ لا بُدَّ أنه هو، إذا سمحت لي، فهناك أشخاص يستحقون عزو الفضل إليهم.

الفريق الرائع في دار W. W. Norton المتقنون لوظائفهم لدرجة تشعرني بعدم الارتياح. «رايان هارينجتون» و«ستيف كولكا» و«إيرين سينسكي-لوفيت» و«إليزابيث كير» وآخرون ممن لا أُحصيهم.

شكر خاص لمحرري «توم ماير»، الذي لم يجاملني قط وأخذ على عاتقه حلَّ مشكلتي العويصة مع الضمائر. بارك الله فيك وفي أبنائك وأبناء أبنائك.

وكالة «روس يون»، وخاصة «آنا سبرول لاتيمر»، التي رفقت بي وأمسكت بيدي كطفلة صغيرة تائهة في الغابة خلال جميع أجزاء هذه العملية.

والداي «جون» و«ستيفاني داوتي»، شخصان داعمان يحبان ويدعمان ابنتهما حتى حين تختار حياة في الموت. على الأرجح لن أفوز بالأوسكار يا أمي، وهذا ما بالوسع.

(1) المثل الأصلي يقول: تحتاج قرية إلى تربية طفل. -المترجم.

أكره مجرد تخيلي للشخص البائس الحزين السخيف المثير للشفقة الذي كنت لأكونه لولا «ديفيد فورست» و«مارا زيلر».

أدرك أنَّ هذا الكتاب يجعلني أبدو دون أصدقاء. لدي أصدقاء، أقسم على ذلك. إنَّهم أناس لامعون ووقورون من جميع أنحاء العالم كان رد فعلهم: «ستعملين حانوتية؟ نعم، هذا منطقي».

بعض هؤلاء الأصدقاء كانوا أعينًا حريصة على قراءة ومراجعة هذا الوحش المتضخم خلال سنوات من كتابة المسودات: «ويل سي وايت»، و«ويل سلوكومب»، و«سارة فورناس»، و«أليكس فرانكل»، و«أوشا هيرولد جينكينز».

«بيانكا دالدر-فان إيرسيل» و«جيليان كان» وكلتاهما فعلت أشياء عظيمة للحفاظ على سلامة وفعالية دماغي. «باولا كاسيريس» التي قدمت الخدمة نفسها في كلية الحانوتية.

المحامي الرائع «إيفان هيس»، الذي أبقاني بعيدة عن التفاصيل الجد سيئة.

أعضاء منظمة «Order of the Good Death» ومجتمع الموت البديل عمومًا، الذين يلهمونني يوميًا لتقديم عمل أفضل.

«دوديا ستيورت» من مجلة Jezebel، سبب كبير لاهتمام الناس.

أخيرًا، الرِّجال الذين أدخلوني إلى صناعة الموت وعلموني كيف أكون مديرة جنائز أخلاقية ومجتهدة: «مايكل توم» و«كريس رينولدز» و«بروس ويليامز» و«جيسون بروس». بصراحة لم أدرك إلا بعد خروجي إلى عالم الموت القاسي والبارد كم كنت بخير في دار الجنائز الآمن والمحترف والمُدار باحترافية الذي أدعوه «ويست ويند».

ملاحظات حول المصادر

كتب الكاتب الأمريكي الكاريبي «أودري لورد»: «لا توجد أفكار جديدة، لا يوجد سوى طرقٍ جديدةٍ للشعور بها». كانت كتابة هذا الكتاب تدريبًا امتد لست سنوات في التقاط الأفكار من الفلاسفة والمؤرخين، وخلطها بتجربتي الشخصية في العمل في قطاع الموت، ومحاولة الوصول إلى طريقة ما للشعور بها.

لقد استشهدت باختصار بالعديد من النصوص التي كان لها تأثير ضخم في الكتاب النهائي. يرجى زيارة النص الأصلي، خاصة الاستشهادات بـ «إرنست بيكر» و«فيليب أرييس» و«جوزيف كامبل» و«كارولين ووكر بينوم» و«فيكتور فرانكل». سيبهرك ما تفعله لتعزيز علاقتك مع الموت والفناء.

أثناء عملي في محرقة الجثث، احتفظت بمدونة سرِّيَّة تسمى «صالون الأرواح»، التي صورتني كما كنت عام 2008، ولم تسمح لي بتغيير التاريخ.

لقد كنت محظوظة بالدعم الكامل من زملائي في العمل في المحرقة: «مايكل» و«كريس» و«بروس»، إذ لم يسمحوا لي باستخدام أسمائهم الحقيقية فحسب، بل وافقوا على الجلوس لإجراء مقابلات ومتابعات متعددة أثناء كتابة الكتاب، آمل أن يصلك احترامي لهؤلاء الرجال وما يفعلونه وأنت تقرأ.

من خلال منظمة «Order of the Good Death» كنت محظوظة بمعرفة أفضل الأكاديميين المتخصصين في الموت والمتخصصين في الجنائز الممارسين لهذا المجال حاليًا. لقد كان الوصول إلى مواردهم المختلفة، وتجاربهم في العالم الحقيقي، ومجموعات كبيرة من المعارف الدقيقة والكئيبة لا يُقدَّر بثمن.

إرشادات القراءة الجماعية

لكتاب «الدخان يقتحم عينيك»

تأليف: «كيتلين دوتي»

إرشادات القراءة الجماعية
لكتاب «الدخان يقتحم عينيك»

تأليف: «كيتلين دوتي»

رسـالـة المـؤلفـة

مرحبًا أيها الفاني!

يبدو أنك انتهيت من كتاب الدخان يقتحم عينيك. وسواء أحببته أو كرهته، فقد واجهت موتك، وهذا شيء أثني عليه.

هذه خطوة أولى ممتازة، لكن الرحلة لا تنتهي هنا. فقراءة الكتاب ينبغي أن تكون بوابة إلى نقاشات أكبر مع أصدقائك وعائلتك ووالديك والمدرسة ومجموعات القراءة. وستقودك هذه المناقشات إلى اتخاذ إجراءات، وستجد نفسك عن قريب أكثر شخص مستعد للموت تعرفه.

1. إن علاقتك بحتمية الموت علاقة تستمر مدى الحياة. ستتغير وتنمو، وستجمعكما أيام جيدة وأخرى سيئة، لكنها ستكون أكثر العلاقات ثراءً في حياتك. إنك تُسدي لنفسك الكثير من الخدمات بالاستعداد للموت والاحتضار والحديث عنهما بانفتاح.
2. نقاط أرشح لك تأملها بينك وبين نفسك ومع الآخرين:

1. ما هي أكثر معلومة غيَّرت نظرتك نحو الموت في هذا الكتاب؟
2. هل تناقش أمنياتك المتعلقة بنهاية الحياة مع أصدقائك وعائلتك؟ هل هناك قصص في هذا الكتاب غيرت مشاعرك تجاه هذه الأمنيات وهل لديك خطط لمشاركتها مع الآخرين؟
3. إلى أي مدى تعتقد أن التفكير السائد، من القوانين، والعادات، والمحرمات، قد أثر في أفكارك حول رعاية نهاية الحياة؟ ما الذي كشفته لك قراءة هذا الكتاب حول تلك السلوكيات المكتسبة؟
4. هل فاجأك تاريخ قطاع الموت الأمريكي؟ هل فكرت من قبل في جذوره ووضعه الراهن؟ أم شيء سلّمت به طوال حياتك؟
5. ماذا تعني لك الإيجابية تجاه الموت؟ كيف يختلف معنى هذا باختلاف الأفراد والمجتمعات؟
6. ما الذي يؤثر في جودة حياة الفرد؟ هل يمكن أن يُزعم أن هناك معيارًا لها؟ كيف يؤثر هذا السؤال في طريقة تعاملنا مع الموت في هذا البلد؟
7. هل وجدت أن بعض المواد في هذا الكتاب صعبة؟ هل ساهمت هذه المقاطع في تغيير تفكيرك حول الموت؟
8. ما الطريقة التي يجب أن تتعامل بها وسائل الإعلام مع الموت والجثث عند تغطيتها للمآسي في رأيك؟ ما تأثير وسائل الإعلام في طريقة تفكيرنا في الموت اليوم؟
9. ما المصادر التي تلجأ إليها لمساعدتك في توجيه تفكيرك في الموت وخيارات نهاية الحياة؟ (انظر قائمة المصادر التي رشّحتها كيتلين أدناه).
10. لو أمكنك طرح سؤال واحد على المؤلفة بعد قراءة هذا الكتاب، ماذا سيكون؟



Becker, Ernest. The Denial of Death. New York: Simon & Schuster, 1973.

Wales, Henry G. “Death Comes to Mata Hari”. Interna- tional News Service, October 19, 1917.

SHAVINGBYRON

Tennyson, Lord Alfred. In Memoriam: An Authoritative Text. New York: & Company, 2004.

PUPPYSURPRISE

Ball, Katharine. “Death Benefits”. San Francisco Bay Guard- ian, December 15, 1993.

Gorer, Geoffrey. “The Pornography of Death”. Encounter 5, no. 4 (1955): 49–52.

Iserson, Kenneth V. Death to Dust? What Happens to Dead Bodies. Galen Press, 1994.

Poe, Edgar Allan. “Annabel Lee”. In The Complete Sto- ries and Poems of Edgar Allan Poe. New York: Random House, 2012.

Solnit, Rebecca. A Paradise Built in Hell: The Extraordinary Communities That Arise in Disaster. New York: Penguin, 2010.

Suzuki, Hikaru. The Price of Death: The Funeral Industry in Contemporary Japan. Palo Alto, CA: Stanford University Press, 2000.

THETHUD

Campbell, Joseph. The Hero with a Thousand Faces. Prince- ton: Princeton University Press, 1973.

Doughty, Caitlin. "Children & Death". Fortnight (2011), fortnightjournal.com/caitlin-doughty/262-children-death.html.

Laderman, Gary. The Sacred Remains: American Attitudes Toward Death, 1799–1883. New Haven: Yale University Press, 1999.

May, Trevor. The Victorian Undertaker. Oxford, UK: Shire Publications Ltd, 1996.

TOOTHPICKSINJELL-O

Ariès, Philippe. The Hour of Our Death. Oxford: Oxford University Press, 1991.

Connolly, Ceci. "A Grisly but Essential Issue". The Washing- ton Post, June 9, 2006.

Dante. The Inferno. Translated by Robert Hollander and Jean Hollander. New York: Anchor Books, 2002.

Orent, Wendy. Plague: The Mysterious Past and Terrifying Future of the World's Most Dangerous Disease. New York: Simon & Schuster, 2013.

Stackhouse, John. "India's Turtles Clean Up the Ganges".

Seattle Times, October 1, 1992.

PUSHTHEBUTTON

Bar-Yosef, Ofer. "The Chronology of the Middle Paleolithic

of the Levant". In Neandertals and Modern Humans in Western Asia. New York: Plenum Press, 1998.

Chrisafis, Angelique. "French Judge Closes Body Worlds- style Exhibition of Corpses". The Guardian, April 21, 2009.

Cioran, Emil. A ShortEHistorRy of DecTay. Arcade Publishing, 1975

Grainger, Hilary J. Death Redesigned: British Crematoria

History, Architecture and Landscape. Spire Books, 2005.

Newberg, Andrew, and Eugene D'Aquili. Why God Won't Go Away: Brain Science and the Biology of Belief. New York: Random House, 2008.

Nietzsche, Friedrich Wilhelm. Nietzsche: The Anti- Christ, Ecce Homo, Twilight of the Idols: And Other Writings. Cambridge: Cambridge University Press, 2005.

Prothero, Stephen R. Purified by Fire: A History of Cre- mation in America. Berkeley: University of California Press, 2002.

Schwartz, Vanessa R. Spectacular Realities: Early Mass Culture in Fin-de-siècle Paris. Berkeley: University of Cal- ifornia Press, 1999.

PINKCOCKTAIL

Aoki, Shinmon. Coffinman: The Journal of a Buddhist Morti- cian. Buddhist Education Center, 2004.

Ash, Niema. Flight of the Wind Horse: A Journal into Tibet.

London: Rider, 1992.

Beane Freeman, Laura, et al. "Mortality from lymphohe- matopoietic malignancies among workers in formalde- hyde industries: The National Cancer Institute Cohort". Journal of the National Cancer Institute 101, no. 10(2009): 751–61.

Conklin, Beth A. Consuming Grief: Compassionate Can- nibalism in an Amazonian Society. University of Texas Press, 2001.

Geertz, Clifford. The Interpretation of Cultures: Selected Essays. New York: Basic Books, 1973.

Gilpin Faust, Drew. The Republic of Suffering: Death and the American Civil War. New York: Random House, 2009.

Habenstein, Robert W., and William M. Lamers. The

History of American Funeral Directing. National Funeral Directors Association of the United States, 2007.

Laderman, Gary. The Sacred Remains: American Attitudes Toward Death, 1799–1883. New Haven: Yale University Press, 1996.

O'Neill, John. Essaying Montaigne: A Study of the Renais- sance Institution of Writing and Reading. Liverpool: Liv- erpool University Press, 2001.

Taylor, John. Death and the Afterlife in Ancient Egypt. Chi- cago: University of Chicago Press, 2001.

DEMONBABIES

Baudelaire, Charles. The Flowers of Evil [Les fleurs du mal]. Translated by Christopher Thompson. iUniverse, 2000.

Cohan, Norman. Europe's Inner Demons: The Demonization of Christians in Medieval Christendom. New York: Pen- guin, 1977.

Kramer, Heinrich, and James Sprenger. The Malleus Malefi- carum. Translated by Montague Summers. Courier Dover Publications, 2012.

Paré, Ambroise. Des monstres et prodiges. Librairie Droz, 2003.

Roper, Lyndal. Witch Craze: Terror and Fantasy in Baroque Germany. New Haven: Yale University Press, 2006.

Sanger, Carol. "'The Birth of Death': Stillborn Birth Certif- icates and the Problem for Law". California Law Review 100, no. 269 (2012): 269–312.

DIRECTDISPOSAL

Gorer, Geoffrey. "The Pornography of Death". Encounter 5, no. 4 (1955): 49–52.

Mitford, Jessica. The American Way of Death: Revisited. New York: Random House, 2011.

———. Interview with Christopher Hitchens. The New York Public Library, 1988.

Prothero, Stephen R. Purified by Fire: A History of Crema- tion in America. Berkeley: University of California Press, 2002.

Time. “The Necropolis: First Step Up to Heaven” Time, September 30, 1966.

Waugh, Evelyn. The Loved One. Boston: Back Bay Books, 2012.

UNNATURALNATURAL

Snyder Sachs, Jessica. Corpse: Nature, Forensics, and the Struggle to Pinpoint Time of Death. Da Capo Press, 2002.

ALAS ,POORYORICK

Asma, Stephen T. Stuffed Animals and Pickled Heads: The Culture and Evolution of Natural History Museums. Oxford: Oxford University Press, 2003.

Friend, Tad. “Jumpers: The Fatal Grandeur of the Golden Gate Bridge”. The New Yorker, October 13, 2003.

Harrison, Ann Tukey, editor. The Danse Macabre of Women: Ms. Fr. 995 of the Bibliothèque Nationale. Akron, OH: Kent State University Press, 1994.

Paglia, Camille. Sexual Personae. New Haven: Yale Univer- sity Press, 1990.

Roach, Mary. Stiff: The Curious Lives of Human Cadavers.

New York: W. W. Norton & Company, 2004.

EROSANDTHANATOS

Andersen, Hans Christian. The Little Mermaid. Translated by H. B. Paull. Planet, 2012.

Brothers Grimm. The Grimm Reader: The Classic Tales of the Brothers Grimm. Translated by Maria Tatar. New York: & Company, 2010.

Bynum, Caroline Walker. Jesus as Mother: Studies in the Spirituality of the High Middle Ages. Berkeley: University of California Press, 1982.

Campbell, Joseph. The Hero with a Thousand Faces. Prince- ton: Princeton University Press, 1973.

Doughty, Caitlin. "The Old & the Lonely". Fortnight (2011), fortnightjournal.com/caitlin-doughty/276-the-old-the-lonely.html.

Lang, Andrew. The Red True Story Book. Longmans, Green, and Company, 1900.

Rank, Otto. Beyond Psychology. Courier Dover Publications, 2012.

Sachs, Adam. "Stranger than Paradise". The New York Times Style Magazine, May 10, 2013.

BUBBLATING

Ariès, Philippe. The Hour of Our Death. Oxford: Oxford University Press, 1991.

Campobasso, Carlo Pietro, Giancarlo Di Vella, and Fran- cesco Introna. "Factors affecting decomposition and Diptera colonization". Forensic Science International 120 nos. 1–2 (2001): 18–27.

DickeyO, Colin. Afterlives of the Saints. Unbridled Books, 2012.

Eberwine, Donna. "Disaster Myths that Just Won't Die".

Perspectives in Health —The Magazine of the Pan American Health Organization 10, no. 1 (2005).

Geertz, Clifford. The Religion of Java. Chicago: University of Chicago Press, 1976.

Kanda, Fusae. "Behind the Sensationalism: Images of a Decaying Corpse in Japanese Buddhist Art". Art Bulletin 87, no. 1 (2005).

Lindsay, Suzanne G. Funerary Arts and Tomb Cult: Living with the Dead in France, 1750–1870. Ashgate Publishing, 2012.

Mirbeau, Octave. Torture Garden. Translated by Alvah Bes- sie. powerHouse Books, 2000.

Miller, William Ian The Anatomy of Disgust. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2009.

Mongillo, John F., and Bibi Booth. Environmental Activists.

Greenwood Publishing Group, 2001.

Noble, Thomas F. X., and Thomas Head. Soldiers of Christ: Saints and Saints' Lives from Late Antiquity and the Early Middle Ages. University Park, PA: Penn State Press, 2010. Shelley, Mary. Frankenstein. London: Palgrave Macmillan, 2000.

GHUSL

Beckett, Samuel. Waiting for Godot: A Tragicomedy in Two Acts. London: Faber & Faber, 2012.

Bynum, Caroline Walker. Fragmentation and Redemption: Essays on Gender and the Human Body in Medieval Reli- gion. Zone Books, 1991.

Metcalf, Peter, and Richard Huntington. Celebrations of

Death: The Anthropology of Mortuary Ritual. Cambridge: Cambridge University Press, 1991.

Nelson, Walter. Buddha: His Life and His Teachings. New York: Penguin, 2008.

Quigley, Christine. The Corpse: A History. MacFarland, 2005.

THEREDWOODS

Frankl, Viktor Emil. Man's Search for Meaning: An Introduc- tion to Logotherapy. Boston: Beacon Press, 1992.

Heinrich, Bernd. Life Everlasting: The Animal Way of Death.

Boston: Houghton Mifflin Harcourt, 2012.

Walther, Ingo F. Paul Gauguin, 1848–1903: The Primitive Sophisticate. Taschen, 1999.

Wilson, Horace Hayman. The Vishńu Puráńa: A System of Hindu Mythology and Tradition. J. Murray, 1840.

DETHSKOOL

Collison, Tim. "Cosmetic Considerations for the Infant Death". Dodge Magazine, Winter 2009.

Lynch, Thomas. The Undertaking: Life Studies from the Dis- mal Trade. New York: & Company, 2010.

T H EA R TO FD Y I N G

Atkinson, David William. The English Ars Moriendi. Lang, 1992.

Campbell, Joseph. The Hero with a Thousand Faces. Prince- ton: Princeton University Press, 1973.

Colman, Penny. Corpses, Coffins, and Crypts: A History of Burial. Boston: Macmillan, 1997.

Gawande, Atul. "The Way We Age Now". The New Yorker, April 30, 2007.

Gollner, Adam Leith. "The Immortality Financiers: The Billionaires Who Want to Live Forever". The Daily Beast, August 20, 2013.

Hanson, Rick. Buddha's Brain: The Practical Neuroscience of Happiness, Love, and Wisdom. New Harbinger Publica- tions, 2009.

Jacoby, Susan. Never Say Die: The Myth and Marketing of the New Old Age. New York: Random House, 2012.

Von Franz, Marie-Louise. "Archetypal Experiences Sur- rounding Death". Lecture, Panarion Conference, C. G. Jung Institute of Los Angeles, 1978.

P R O D I G A L D A U G H T E R :

A N E P I L O G U E O F S O R T S

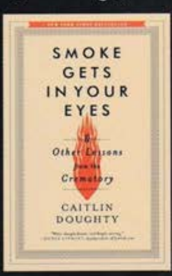
Diggory, James C., and Doreen Z. Rothman. "Values Destroyed by Death". The Journal of Abnormal and Social Psychology 63, no. 1(1961): 205–10.

Louis C.K. Chewed Up. Filmed at the Berklee Performance Center, Boston, October 2008.



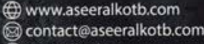
الدخان يقتحم عينيك

مُتسلحة بدراستها الجامعية لتاريخ العصور الوسطى وولع بكل ما له علاقة بالجنائز، تولت "كيتلين دوتي" وظيفة في دار لحرق الجثث وحوّلت ولعها بالموت إلى مهمتها في الحياة. لقد اهتمت بالجثث باختلاف ألوانها وأشكالها ومُصابها، وأصبحت مستكشفةً جَسورة لعالم الأموات. في هذه المذكرات الأكثر مبيعًا المُمتلئة بالتهكُّم الطريف والشخصيات البارزة، تُدهشنا "دوتي" بالتاريخ المروّع للدفن وتربط قصة نشأتها الفريدة بالحب الشديد للاستطلاع وخفة الظل اللاذعة. وفي رحلة من الضحك والقتامة والإثارة، يكشف كتاب "الدُّخان يقتحم عينيك" كيف طغى الخوف من الموت على مجتمعنا و"سيدفعك إلى إعادة التفكير في الطريقة التي تتعامل بها ثقافتك مع الموتى". (سان فرانسيسكو كرونيكل).



تصميم الغلاف كريم آدم




عصير الكتب


contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb